أجاثا كريستي

الجَريمة المَنْسِيَّة

دار النجمة للنشر والتوزيع

الجَريمة المَنْسِيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

الجَريمة المَنْسِيَّة

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

البيت

وقفت غويندا ريد لا تبدي حراكاً فوق رصيف الميناء، وراحت تردّد البصر حولها وهي ترتجف بانفعال. كانت أحواض الجمرك ومبانيه هي كل ما استطاعت أن تراه من إنكلترا في ذلك الوقت، وفي تلك اللحظة استقرّ رأيها على قرار ما كانت تدري حينئذ أنه سيجرّها إلى سلسلة من مغامرات مأساوية، وهذا القرار هو أنها لن تذهب إلى إنكلترا بالقطار كما كانت قد عزمت من قبل.

ولم يكُن يوجد من يرغمها على ذلك، لا سيما وأنه لم يكُن يوجد من ينتظرها بالمحطة. وكانت قد نزلت من الباخرة في بليموث بعد رحلة هاج فيها البحر هياجاً شديداً في الأيام الثلاثة الأخيرة منها، وأصبح آخر شيء تتمناه هو أن لا تكمل رحلتها في قطار يزعجها هو الآخر باهتزازه ورجرجته. وآثرت أن تقضى الليلة في فندق وأن تستمتع بالنوم في فراش وثير لا يَصرّ ولا يتمايل، ثم تستأجر سيارة أجرة في اليوم التالي وتبدأ الطواف بجنوب إنكلترا ببطء دون إسراع بحثاً عن بيت جميل كي تشتريه كما اتفقت مع غايلز.

نعم، كانت تلك الفكرة رائعة حقاً، فبهذه الطريقة تستطيع أن ترى ناحية من إنكلترا طالما حدّثها غايلز عنها ولم تعرفها بعد، وإن كانت تعتبرها وطنها الثاني كما يعتقد أغلب النيوزيلنديين. ولكن إنكلترا في ذلك اليوم لم تكُن بالمنظر الجذاب الذي يشدّ الأعين؛ فقد كانت السماء ملبدة بالسحب وتنذر بهطول الأمطار وكانت الرياح شديدة البرودة. وبينما كانت تتقدم باستسلام مع غيرها من المسافرين نحو الجمرك ومكتب الجوازات أخذت تحدّث نفسها فتقول إنها نزلت إنكلترا في يوم أغبر كئيب لسوء حظها، ولكن لم يلبث أن تغيّر رأيها في اليوم التالي؛ فقد سطعت الشمس وطالعها من نافذتها منظر جميل، ولم تعُد الدنيا التي تمتدّ أمامها تهتزّ أو تتأرجح، فقد سكنت العاصفة وبدا كل شيء هادئاً. تلك هي إنكلترا التي تستقبل السيدة غويندا ريد، العروس التي بلغت واحداً وعشرين ربيعاً، بعد رحلة طويلة.

ولم تكُن غويندا تعرف متى يأتي غايلز بالتحديد، فربما تبعها بعد بضعة أسابيع، وربما مرّت عدة شهور قبل أن يلحق بها، فهو الذي حملها على أن تسبقه إلى إنكلترا كي تبحث عن بيت يناسبها. والواقع أن كلاً منهما قد رأى أنه سيكون شيئاً مريحاً لو كان لهما بيت مؤقت في مكان ما؛ فقد كان عمل غايلز يضطرّه إلى القيام بالعديد من الانتقالات، وكان في مقدور غويندا أن تتبعه في بعض الأحيان طبعاً، ولكن سيتعذر عليها ذلك في مناسبات عديدة. وراح كل منهما يعلل النفس بأنه سيكون لهما بيت يستقران فيه. وكان غايلز قد ورث حديثاً بعض الأثاث عن عمة له بحيث إن كل شيء أسهم في دفعهما إلى هذا المشروع. ومن ناحية أخرى كانت غويندا وزوجها يتمتعان برفاهية كبيرة ساعدتهما على تنفيذ ذلك المشروع. ومع ذلك فقد تردّدت غويندا في بادئ الأمر في القدوم

إلى إنكلترا وحدها لاختيار بيت وشرائه، وقالت لغايلز: يجب أن نقوم بهذا العمل معاً.

ولكن غايلز أجابها ضاحكاً بقوله: هذا عمل لا يدخل في اختصاصي. إذا أعجبك البيت فسوف يروقني أنا الآخر. يجب أن يكون ملحقاً به حديقة صغيرة طبعاً، وأن لا يشبه تلك البيوت الحديثة الفظيعة التي نراها في كل مكان تقريباً، وأرى أن تبحثي عن بيت في جنوب إنكلترا وأن يكون بعيداً عن البحر.

فقالت لزوجها وهي تبتسم: إذن فأنت تنوي أن تجعلني أقوم بالعمل وحدي؟

ولكن الواقع أن فكرة شراء بيت وتأثيثه وإعداده ترحيباً بعودة غايلز سرّتها جداً، خصوصاً وأنها كانت تعشق زوجها.

وفي أول صباح، وبعد أن تناولت إفطارها وهي في الفراش نهضت فرسمت خططها، وقضت اليوم في زيارة بليموث، وقد اغتبطت بذلك كثيراً. وفي صباح اليوم التالي استأجرت سيارة مريحة من طراز ديملر بسائقها وبدأت الطواف بالمنطقة.

كان الطقس جميلاً والنزهة ممتعة، فزارت بيوتاً كثيرة في مقاطعة دينون، ولكنها لم تجد بينها ما تتمناه تماماً، غير أنه لم يكن يوجد ما يدعوها إلى أن تتعجّل فاستمرّت في بحثها بهدوء. وكانت قد تعلّمت كيف تقرأ ما بين السطور في الإعلانات التي ينشرها السماسرة، ولهذا وفّرت على نفسها عدداً من الانتقالات عرفت أنه لا فائدة منها.

وبعد نحو أسبوع من قدومها إلى إنكلترا، وفي مساء يوم ثلاثاء، نزلت بها السيارة طريقاً متعرّجاً يؤدي إلى المصيف

المشهور المعروف باسم ريلموث، ومرّت السيارة فجأة أمام بوابة حديدية عُلّقت بها لافتة عليها كلمة «للبيع»، ورأت خلالها فيلا بيضاء مبنية على الطراز الفيكتوري، فأحسّت غويندا بقلبها تتسارع دقاته. كان ذلك هو بيتها، وكانت واثقة من ذلك، وتخيلت الحديقة والنوافذ العالية. نعم، اقتنعت أن ذلك البيت هو الذي تحلم به تماماً وتتمناه.

وكانت الشمس توشك على المغيب، فمضت إلى فندق رويال كلارنس فقضت به الليل، ولم تذهب إلى مكتب سمسار العقارات الذي قرأت اسمه على اللافتة إلا في صباح اليوم التالي. وقد أعطاها السمسار خريطة للبيت، ولم تلبث أن وجدت نفسها في غرفة الاستقبال الكبيرة القديمة بنوافذها الكبيرة التي تؤدي إلى شرفة أمامها ممرّ يكسوه الحصى الرفيع وتنتشر فيه أشجار صغيرة تمتد بانحدار نحو أرض خضراء، وقد بدا جزء من البحر من خلال الأشجار فيما بعد الحديقة. وعادت غويندا تقول لنفسها: هذا هو بيتي، يخيل إليّ أنني أعرفه كلّه منذ الآن.

وفي نفس اللحظة انفتح الباب ودخلت امرأة طويلة القامة يرتسم الحزن على محيّاها وتعاني من زكام شديد، فسألتها غويندا قائلة: السيدة هنغريف؟ إنني قادمة من قِبل السمسار كي أرى البيت، ولكن لعل الوقت لا يزال مبكراً.

تنشقت السيدة هنغريف ثم قالت: لا أهمية لهذا.

وبدأت الزيارة على الفور. نعم، كانت تلك الفيلا ممتازة، فهي ليست كبيرة أكثر من اللازم، ولعلها قديمة شيئاً ما ولكن من الممكن إدخال تعديلات عليها من بينها غرفة الحمّام وتجديد المطبخ وتركيب حوض جديد وبعض التجهيزات الحديثة.

وبينما كانت غارقة في رسم الخطط والمشروعات كان صوت السيدة هنغريف يروي برنّات رتيبة تفصيلات المرض الأخير للميجور هنغريف. لقد كان أقرباء السيدة هنغريف يقيمون في مقاطعة كِنت ويتشوقون إلى أن تذهب للإقامة معهم، وقد أحبّ الميجور ديلموث كثيراً وقضى سنوات عديدة وهو يشغل منصب سكرتير نادي الغولف. أما هي...

- نعم، طبعاً. إن المستشفيات هكذا دائماً...

كان نصف غويندا يحرص على أن ينطق من وقت إلى آخر ببعض الكلمات التي تعبّر بها عن عطفها ورثائها، وكان نصفها الآخر يتابع أفكارها. كان عقلها يقول: أظن أنه يجب وضع خزانة الثياب الداخلية هنا. نعم، وغرفة بفراشين تطلّ على البحر. سيروق هذا غايلز كثيراً. أما هذه الغرفة الصغيرة فيمكن أن تتحول إلى دورة مياه، وها هي غرفة الحمام. أظن أن حوض الاستحمام مغطى بخشب الأكاغو. نعم، لقد أصبت التخمين، وهو يقع في وسط الغرفة. إنها جميلة وواسعة، وإنني أعرف ما سوف نفعل بهاتين الغرفتين الصغيرتين المظلمتين اللتين تطلان على خلفية البيت، سنجعل منهما غرفتَي استحمام أيضاً. أما هذه الغرفة فسنحتفظ بها كما هي.

قالت السيدة هنغريف: نزلة شعبية تحوّلت إلى التهاب رئوي بعد ثلاثة أيام.

فتمتمت غويندا قائلة: هذا فظيع! ولكن أخبريني، ألا توجد غرفة أخرى في آخر هذا الممرّ؟

وكانت توجد غرفة حقاً، وكانت كما تصوّرتها تماماً، بجدران مكوّرة وفي وسطها نافذة كبيرة تفضي إلى شرفة رحبة. كان يجب

إعادة تصميمها طبعاً، ومع ذلك فقد كانت في حالة جيدة. ولكن لماذا يحب الناس الذين على شاكلة السيدة هنغريف هذا الورق الذي بلون الخردل؟

استدارت ومشت في الممرّ خلف السيدة هنغريف وهي تقول: ستّ غرف للنوم، بل سبع، بخلاف الغرفة الصغيرة والغرفة الأخرى ذات السقف المنخفض.

وكانت الأرضية تئن تحت أقدامها بصوت خفيف، وخُيل إليها أنها هي التي كانت تعيش في ذلك البيت لا السيدة هنغريف، وأن تلك الأخيرة إنما هي دخيلة وأنها كست جدران الغرف بورق عجيب اللون.

خفضت غويندا عينيها نحو الورقة التي في يدها والمكتوبة على الآلة الكاتبة والتي سُجّلت بها أوصاف البيت والثمن المطلوب، وكانت قد أخذت فكرة في الأيام الأخيرة عن أثمان البيوت، ولم يكُن المبلغ المطلوب لذلك البيت مبالَغاً فيه، ولكن البيت نفسه كان بحاجة إلى تعديلات هامة بالطبع، وحتى مع تكاليف تلك التعديلات الضرورية كان الثمن مقبولاً. ورأت في أسفل الورقة عبارة: «الثمن قابل للمساومة»، فقالت لنفسها لا بدّ أن السيدة هنغريف تشتاق إلى العودة إلى جوار أقربائها في إقليم كِنت.

وكانت المرأتان قد بدأتا تنزلان من فوق الدرَج عندما غمر غويندا إحساس مبهم بخوف عجيب غير منطقيّ. لقد كان إحساساً فظيعاً سرعان ما تبخّر كما جاء، ومع ذلك فقد خطرت لها فكرة جديدة فقالت بارتباك: أظن أن البيت ليس مسكوناً.

وكانت السيدة هنغريف تنزل فوق الدرَج أمامها، وكانت قد بلغت في حديثها تلك المرحلة التي تدهورت فيها صحّة الميجور

هنغريف بسرعة، فنظرت إلى غويندا بفزع وقالت: إنه ليس هكذا على ما أعلم. هل أشاع أحد ذلك؟

- ألم تشعري أنت نفسك بشيء قط؟ ألم ترَي شيئاً ما؟ هل مات أحد هنا؟

وندمت غويندا فور إلقائها ذلك السؤال المزعج لأنه من المحتمل أن الميجور هنغريف... لكن المرأة أجابتها بصوت جافّ قائلة: لقد مات زوجي في مستشفي سنت مونيك.

- أظن أنك قلت لي ذلك.

واستطردت صاحبة البيت تقول بنفس اللهجة الجافة: إن بيتاً بُني منذ مئة سنة لا بدّ أن يكون قد مات فيه كثيرون. ومع ذلك فإن الآنسة ألوورثي التي اشترى منها زوجي المسكين البيت منذ سبع سنوات كانت تتمتع بصحة جيدة ولم تذكر قط أن أحداً من أفراد أسرتها قد مات في البيت.

أسرعت غويندا تهدّئ من روع السيدة هنغريف. وعادتا إلى غرفة الاستقبال، وهي غرفة جميلة يسودها جوّ من الهدوء كانت المرأة الشابة تحلم به، وبدا لها أن لحظة الذعر الخاطفة التي تملّكتها لم يكُن يوجد ما يبرّرها، فما الذي حدث؟ لم يكُن بالبيت أي شيء غريب أو غير طبيعي. ثم استأذنت من السيدة هنغريف في أن تذهب لإلقاء نظرة على الحديقة، فخرجت من باب الشرفة فوجدت نفسها في الشرفة ثم قالت تحدّث نفسها: كان يجب أن تكون هنا بضع درجات.

ولكن كان يوجد بدلاً من ذلك شجرة عالية أخفت منظر البحر تقريباً، فهزت غويندا رأسها وقالت في نفسها إنها سوف تغيّر كل هذا، ثم اجتازت الشرفة خلف السيدة هنغريف فنزلت فوق

الدرَج الحجري الصغير المؤدي من الناحية الأخرى إلى الأرض المزروعة، ولاحظت أن الممرّ الذي يغطيه الحصى قد غزاه العشب وأن أكثر الأشجار بحاجة إلى التشذيب. وتمتمت السيدة هنغريف معتذرة بأنها أهملت الحديقة تقريباً لأنه ليس بمقدورها الاستعانة بأحد البستانيّين بصفة دائمة.

وبعد أن ألقت غويندا نظرة إلى بستان الخضر، وكان به من أنواعها ما يفي بالحاجة على الرغم من صغره، قالت إن عليها أن تشاهد بيوتاً أخرى، وإنه على الرغم من أنها أحبّت هيلساید إلا أنها لا تستطيع أن تتخذ قراراً عاجلاً، ثم تركت السيدة هنغريف وهي تنظر إليها بتفكير.

عادت غويندا إلى المكتب وقدّمت عرضاً نهائياً، ثم قضت بقية اليوم في زيارة ديلموث. وكانت المدينة عبارة عن مصيف صغير جميل فيه فندقان حديثان وبيوت ذات ألوان زاهية، ولكن منظر الشاطئ بكثبانه الرملية حال دون امتداد المدينة أكثر من ذلك.

وبعد أن فرغت غويندا من تناول الغداء جاءتها مكالمة من المكتب قيل لها فيها إن السيدة هنغريف قبلت العرض الذي تقدّمت به، فارتسمت على شفتَي المرأة الشابة ابتسامة ماكرة وأسرعت إلى مكتب البريد فأرسلت البرقية التالية لغايلز: «اشتريت البيت. لك حبّي. غويندا».

ثم تمتت تقول: سوف تتملّكه الدهشة، وسيعلم أنني لم أضيّع وقتي.

* * *

الفصل الثاني

الورق الملوّن

مرّ شهر وانتقلت غويندا إلى منزل «هيلسايد» ونقلت إليه المفروشات التي ورثها غايلز عن عمته من مخزن الأثاث، وكانت بالية بعض الشيء ولكنها كانت من طراز حديث. وقد اضطُرت غويندا إلى بيع خزانتَي ثياب بسبب كِبر حجمهما، ولكن الباقي تآلف مع البيت العتيق وانسجم تماماً. وكان في غرفة الاستقبال منضدتان صغيرتان مرصعتان بالصدف ومكتب صغير وأريكة من خشب الأكاغو. كما نقلت الكراسي القديمة المبطنة إلى الغرف الأخرى، واشترت لها ولزوجها مقعدين وثيرين وضعت كلاً منهما مقابل الآخر أمام المدفأة في حين وضعت الأريكة الطويلة بين النافذتين، واختارت للستائر نوعاً من الكريتون المطبوع والمزخرف بورود وعصافير صفراء فوق خلفية زرقاء.

بدت لها الغرفة في غاية الجمال، ومع ذلك فلم تكُن قد استقرّت بعدُ لأن العمّال كانوا لا يزالون يعلمون في البيت. كانوا قد فرغوا من إعداد غرفتَي الاستحمام الجديدتين ومن تركيب التجهيزات الحديثة بالمطبخ. أما لون الحوائط فقد رأت أن تنتظر قليلاً قبل البدء فيه لأنها أرادت أن تعتاد على البيت وأن تألفه قبل

أن تختار نوع الورق الجديد الذي ستغطي به جدران غرفة النوم. وكانت قد فرغت من إعداد كل شيء، ولم يكُن يوجد أيّ داعٍ إلى مزاولة أكثر من عمل في وقت واحد.

والتحقت بخدمتها امرأة تُدعى السيدة كوكر للإشراف على شؤون البيت وإعداد الطعام في نفس الوقت، وقد جاءتها السيدة كوكر بصينية الطعام في ذلك الصباح وهي لا تزال في فراشها وقالت لها: عندما لا يكون بالبيت رجل فإن المرأة تفضّل تناول طعامها في الفراش.

ولم تجعل غويندا إقامتها في الغرفة الكبيرة ذات الفراشين مؤجِّلة ذلك حتى مجيء غايلز، وأقامت في الغرفة الصغيرة ذات الشرفة الكبيرة المستديرة التي تقع في آخر الممرّ، وقد أحسّت فيها بأنها في بيتها وبأنها سعيدة، وقالت وهي تردّد البصر حولها بسعادة: هذه الغرفة تروقني كثيراً.

فألقت السيدة كوكر نظرة متسامحة حولها ثم قالت: إنها غرفة جميلة يا سيدتي على الرغم من أنها صغيرة، ويبدو من القضبان المزوّدة بها النوافذ أنها كانت غرفة طفل في وقت من الأوقات.

كان يبدو أنها تريد أن تعني بقولها هذا: عندما يأتي الرجل بالبيت قد نحتاج إلى حجرة نوم للطفل. فاحمرّ وجه غويندا وردّدت البصر حولها قائلة في نفسها: أجل، ستكون غرفة نوم جميلة لطفل. ثم راحت تفرشها في ذهنها، فهنا لصق الحائط، وهناك بيت كبير للدمية وخزائن صغيرة لحفظ اللعب، وفي الموقد تتأجج نار هادئة تبعث الدفء في أنحاء الغرفة. ولكنها لن تحتفظ بذلك الورق الخردلي اللون يجب أن تختار نوعاً آخر فاتحاً وزاهياً فيه زهور جميلة.

ولم تكُن توجد حاجة إلى مفروشات كثيرة لأنه توجد في الحائط خزانتان، ولكن إحداهما كانت مغلقة ومفتاحها مفقوداً ومغطاة بطبقة من الدهان مما يدلّ على أنها لم تُستخدم منذ فترة طويلة. قالت غويندا تحدّث نفسها إنها يجب أن تكلّف العمال بأن يفتحوها في اليوم التالي لأنها ستحتاج إليها كي تضع فيها الثياب التي لا تجد لها مكاناً.

أخذت تحسّ بأنها في بيتها في هيلساید يوماً بعد يوم، وكانت قد بلغت في تأملاتها إلى تلك الدرجة عندما سمعت عبر النافذة المفتوحة نحنحة رجل، ففرغت من طعامها على عجل. كان فوستر البستاني، المعروف بغرابة أطواره وبأنه لا يفي بوعوده بحيث أصبح لا يمكن الاعتماد عليه، قد برّ بوعده تلك المرة وأقبل صباح ذلك اليوم.

وثبت غويندا من فراشها ثم ارتدت ثيابها وأسرعت إلى الحديقة، وكان قد خطر لها منذ أن اشترت هيلساید أن تعدّ ممراً خلال الطريق الحجري بحيث يمكنها أن تصل إلى الأرض المزروعة مباشرة، ولكن فوستر تمردّ في بداية الأمر محتجّاً بأنه لا بدّ لذلك من اقتلاع الشجرة الكبيرة، وهي شجرة جميلة سوف تذبل إذا ما أُعيد غرسها في مكان آخر، إلا أن المرأة الشابة صمّمت على رأيها بحيث راح يعمل بحماسة ونشاط كبيرين.

استقبلها البستاني بضحكة صغيرة قائلاً: لكأنك تعودين إلى الأيام الخوالي يا سيدتي.

- الأيام الخوالي؟ ماذا تعني؟

فضرب البستاني الأرض بمعوله ثم قال: لقد بلغت الآن المكان الذي كانت فيه الدرجات القديمة. كان يوجد هنا ممرّ من

قبل، وهو كما تريدينه أنت تماماً، ولا ريب أن ساكناً قديماً قد ردمه حتى لا يُستخدَم.

- هذا يدلّ على أنه كان غبياً حقاً؛ فلا يوجد أجمل من أن ترى الأرض المزروعة والبحر من نافذة غرفة الاستقبال.

- هذا صحيح يا سيدتي، ثم إن هذه الشجرة الضخمة كانت تمنع النور عن غرفة الاستقبال، ومع ذلك فما زلت أعتقد أن اقتلاعها خسارة كبيرة لأنها شجرة ثمينة لن تُعوّض.

- أعرف ذلك.

ثم أشارت بيدها إلى البحر الذي يبدو من بعيد واستطردت قائلة: ولكن هذا المنظر أجمل بكثير.

فحكّ فوستر ذقنه ثم قال بتفكير: هذا صحيح.

- ولكن قل لي، مَن الذي كان يقيم هنا قبل آل هنغريف؟

- قبل آل هنغريف؟ لم يُقِم الميجور هنغريف وزوجته في البيت أكثر من خمس أو ستّ سنوات، وقد أقامت به من قبلهما الآنسة ألوورثي هي وأخواتها الأربع، وقبلهن... نعم، كانت تقيم به السيدة فنديزون، وكانت سيدة من سيدات المجتمع ومن أهالي المنطقة، وقد كانت تقيم هنا قبل أن أولد.

- هل ماتت في هيلسايد؟

- لا، بل ماتت في مكان ما من مصر، وهي التي زرعت شجرة المنغولية هذه والأشجار الصغيرة الجميلة التي حولها. لقد كانت تحبّ الأشجار جداً. وفي ذلك الوقت لم يكُن يوجد أيّ من هذه المنازل التي ترينها بطول التل. لقد كنا في ذلك الوقت في

الريف حقاً. لم تكُن دُور العرض موجودة ولا كل تلك المتاجر الجديدة، بل إن الساحة نفسها لم تكُن موجودة.

ونمّ صوته عن ذلك الاستهجان الذي يحسّ به المسنّون أمام كل تجديد، ثم استطرد قائلاً بشيء من الازدراء: تغيير، ولا شيء غير التغيير.

فقالت غويندا بلهجة رقيقة: إن التغيير أمر ضروري لا مفرّ منه، ومهما يكُن فتوجد اليوم تحسينات كثيرة.

- ولكنني لم ألحظ شيئاً منه. تغيير فقط، ألا تباً له!

ثم أشار فوستر إلى سور كبير يقوم خلفه إلى اليسار مبنى يتألق تحت أشعة الشمس قائلاً: كان هذا المبنى فيما سبق مستشفى البلدة، وكان وجوده في هذا المكان جميل وعمليّ، ولكنهم شيّدوا مستشفى آخر أكبر على بُعد نحو ميل من البلدة، وإذا أردت أن تزوري أحد المرضى فلا بدّ لك من عشرين دقيقة كي تذهبي إليه سيراً على الأقدام وعشرين دقيقة أخرى للعودة، أو دفع ثمن تذكرة في حافلة النقل.

ثم أشار إلى السور مرة أخرى وقال: أما الآن فقد أصبح هذا المبنى مدرسة للبنات منذ عشر سنوات. تغيير وتغيير، ودائماً تغيير كما قلت لك. ثم يوجد شيء آخر، وهو أن الناس يأتون اليوم ويسكنون بيتاً يقيمون فيه نحو خمس عشرة سنة ثم ينتقلون منه إلى مكان آخر. إنهم لا يستقرّون في مكان واحد أبداً؛ لقد تغيرت الدنيا وأصبحت غير الدنيا التي كنت أعرفها.

عادت غويندا إلى البيت وعلى شفتيها ابتسامة، وبعد أن ألقت نظرة على العمّال ذهبت إلى غرفة الاستقبال وجلست أمام المكتب

الصغير كي تكتب بعض الخطابات، وكانت قد جاءتها رسالة من أقرباء غايلز المقيمين في لندن، وكانت تحمل لها دعوة لزيارتهم في منزلهم بشلسي إذا ما نزلت بالمدينة. وكان رايموند وست روائياً معروفاً، أما زوجته جوان فقد كانت رسّامة. قالت غويندا لنفسها إنه قد يسعدها أن تزورهما، ولكنهما قد يعتبرانها غير مثقفة لأنها لا هي ولا غايلز قد لقيا حظاً كبيراً من الثقافة.

ارتفعت في أنحاء البيت دقة الناقوس، وكان له صوت مهيب. كانت تلك الآلة القديمة موجودة في البيت عندما اشترته من السيدة هنغريف، وكان يبدو أن السيدة كوكر تشعر بسرور كبير وهي تدق عليها كي تعلن عن مواعيد الطعام. سدّت غويندا أذنيها بيديها ونهضت فاجتازت غرفة الاستقبال من الناحية الأخرى ثم توقفت وهي تطلق صيحة تدلّ على الاستياء؛ فقد كانت تلك هي المرّة الثالثة التي يحدث لها ذلك؛ كان يخيّل إليها أنها تتوقع أن تمرّ من خلال الجدار كي تمضي إلى غرفة الطعام.

واستدارت فخرجت من البهو ثم دارت بزاوية غرفة الاستقبال كي تصل إلى غرفة الطعام، وكانت تلك دورة كبيرة، وخطر لها أنه سيكون أمراً مزعجاً إذا اضطُرّت إلى ذلك في أثناء الشتاء لأن التيارات الهوائية كانت تملأ البيت وأنابيب التدفئة لم تُركّب في الطابق الأرضي إلا في غرفتَي الاستقبال والطعام، فجلست إلى المائدة وهي تقول: لا أدري لماذا لا أفتح باباً يصل بين الغرفتين. سأتحدّث في هذا مع السيد سيمز غداً.

والسيد سيمز هو المقاول الذي يقوم بأعمال الإصلاحات في البيت، وهو رجل في الأربعينات من عمره له صوت مبحوح يتحرك دون انقطاع وفي يده دفتر صغير يدوّن فيه كل الآراء الباهظة

التكاليف التي يمكن أن تخطر لعملائه. وقد هز رأسه موافقاً حين استشارته غويندا بخصوص الباب قائلاً: هذا من أسهل الأمور يا سيدة ريد، ثم إنه رأي سليم وعمليّ.

- هل يكلّفني هذا كثيراً؟

وكانت المرأة الشابة قد تعلّمت أن تكون على حذر من تأكيدات السيد سيمز وحماسته لأنها عانت الكثير قبل ذلك من التغييرات التي طرأت على تقديراته المبدئية، فأجابها المقاول بلهجة أراد أن تكون مطمئنة: مبلغ زهيد. سأطلب من تايلور أن يأتي ويلقي نظرة بعد الظهر بمجرّد أن ينتهي من دورة المياه، وعندئذ أستطيع أن أعطيك فكرة محدّدة عن قيمة التكاليف.

أبدت غويندا موافقتها ثم ذهبت بعد ذلك فكتبت لجوان وست تشكرها على دعوتها وتقول لها إنه يؤسفها أنها لا تستطيع مغادرة ديلموث في الوقت الحالي لأنها تريد مراقبة العمال. وبعد أن فرغت من خطابها خرجت لتتمشى قليلاً كي تستنشق نسمة البحر، وعندما عادت وجدت تايلور جاثياً بجوار الحائط الذي يفصل بين غرفة الاستقبال وغرفة الطعام، ثم نهض وهو يبتسم وقال: لا توجد أية صعوبة يا سيدتي، فقد كان يوجد في هذا المكان بالذات باب فيما سبق ولكن بعضهم سدّه، ولا ريب أنه لم يناسبه.

دهشت غويندا وقالت لنفسها إن الأمر غريب. لقد أحسّت دائماً أنه كان يوجد باب في ذلك المكان، وتذكّرت التصميم الذي توجّهت به نحو الحائط عندما دُقت الصنجة، وفجأة أحست بقشعريرة من القلق؛ فقد كان الأمر غريباً حقاً. كيف تأكدت أنه كان يوجد باب في ذلك المكان من قبلُ مع أنه لم يكُن يوجد أيّ أثر ظاهر يدلّ على ذلك؟ وكيف استطاعت أن تخمّن؟ سيكون

من المريح طبعاً أن تمرّ من غرفة إلى أخرى مباشرة، ولكن لماذا اتجهت دون أيّ تردّد إلى هذا المكان من الحائط بالذات؟ كان يمكن أن تتجه إلى مكان آخر، ولكنها في ثلاث مرات متتالية اتجهت نحو المكان الذي كان يوجد به الباب من قبل!

بعد هذا التفكير قالت غويندا لنفسها: أرجو أن لا تكون لديّ موهبة الاستبصار أو أي شيء من هذا النوع.

لم يكُن في حياتها أيّ أثر يدلّ على أن لها مقدرة في التكهن بالغيب، ولم تكُن تنتمي إلى تلك الطبقة من الناس، ولكن هل هي واثقة من ذلك حقاً؟ ذلك الممرّ الذي أرادت إقامته بين الشرفة والأرض المزروعة، هل عرفت بطريقة ما أنه كان موجوداً من قبل؟ ولكن من يدري؟ ربما كانت تتمتع بموهبة الوسيط، هذا إذا لم يكُن في البيت نفسه شيء يوحي بذلك.

ثم لماذا سألت السيدة هنغريف إذا كان البيت مسكوناً في اليوم الذي زارته أول مرة؟ ولكن البيت لم يكُن مسكوناً، فهو بيت جميل ولا يمكن أن يكون به أيّ تأثير. ومهما يكُن فقد بدت على السيدة هنغريف الدهشة الشديدة لهذا الافتراض، ولكن ألم يكُن في ردّها شيء من التحفظ؟

ثم هتفت غويندا: يا إلهي! ما هذه الأفكار؟ وبذلت جهدها كي تعيد ذهنها إلى حديثها مع تايلور فقالت: يوجد شيء آخر. إن في غرفتي بالطابق الأول خزانة ثياب مغلقة وأريد أن تفتحها لي.

فقال الرجل بعد أن فحص الخزانة: إنها مدهونة أكثر من مرة، ولكن في استطاعتي أن أفتحها غداً صباحاً إذا أردتِ.

انصرف تايلور بعد أن أعطته غويندا موافقتها، وأحست المرأة الشابة في تلك الليلة بالاضطراب والانفعال بصورة غريبة،

وجلست في مقعد بغرفة الاستقبال وحاولت أن تقرأ، وكانت تعي أقلّ حركة تدور حولها، فألقت نظرة من فوق كتفها مرة أو مرتين وارتجفت، ولم تكفّ عن القول بأنه لا توجد أية غرابة في مسألة الباب ومسألة الممرّ بالحديقة، ومهما يكُن فلم تكُن هاتان النقطتان إلا مصادفة، ولم تكُن الأفكار التي مرّت بها في كلتا الحالتين إلا وحيّ العقل والصواب.

ومع ذلك، ودون أن تعترف، أحسّت بالجزع لمجرّد فكرة أن تذهب إلى الفراش، وعندما نهضت وأطفأت النور ووجدت نفسها في البهو أحسّت بشيء من التردد والخوف في صعود الدرَج، ولكنها ارتقته على عجل وعبرت الممر مسرعة ثم فتحت باب غرفتها بحدّة. وما إن ضمّتها جدران غرفتها حتى أحسّت بالارتياح وهدأت مخاوفها، ثم نظرت حولها باطمئنان؛ فقد أحسّت في تلك الغرفة الصغيرة أنها في أمان وأنها سعيدة وفي مأمن من كل خطر، ولكنها قالت وهي تنظر إلى منامتها الملقاة فوق الفراش وخُفّيها فوق السجادة: ولكن أيّ خطر أيتها الغبية؟

ثم ارتدت المنامة واستلقت في فراشها وهي تتنهد بارتياح.

* * *

في صباح اليوم التالي كان لدى غويندا أعمال كثيرة في المدينة، وعندما عادت عند الظهر قالت لها السيدة كوكر وهي تضع الطعام أمامها: لقد فتح العمال الخزانة التي في غرفتك.

فقالت غويندا: حقاً؟ شكراً لك يا سيدة كوكر.

وكانت جائعة فأكلت حتى شبعت ثم احتست قهوتها في غرفة الاستقبال، وبعد ذلك صعدت إلى غرفتها ثم اتجهت إلى الخزانة

ففتحتها. ولم تستطع أن تكتم صيحة فزع أفلتت من بين شفتيها وقد اتسعت عيناها دهشة؛ ذلك أنها رأت بداخل الخزانة الورق الذي كان يغطى الحائط أصلاً، وكان نوعاً من الورق المرسوم عليه زهور حمراء وزرقاء.

* * *

ظلت غويندا لحظة طويلة تحدق إلى الورق، ثم ابتعدت بخطوات مترددة فجلست على حافة فراشها. إنها في بيت لم ترَه قطّ قبل أن تشتريه، ولكنها بعد يومين من ذلك تخيّلت ورقاً مشابهاً لذلك الورق الذي غُطيت به جدران الغرفة قبل ذلك، ثم دارت برأسها أفكار غريبة. هل هي معرفة مسبقة أم هاجس داخلي؟

إن ممرّ الحديقة والباب الفاصل كان يمكن أن تضمّهما إلى المصادفات الغريبة، ولكن الأمر مختلف مع الورق لأنه لم يكُن من المعقول أن تتصوّر ورقاً به رسومات معيّنة في المكان الذي تريد أن يكون فيه، ففي ذلك شيء لم تستطع إدراكه قد أثار خوفها. لقد كانت ترى ذلك البيت من وقت إلى آخر كما كان فيما سبق، وكانت تتوقع أن ترى شيئاً آخر في أية لحظة، شيئاً كانت لا تتمنى أن تراه. نعم، إن ذلك البيت أصبح يثير خوفها، ولكن أهو البيت نفسه الذي يخيفها حقاً؟ ألم تكُن تخاف من نفسها بالتحديد؟ لم تكُن تريد أن تكون من هؤلاء الأشخاص الذين يرون أشياء...

ثم أطلقت زفرة طويلة ونهضت فاستبدلت ثيابها، وبعد ذلك خرجت من البيت واتجهت إلى أقرب مكتب للبريد فأرسلت البرقية التالية خالصة الردّ: «وست، ١٩ ميدان آدوي بشلسي، لندن. هل أستطيع أن أغيّر رأيي وآتي غداً؟».

* * *

الفصل الثالث

غطوا وجهها

بذل رايموند وست وزوجته جهدهما كي تشعر غويندا بأنها في بيتها، ولكن لم يكُن الذنب ذنبهما إذا كانت المرأة الشابة قد وجدتهما باعثَين لضجرها وسأمها، فقد أثار رايموند دهشتها بمظهره العجيب الذي جعله أشبه بالغراب وشعره المشعث وحديثه الأخرق. لقد بدا لها أن جوان وزوجها يتكلمان لغة خاصة بهما، فلم يسبق لها أن وجدت نفسها في وسط من المثقفين الذين لا تفقه من حديثهم شيئاً. قال رايموند: إننا ننوي أن نصطحبك إلى المسرح.

وكانت غويندا تحتسي جرعات من كأس بها عصير ليمون في حين أنها كانت تفضّل لو أنهم قدموا إليها كوباً من الشاي بعد الرحلة التي قامت بها، ولكن على الرغم من ذلك تألق وجهها بالبِشر والسرور عند ذكر المسرح.

واستطرد رايموند قائلاً: سوف نقضي الليلة في مسرح الباليه، أما غداً فسنحتفل بعيد ميلاد خالتي جين العجيبة ثم نذهب لمشاهدة مسرحية الدوقة أمالفي. ستحبّين خالتي؛ فهي كالقطعة الأثرية الثمينة، إذا جاز لي هذا التعبير. لقد وُلدت في عهد الملكة فيكتوريا

وتقيم في قرية هادئة لا يقع فيها شيء على الإطلاق.

تدخّلت جوان فقالت بلهجة جافة: ومع ذلك فقد وقع فيها شيء ذات مرة.

- لم يكُن ذلك أكثر من مأساة قتل بسيطة وعادية.

عادت زوجته تقول وهي تغمز له بعينيها: ومع ذلك فقد أثارت هذه المأساة اهتمامك في ذلك الوقت.

فقال رايموند بوقار: مهما يكُن فإن خالتي أبدت براعة كبيرة في تلك القضية.

- بكل تأكيد، فهي ليست غبية.

- ثم إنها مولعة بالمسائل.

فهتفت غويندا وقد حلّقت أفكارها إلى المسائل الحسابية قائلة: المسائل؟

فردّ الزوج قائلاً: أعني القضايا والأسرار الغامضة، مثال ذلك: لماذا خرجت زوجة البدّال وفي يدها مظلّتها في ليلة صيف جميلة كي تحضر اجتماع إحدى الجمعيات الخيرية؟ ولماذا وُضع طبق الجمبري في المكان الذي وُجد فيه؟ أو ما الذي حدث لصندوق النذور بالكنيسة؟ كل شيء بالنسبة إلى خالتي جين جميل، وإذا كانت لديك مشكلة فيمكنك أن تعرضيها عليها فتعطيك الجواب.

ثم راح يضحك، فقلّدته غويندا ولكن بغير حماسة تُذكر.

* * *

في صباح اليوم التالي تعرّفت المرأة الشابة بالخالة جين،

وكانت تلك الأخيرة عانساً مسنّة ظريفة، طويلة القامة نحيفة الجسم ذات وجنتين متورّدتين وعينين زرقاوين تومضان بوميض من الخبث والمكر في بعض الأحيان. وبعد أن تناولوا الطعام مضوا إلى المسرح وكان معهم رجلان آخران أحدهما متقدم في السنّ والآخر محامٍ شاب، وقد كرّس الأول وقته كلّه تقريباً لغويندا في أثناء الطعام والشراب في حين وزّع الثاني اهتمامه بين جوان والخالة جين، ولكن انقلبت الأوضاع في المسرح ووجدت غويندا نفسها جالسة بين رايموند والمحامي.

أُطفئت الأنوار وبدأت المسرحية، وأدّى الممثلون أدوارهم ببراعة فائقة وأُعجبت غويندا بهم، خصوصاً أنه لم يسبق لها أن شاهدت مسرحيات في مسارح من الدرجة الأولى قبل ذلك. وأوشكت المسرحية على الانتهاء وبلغت ذروة الفزع والرعب وارتفع صوت البطل ينطق بكلّ ما في الذهن البشرى من فظاعة وانحلال قائلاً: غطوا وجهها؛ فقد ماتت في ريعان الشباب، وعيناي لا تتحمّلان.

وعندئذ أطلقت غويندا صيحة ووثبت من مقعدها ومرّت كالكفيفة أمام الآخرين واندفعت نحو الممرّ ومنه إلى باب الخروج، ثم لم تلبث أن وجدت نفسها في الشارع. وبلغت هاي ماركت وهي تمشي تارة وتجري أخرى، وهناك رأت سيارة أجرة قادمة فاستوقفتها وذكرت للسائق عنوان البيت بشلسي. وعندما وقفت السيارة أمام البيت أخرجت النقود بيدٍ ترتعش ونقدت السائق أجره، ثم صعدت الدرجات الأمامية وفتحت لها الخادمة الباب، ونظرت إليها بدهشة ظاهرة ثم قالت: لقد بكّرت بالعودة! هل أنت مريضة؟ هل آتيك بكأس من الليمون؟

- لا، أشكرك. لا أريد شيئاً. سأذهب كي أنام حالاً.

وصعدت الدرَج ركضاً هاربة من أسئلتها، وعندما بلغت غرفتها استلقت في فراشها حيث بقيت لحظة ترتجف وقلبها يدق بشدة وعيناها تحدقان إلى السقف. ولم تسمع الآخرين عندما عادوا، ولكن لم يلبث باب غرفتها أن فُتح ودخلت الآنسة ماربل تتأبط قِربتين من الماء الساخن وفي يدها كوب من الشاي.

جلست غويندا في فراشها وهي تحاول أن تتغلب على رعشتها ثم قالت: آه يا آنسة ماربل. إنني شديدة الخجل، لا أدري لماذا... لقد كنت فظيعة جداً! ماذا يظنون بي؟ لا ريب أنهم متكدّرون.

- لا، مطلقاً، لا تقلقي يا بنيتي. خذي هاتين القربتين إلى جوارك.

- لست بحاجة إليهما.

- بل افعلي ما أقول لك. نعم، هكذا، والآن اشربي هذا الشاي.

وكان الشاي ساخناً ثقيلاً ولكن غويندا شربته دون اعتراض، وأحسّت برعشتها تخفّ شيئاً فشيئاً. وقالت العانس العجوز: والآن ارقدي ونامي. لقد تعرضت لصدمة، ولكننا سنتحدث في هذا غداً صباحاً. لا تقلقي، وما عليك الآن إلا أن تنامي.

رفعت الآنسة ماربل الغطاء على صدر المرأة الشابة وربتت بيدها على كتفها برفق ثم خرجت، وفي نفس الوقت كان رايموند يقول لجوان محنقاً: ماذا دهى تلك الفتاة؟ هل هي مريضة أم...؟

- لا أدري يا عزيزي. لقد سمعتها تصرخ، وهذا كلّ شيء. أظن أن المسرحية أخافتها.

- ربما، فإن وبستر مخيف أحياناً، ولكنني لم أكُن أظن...

وأمسك عن الكلام عند دخول الآنسة ماربل ثم قال يسألها: أهي أحسن الآن؟

- نعم، ولكنها تعرضت لصدمة شديدة.

- صدمة؟ من مشاهدة مسرحية وبستر؟!

فقالت الآنسة ماربل وهي تفكر: يخامرني إحساس بأنه يوجد شيء أكبر من ذلك.

* * *

في صباح اليوم التالي جيء بطعام الإفطار لغويندا وهي في الفراش، فشربت قليلاً من القهوة وأكلت قطعة من الخبز بالزبد، ثم نهضت وارتدت ثيابها ونزلت إلى الطابق الأرضي. وكانت جوان قد خرجت إلى عملها وأغلق رايموند مكتبه عليه وبقيت الآنسة ماربل وحدها في غرفة الاستقبال، وكانت منهمكة في شغل الإبرة وهي جالسة أمام النافذة المطلة على النهر، وعندما دخلت غويندا رفعت وجهها الهادئ إليها وابتسمت ثم قالت: صباح الخير يا عزيزتي، أرجو أن تكوني بخير الآن.

- نعم، وأشكرك. إنني على ما يرام، ولكنني لا أدري كيف كنت بهذا الغباء أمس. هل هما غاضبان منّي؟

- بالطبع لا. إنهما يفهمان تماماً.

- يفهمان؟ ماذا تعنين؟

فرفعت الآنسة ماربل عينيها إليها مرة ثانية قائلة: لقد تعرضتِ لصدمة، وهذا كل شيء. ثم أردفت تقول برفق: ألا ترَين أنه من

الأفضل أن تحدثيني بما في الأمر؟

راحت غويندا تمشي في الغرفة ذهاباً وجيئة بانفعال كبير ثم قالت: أظن أنه من الأفضل أن أذهب لاستشارة طبيب نفسيّ.

- يوجد أطباء ممتازون في لندن طبعاً، ولكن هل أنت واثقة أنه من الضروري أن تستشيري واحداً منهم؟

- يا إلهي، أظن أنني جُننت. نعم، جننت حتماً!

وفي تلك اللحظة دخلت الخادمة فقدمت برقية لغويندا قائلة: إن الساعي يسأل إذا كان يوجد ردّ يا سيدتي.

فضّت المرأة الشابة البرقية، وكانت قد أُعيد إرسالها إليها من ديلموث، ونظرت إليها بضع لحظات دون أن تفهم، ثم كوّرتها ووضعتها في جيبها وقالت بلهجة آلية: لا، لا يوجد ردّ.

فسألتها الآنسة ماربل بعد أن خرجت الخادمة قائلة: أرجو أن لا تكون فيها أنباء سيئة.

- إنها من غايلز، زوجي. يقول لي إنه ينوي أن يأتي بالطائرة في الأسبوع القادم.

وكانت المسكينة تبدو في غاية التعاسة والشقاء. وسعلت الآنسة ماربل ثم قالت: ولكن هذا نبأ جميل، أليس كذلك؟

- أتعتقدين هذا في حين أنني أتساءل هل أنا مجنونة أم لا؟ إذا كنت مجنونة فما كان يجب أن أتزوّج غايلز. ثم إن البيت... لا، مستحيل أن أعود إليه. إنني لا أدري ماذا أفعل!

ربتت العانس العجوز بيدها على الأريكة برفق ثم قالت: تعالَي واجلسي بجواري يا ابنتي العزيزة واذكري لي كل شيء.

قبلت غويندا الدعوة بارتياح ثم روت لها قصتها كلّها ابتداء من اللحظة التي رأت فيلا هيلساید في أثناء بحثها عن بيت، وبعد ذلك استطردت تذكر الأحداث التي أثارت حيرتها وأزعجتها وأخافتها في نفس الوقت، ثم اختتمت قصتها بأن قالت: وقد تملّكني الخوف وخطر لي أن آتي إلى لندن وأن أترك كل هذا، ولكن كان من المستحيل أن أبتعد حقاً، وقد تبعني كل ذلك، إذا حق لي القول، ومساء أمس...

فقالت الآنسة ماربل تستحثها: ماذا حدث مساء أمس؟

فأسرعت غويندا تقول: أظن أنك لن تصدّقيني، ستظنين أنني مصابة بالهستريا أو الجنون. لقد حدث ذلك فجأة، وفي النهاية بالذات. لقد أعجبتني المسرحية جداً، ولم أفكر لحظة واحدة في هيلساید، ولكنني لم ألبث أن رأيت الفيلا تظهر أمامي في نفس اللحظة التي نطق الممثل فيها بتلك الكلمات: «غطوا وجهها، فقد ماتت في ريعان الشباب وعيناي لا تتحمّلان». لقد كنت واقفة بأعلى الدرَج أنظر إلى البهو من خلال القضبان فرأيتها، كانت طريحة فوق الأرض، ميتة، وشعرها الأشقر الجميل يتطاير حول وجهها، وكان لون وجهها شديد الزرقة. لقد كانت ميتة مخنوقة، وكان يوجد رجل ينطق بنفس الكلمات المذكورة بصوت مشحون بالكراهية، ثم رأيت يدَي الرجل، كانتا رماديتين تبدوان وكأنهما كفّا قرد! أقول لك إن الأمر كان فظيعاً.

فسألتها الآنسة ماربل بصوت هادئ قائلة: ولكن من هي؟

فجاء الردّ سريعاً وبطريقة آلية: هيلين.

* * *

الفصل الرابع

هيلين

حدقت غويندا في الآنسة ماربل لحظة ثم أقصت خصلة من شعرها من فوق جبينها وقالت: ولكن لماذا نطقتُ بهذا الاسم؟ لماذا قلتُ هيلين؟ إنني لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

وتدلّت يداها إلى جانبيها بيأس وهي تسترسل قائلة: ها أنت ترَين أنني مجنونة. إنني أتوهّم أشياء وأرى أشياء لا وجود لها. لم يكُن الأمر في البداية غير ذلك الورق المدهون، أما الآن فقد أصبحت أتصور أنه توجد جثة. إن عقلي...

- لا تقفزي إلى النتائج بهذه السرعة يا بنيّتي.

- لعل السوء في البيت نفسه إذن، ولا ريب أنه مسكون أو مسحور أو شيء من هذا القبيل. إنني أرى أحداثاً وقعت فيه فيما سبق، أو لعلها أحداث قد تقع فيه مستقبلاً، وهذا أسوأ. لعل امرأة تُدعى هيلين ستلاقي حتفها قتلاً في هيلسايد، ولكن إذا كان البيت مسكوناً فإنني لا أفهم لماذا أتوهّم أنني أرى هذه الأشياء الفظيعة وأنا بعيدة عنه. ولهذا السبب بالذات أعتقد أنني مخبولة وأن من الأفضل أن أعرض نفسي على طبيب نفسيّ قبل فوات الأوان، وصباح اليوم بالذات.

– عزيزتي غويندا، يمكنك أن تعرضي نفسك على من تريدين من أطباء بعد استنفاذ كل الوسائل الأخرى، أما أنا فأرى أنه من الأفضل أن ندرس أبسط التفسيرات أولاً. لندرس الحقائق بوضوح بقدر المستطاع. توجد ثلاث نقاط تسببت في اضطرابك، وهي ذلك الدرَج الذي أُعدم ولكنك أحسست بوجوده، والباب الفاصل الذي سُدّ منفذه وأعيد بناؤه بالطوب، وأخيراً ذلك الورق المدهون الذي تصوّرت وجوده بكل دقائقه قبل أن ترَيه. هل هذا صحيح؟

– نعم.

– حسناً، يوجد تفسير بسيط وطبيعيّ، وهو أنه قد سبق لك أن رأيت كل هذا.

– هل تعنين في حياة أخرى؟

– لا، وإنما خلال حياتك الحالية، أعني أن كل هذه الأمور قد لا تكون أكثر من ذكريات عادية.

– ولكن لم يسبق لي أن أتيت إلى إنكلترا قبل الشهر الماضي يا آنسة ماربل.

– هل أنت واثقة من ذلك؟

– طبعاً، فقد قضيت حياتي كلّها في نيوزيلندا.

– وهل وُلدت هناك؟

– لا. لقد وُلدت في الهند، فقد كان أبي ضابطاً هناك، وماتت أمي بعد سنتين أو ثلاث من ولادتي، وعندئذ أرسلني أبي إلى أقرباء له في نيوزيلندا حيث كبرت، وبعد ذلك ببضع سنوات مات أبي.

- ألا تتذكرين رحلتك من الهند إلى نيوزيلندا؟

- ليس تماماً. أتذكر بشيء من الإبهام أنني كنت فوق سفينة وأرى نافذة مستديرة، أظن أنها نافذة قمرة في السفينة، ثم رجلاً في ثياب رسمية بيضاء بوجه أحمر وعينين زرقاوين وله علامة في ذقنه لعلها أثر جرح، وكان يرفعني في الهواء ثم يتلقّفني بين ذراعيه، وكان ذلك يروقني كثيراً ولكن الخوف كان يتملّكني في نفس الوقت، غير أن كل هذه أجزاء من الذكريات.

- هل تتذكرين مربّية أو معلّمة؟

- لم تكُن معلّمة وإنما كانت ناني، وأتذكرها لأنها بقيت بعض الوقت حتى بلغت الخامسة. لقد كانت تصنع لي قوالب من الورق، كما ظلّت معي فوق السفينة، وكانت تعنفني عندما كنت أصرخ لأن القبطان كان يقبّلني ولم أكُن أحبّ لحيته.

فقالت الآنسة ماربل بهدوء: هذه نقطة هامة لأنك تخلطين الآن بين رحلتين مختلفتين، في إحداهما قبطان له لحية، وفي الأخرى قبطان له وجه أحمر وأثر جرح في ذقته.

فتمتمت غويندا بعد لحظة تفكير: أجل، أنت على حق.

- يبدو لي أنه من المحتمل جداً أن أباك عاد بك إلى إنكلترا بعد أن ماتت أمك وأنك أقمت في ذلك البيت الذي تقيمين فيه الآن، فقد قلت لي إنه قد بدا لك مألوفاً بمجرّد أن بدأت بزيارته، ولا ريب أن الغرفة التي دخلتها هي التي كنت ترقدين فيها وأنت طفلة.

- أجل، وقد كانت معدّة لإقامة طفل لأن نافذتها مزوّدة بقضبان.

– وكانت جدرانها مكسوّة بورق جميل به زهور حمراء وزرقاء، والأطفال يتذكرون جدران غرفهم جيداً. وطالما تذكرت أنا الزهور البنفسجية التي كانت تكسو جدران غرفتي، وأعتقد أن سنّي لم تكُن تزيد عن ثلاث سنوات عندما أُزيل ذلك الورق وغُطيت الجدران بورق آخر مختلف.

– لا ريب أن هذا هو السبب في أنني فكرت في بيت الدمية والخزائن الصغيرة واللعب بمجرّد أن رأيتها.

– أجل، وصورة غرفة الحمام بقيت ماثلة في مخيلتك وفي عقلك الباطن، بحوضها الكبير المكسوّ بخشب الأكاغو.

فقالت غويندا بتفكير: الحق أنني أحسست في البداية بأنني أعرف أين يوجد كل شيء في البيت، المطبخ وخزانة الثياب الداخلية وكل شيء، ولم يسعني إلا أن أفكر في أنه يوجد باب فاصل بين غرفة الاستقبال وغرفة الحمّام. ولكن كيف حدث أن آتي إلى إنكلترا وأن أشتري نفس البيت الذي سبق أن أقمت فيه؟!

– لا يوجد مستحيل، والواقع أن هذه مصادفة غريبة، ولكنك تعرفين أن المصادفات تقع دائماً. لقد كان زوجك يريد بيتاً على الساحل الجنوبي، وكنت تبحثين عن بيت في هذه الناحية بالذات، ثم مررت ببيت لفت نظرك لأنه أعاد إلى ذاكرتك بعض الذكريات الدفينة في وعيك الداخلي، وهي ذكريات كانت تتلاءم تماماً مع ما كنت تتمنينه، وكان ثمن البيت معقولاً فلم تردّدي في شرائه. هذا أمر يمكن أن يحدث تماماً، أما إن كان البيت مسكوناً كما تقولين لجاءت تصرّفاتك على صورة أخرى، وإنني واثقة مما أقول. لقد أحسست كما تقولين بإحساس من العنف أو بشيء من النفور في لحظة معيّنة وأنت تنزلين من فوق الدرَج أو تنظرين إلى

أسفل نحو البهو.

فومض في عينَي غويندا وميض من الفزع ثم قالت: هل تقصدين القول بأن هيلين حقيقة هي الأخرى؟

فقالت الآنسة ماربل برفق: أظن ذلك، وإذا كانت الأشياء الأخرى ذكريات فيجب اعتبار هيلين ذكرى هي الأخرى.

- هذا معناه أنني قد رأيت حقيقة شخصاً ميتاً مخنوقاً!

- لا أظن أنك تحققت في ذلك الوقت من أن ذلك الشخص قد مات مخنوقاً حقاً، بل توهّمت ذلك نتيجة للمسرحية التي شاهدتِها أمس، والتي جاءت مطابقة لما تعرفينه الآن، بعد أن كبرت، عن معنى الوجه المتشنّج. وأعتقد أن الطفل الصغير يحسّ وهو ينزل من فوق الدرَج في قرارة نفسه بالعنف والشرّ والموت، وأنه يجمع بينها بسلسلة من الكلمات لأنني أعتقد أن القاتل نطق بنفس العبارة التي سمعتِها أمس في مسرحية «الدوقة أمالفي»، وفي مثل هذه العبارة صدمة لطفل صغير بالطبع. والأطفال مخلوقات عجيبة، فهُم إذا ما تملّكهم الخوف من شيء لا يفهمونه فإنهم لا يتكلمون وإنما يحتفظون بمخاوفهم لأنفسهم وينسونها ظاهرياً، إلا أن ذكراها تظلّ دفينة دائمة في عقلهم الباطن.

تنهدت غويندا طويلاً ثم قالت: وهل تعتقدين أن هذا هو ما حدث لي؟ ولكن لماذا أتذكّر كل ذلك الآن؟

- لا يمكن للمرء أن يتذكر شيئاً بالطلب، وحتى إذا حاولت أن تتذكري شيئاً ما فإن هذا الشيء يبدو كأنه يبعد أكثر عن ذي قبل، ومع ذلك توجد بعض النقاط التي تجعلنا نميل إلى الظن بأن الأمور وقعت هكذا فعلاً، فإنك عندما تحدثت إليّ منذ لحظة

عن مشاعرك وأنت في المسرح نطقت بعبارة فسّرت لي ذلك تماماً فإنك قلت: "كنت واقفة بأعلى الدرَج أنظر إلى البهو من خلال القضبان"، والقاعدة المعروفة هي أن الإنسان لا ينظر من خلال قضبان الدرَج وإنما من فوق السياج، والطفل وحده هو الذي ينظر من خلالها.

فقالت غويندا بإعجاب: هذا استنتاج جميل حقاً.

- وكما ترَين فإن مثل هذه النقاط الصغيرة لها معناها.

فسألتها الفتاة بشيء من الحيرة: ولكن من هي هيلين؟

- هل ما زلت واثقة أنها كانت هيلين حقاً؟

- نعم، وهذا أمر عجيب لأنني لا أدري من هي هيلين، ولكنني أعرف أنها هي هيلين، فكيف أستطيع أن أعرف المزيد؟

- أرى أن أول ما يجب عمله هو أن تتأكدي من أنك أقمت في إنكلترا وأنت طفلة. إن أقرباءك...

فصاحت غويندا قائلة: خالتي أليزون. لا ريب أنها تعرف ذلك، بل إنني متأكدة.

- حسناً، لو كنت مكانك لكتبت إليها فوراً، وبالبريد الجوي. قولي لها إنه توجد أسباب قوية تدعوكِ إلى أن تعرفي إن كنت قد أقمت في إنكلترا فيما سبق أم لا، ولكن ربما جاءك الردّ عند قدوم زوجك.

- أشكرك يا آنسة ماربل. لقد كنت كريمة معي تماماً، وأرجو أن تكون استنتاجاتك صحيحة لأنه لو صحّ ذلك فسيكون الأمر على ما يرام، وسيكون في ذلك دليل على أنه ليس في هذه الأحداث

أي شيء غير طبيعي.

ابتسمت العانس العجوز وقالت: وأنا أيضاً أرجو أن تنصلح الأمور كما نتمنى. إنني سأذهب غداً لقضاء بضعة أيام عند بعض الأصدقاء الأعزّاء في شمال إنكلترا، ولكنني سأعود بعد عشرة أيام. وإذا كنت لا تزالين هنا أنت وزوجك، وإذا كان قد أتاك الردّ على خطابك فإنني أحبّ أن أعرف النتيجة.

- طبعاً يا عزيزتي الآنسة ماربل، ثم إنني يهمّني أن أعرّفك بغايلز، فهو رجل ظريف، وسوف نتحدث في ذلك معاً.

استردّت غويندا روحها المرحة وبشاشتها، ولكن الآنسة ماربل بدا عليها التفكير.

* * *

الفصل الخامس

أحداث الماضي

بعد عشرة أيام دخلت الآنسة ماربل بهو فندق صغير بماينير تواعدت على اللقاء فيه بغايلز وغويندا ريد، واستقبلها الشابان استقبالاً حارّاً، وقالت غويندا: أقدّم لك زوجي. لا يمكن يا غايلز أن تعرف إلى أي حدّ كانت الآنسة ماربل كريمة معي.

– يسرّني أن أتعرّف بك يا آنسة ماربل. لقد فهمت أنه لولاك لاستسلمت غويندا للهلع ولأسرعت إلى إحدى مصحّات المجانين.

راحت العانس العجوز تتأمل الشاب بإعجاب. لقد كان ظريفاً وطويل القامة ذا شعر أشقر تنطق سماته بالقوّة والرجولة. قالت غويندا: سوف نتناول الشاي في المكتب الصغير، فإنه لا يدخله أحد على الإطلاق في مثل هذا الوقت، ويمكن أن تقرئي خطاب خالتي أليزون بهدوء. إن الأمر كما فكّرت أنت تماماً.

وبعد أن فرغوا من تناول الشاي أخرجت غويندا خطاب الآنسة أليزون دانبي وأعطته للآنسة ماربل، وكان هذا نصّه:

لقد كان تأثري شديداً حين علمت أنك مررت بمحنة

شاقة، والحقيقة أنني كنت قد نسيت تماماً أنك أقمت فترة من الوقت في إنكلترا وأنت طفلة صغيرة. فإن أمك، أختي المسكينة ميغان، تعرّفت بأبيك الميجور هاليداي في أثناء زيارة لها في الهند وتزوجته هناك وأنجبتك، ولكن مما يؤسف له أنها ماتت بعد ولادتك بسنتين، وكان موتها صدمة أليمة لنا جميعاً، وقد كتبنا لأبيك الذي لم نرَه على الإطلاق نعرض عليه أن يبعثك إلينا كي نربّيك، والواقع أنه بدا لنا أنه من المتعذّر على رجل عسكريّ أن يربّي طفلة صغيرة. وكان يسرّنا ويسعدنا أن تقيمي بيننا، ولكن أباك رفض وكتب لنا يقول إنه قرّر أن يستقيل وأن يأتي بك إلى إنكلترا حيث يأمل أن نزوره بعد ذلك.

وأظن أنه تعرف في أثناء رحلته تلك بفتاة خطبها إلى نفسه وتزوجها بمجرّد عودته إلى إنكلترا، ولكن زواجهما فشل وانفصلا بعد سنة، وقد كتب إلينا من جديد يسألنا إذا كنا لا نزال على استعداد أن نقبلك بيننا أم لا، ولم يكُن لهذا السؤال أيّ داعٍ بالطبع، وهذا ما صارحناه به، فبعث بك إلينا برفقة مربّية، وفي نفس الوقت حرّر وصية يوصي لك فيها بجميع ممتلكاته، بل إنه اقترح أن نعطيك اسمنا قانوناً، ويجب أن نقول لك إننا استغربنا لذلك، ولكننا حسبنا أن أغراضاً نبيلة تدفعه إلى ذلك وأنه خيّل إليه أنك سوف تصبحين من أفراد أسرتنا لأننا منحناك اسمنا، غير أننا استبعدنا هذا الرأي.

وبعد مرور سنة من ذلك مات في إحدى المصحّات، وأظن أنه كان مريضاً، وكان يعرف أنه لا أمل في شفائه

من مرضه ولهذا بعث بك إلينا. وأخشى أنني لا أستطيع القول أين كنت تقيمين في إنكلترا على وجه التحديد، ولكنه كان قد كتب عنوانه في خطابه طبعاً إلا أن ذلك كان منذ ثمانية عشر عاماً، ولا أتذكّر هذه النقطة الآن. كل ما أعرفه أنه استقرّ في الجنوب، ومما لا شك فيه أنه كان يقيم في ديلموث. وكنت أعتقد أنه أقام في دارتموث ولكن الاسمين متشابهان بحيث يبدو أنني خلطت بينهما.

كما أظن أن زوجة أبيك تزوّجت بعد ذلك، ولكنني لا أتذكّر اسمها، بل لا أتذكر اسمها وهي فتاة على الرغم من أن أباك قد ذكره في خطابه عندما أخبرنا بإقدامه على الزواج. وقد حقدنا عليه في ذلك الوقت لاقترانه بتلك الفتاة لأنه لم تمضِ على موت أمّك أيام قلائل، ولكن من المعروف أنَ العلاقات سرعان ما تتمّ فوق ظهر السفن، ثم إنه ربما خطر له أن في زواجه مصلحة لك. ويبدو أنني كنت من الغباء بحيث لم أحدثك عن إقامتك السابقة في إنكلترا، ولكنني نسيت هذا الأمر كما سبق أن قلت لك لأنه بدا لي أن موت أمك وانتقالك للإقامة معنا كان أهمّ من أي شيء آخر. وأرجو أن يكون كل ذلك قد وضح لك الآن، كما أرجو أن يتمكن غايلز من اللحاق بك سريعاً لأنني أظن أن من أشق الأمور أن يتركك ولم يمضِ على زواجكما غير بضعة شهور. سأرسل إليك مزيداً من الأنباء في خطابي المقبل لأنني أريد أن أرسل إليك هذا الخطاب بأسرع ما يمكن.

أليزون دانبي

ملحوظة: لم تخبريني ما هي تلك المحنة الشاقة التي تعرّضت لها.

قالت غويندا: وهكذا ترَين أن الأمور كما استنتجت أنت تقريباً.

نظرت الآنسة ماربل إلى الخطاب بتفكير ثم قالت: هذا صحيح. طالما لاحظت أن أبسط التفسيرات هو أصحّها.

وتدخل غايلز قائلاً: أشكرك كثيراً يا آنسة ماربل. إن غويندا العزيزة كانت مضطربة جداً، ويجب أن أقول إنني كنت جديراً بأن أشعر بضيق شديد لو اتضح لي أنها تملك موهبة الاستبصار أو أنها على صلة بالأرواح.

فقالت غويندا: وهي موهبة يمكن أن تكون مزعجة جداً بالنسبة إلى امرأة، إلا إذا كان زوجها يعيش حياة مثالية.

فقال غايلز وهو يضحك: الحمد لله أنني كذلك.

وسألتهما الآنسة ماربل قائلة: وبيتكما؟

- البيت؟ إننا سنعود للإقامة فيه غداً، إن غايلز يتشوّق إلى رؤيته.

وقال الشاب: لا أدري إذا كنت قد أدركت ذلك يا آنسة ماربل، ولكننا نجد أنفسنا أمام جريمة شاذة ارتُكبت في بهو بيتنا بالذات.

فأجابت العانس العجوز قائلة: لقد فكرت في ذلك.

وقالت غويندا: إن غايلز يعشق القصص البوليسية.

وعاد زوجها يقول: وهذه بالذات قصّة بوليسية. جثة امرأة

جميلة مخنوقة لا نعلم عنها غير اسمها الأول، وإنني أعرف أنه قد مرّ على ذلك نحو عشرين عاماً وأنه من العبث بعد هذه المدة الطويلة أن نبحث عن آثار مادية، ولكن يمكننا أن نلقي نظرة على الأقل وأن نحاول أن نفهم ما حدث. إنني أعرف تماماً أنه من المستحيل الوصول إلى مفتاح الجريمة.

فقالت الآنسة ماربل: أما أنا فإنني واثقة من أن في مقدورنا أن نفعل ذلك، حتى بعد مُضيّ ثمانية عشر عاماً. نعم، أعتقد أننا نستطيع ذلك.

- مهما يكُن فلن تضر محاولتنا هذه أحداً، أليس كذلك؟

وكان غايلز متألق الوجه، ولكن بدا الجزع والقلق على الآنسة ماربل ثم قالت: بل ربما كان في ذلك ضرر كبير، وأنصحكما معاً أن تتخلّيا عن هذه الفكرة.

- نتخلى عن جريمتنا الغامضة؟ هذا على فرض وجود جريمة.

- توجد جريمة وما في ذلك من شك، ولو أنني مكانك لتركت كل شيء كما هو. لا يجب الاستخفاف بجريمة القتل.

- ولكن لو أن كل شخص فكر كما تفكرين يا آنسة ماربل...

فقاطعته الآنسة ماربل قائلة: إنني أعلم أنه توجد حالات يدعونا الواجب إلى أن نتدخل فيها، مثال ذلك إذا قامت الشبهات حول شخص بريء، ولكن يجب أن تفهم أن القضية التي نتحدث عنها الآن تنتمي إلى ماضٍ بعيد، وأنه من المحتمل أن أحداً لم يشتبه في وقوعها. أما إذا كانَ الأمر على عكس ذلك لسمعنا عنها، سواء من

البستاني الكهل أو من أيّ شخص آخر لأن جريمة القتل مهما مرّ عليها الوقت تظلّ حدثاً له أهميته، خصوصاً في بلدة صغيرة كهذه، ولكن لا ريب أن الجثة قد أُخفيت بطريقة ما وأن أحداً لم يشتبه في وقوعها، فهل أنت واثق أنه من الحكمة نبش الماضي؟

فصاحت غويندا فجأة: إنك تعطينا انطباعاً بالقلق يا آنسة ماربل.

- الحق أنني شديدة القلق يا عزيزتي، فأنتما شخصان ظريفان، ثم إنكما تزوّجتما منذ وقت قريب، فلا تعرّضا حياتكما للخطر.

فنظرت غويندا إليها بدهشة شديدة ثم قالت: هل تفكرين في شيء بالتحديد؟ إلى أي شيء تشيرين؟

- لا شيء بالتحديد يا عزيزتي، إنما يكفيني أن أقدّم لكما نصيحة لأن لي تجارِب كثيرة علّمتني أن لا أحاول إيقاظ القطط النائمة.

فقال غايلز يعترض بلهجة خطيرة: ولكن الأمر لا يتعلق بشيء من هذا. إن هيلين أصبحت ملكاً لنا، أنا وغويندا. لقد قُتلت امرأة في بيتنا، أو نعتقد ذلك على الأقل، ولا نستطيع أن نتجاهل الأمر حتى إذا كانت الجريمة قد وقعت منذ سنين عديدة.

فتنهّدت الآنسة ماربل ثم قالت: أرجو المعذرة. أظن أن أكثر الشبان العقلاء يتصرفون مثلكما. إنني شديدة الإعجاب بكما، ولكنني أتمنى أن تنسيا هذه القصة.

* * *

سرعان ما انتشر النبأ في اليوم التالي بأن الآنسة ماربل عادت

إلى قرية سنت ماري ميد، فقد شوهدت في الساعة الحادية عشرة في الشارع العمومي بالقرية ثم شوهدت بعد ذلك في حديقتها وهي تقوم باقتلاع بعض الأعشاب الضارّة، ولكنها بدت في اليوم التالي شاردة الذهن، وقد لاحظ أناس كثيرون ذلك ومن بينهم زوجة القسّ، فأعلنت الآنسة ماربل في نفس المساء أنها تشعر أن صحّتها ليست على ما يرام. وأوت إلى فراشها مبكّرة، بعد أن طلبت من الدكتور هايدوك أن يمرّ كي يراها في الصباح، والذي قال لها بعد أن فحصها فحصاً دقيقاً: على الرغم من تقدّمك في السنّ ومظهرك الخادع فإنك في صحّة جيّدة.

فأجابته العانس العجوز قائلة: أعترف أن صحّتي جيدة عموماً، ولكنني أشعر بشيء من التعب والإرهاق.

- سأصف لك دواء منعشاً.

- أشكرك، فلديّ شراب الأيستون الذي وصفته لي أخيراً، وهو لم يفقد فاعليته بعد.

وحدقت إليه بعينيها الزرقاوين البريئتين وقالت: هل في تغيير الهواء خير لي؟

- ولكنك أمضيت ثلاثة شهور في لندن.

- هذا صحيح، ولكن جوّ لندن مرهق، ثم إنني كنت في قلب منطقة صناعية، ويجب أن نعترف أنه لا يوجد مثيل لهواء البحر المنعش.

ترك الدكتور هايدوك حقيبة أدواته ثم رفع عينيه إليها وقال وهو يبتسم: هل أستطيع أن أعرف السبب الحقيقي لاستدعائك لي؟ قولي لي ماذا يجب أن أقول فأكرّره وراءك وينتهي الأمر. إنك

تريدين أن أصف لك هواء البحر حتماً، أليس كذلك؟

فأجابت العانس العجوز قائلة: كنت على يقين من أنك ستفهم.

- الواقع أن هواء البحر شيء ممتاز، ويجب أن تذهبي إلى إيستبورن دون تأخير، وإلا تعرضت حياتك لخطر كبير.

- أظن أن إيستبورن شديدة الرطوبة في هذا الوقت بسبب الكثبان الرملية التي بها.

- إذن اذهبي إلى بورنموث أو إلى جزيرة وايت.

فغمزت الآنسة ماربل بعينيها وقالت: أظن أنني أفضّل أن أذهب إلى مصيف صغير هادئ. ما رأيك في ديلموث؟

- هو مصيف صغير وهادئ حقاً ولكنه كئيب شيئاً ما. لماذا ديلموث بالذات؟

- لنفترض أنك اكتشفت مصادفة أن جريمة قتل ارتُكبت منذ ثمانية عشر عاماً أو عشرين عاماً، وأنه ما من أحد قد اشتبه في هذا الأمر، فماذا تفعل؟

فكّر هايدوك لحظة ثم قال: ألم تقع أية غلطة قضائية أو أي ضرّر على أحد ما نتيجة لهذه الغلطة؟

- نعم، لم تقع، على ما أعلم.

- إذا كان الأمر كذلك فإنني أترك الأمور كما هي لأن التدخل فيها قد يكون خطراً.

- هذا ما أخشاه في الواقع.

- يُقال إن القاتل يكرّر جريمته دائماً، ويوجد أشخاص

يرتكبون جرائمهم ويدبرون أمورهم كي لا يلحقهم أي ضرر ويحرصون على عدم التكرار. ولا أزعم أنهم يعيشون سعداء بعد ذلك لأنه توجد أنواع كثيرة من العقاب، ولكنهم يبدون سعداء في الظاهر. ولعل الأمر كذلك في قضية مادلين سميث أو ليزي بوردن، ففي الأولى أُخلي سبيل مادلين سميث لعدم ثبوت الأدلة، وفي الثانية بُرئت ساحة ليزي بوردن، ولكن يوجد أناس كثيرون ما زالوا يعتقدون أن هاتين المرأتين مذنبتان. وأستطيع أن أذكر لك مجرمين كثيرين لم يكرّروا جرائمهم لأنهم حصلوا على ما يريدون، ولكن لو أن خطراً ما هدّد أمنهم... إنني أتصور أن قاتلك، مهما يكُن أمره، ينتمي إلى هذه الطبقة الأخيرة، فقد ارتكب جريمته ولم يشتبه فيه أحد وأصبح يعتقد أنه آمن مطمئنّ، ولكن إذا تدخّل أيّ شخص الآن ونبش الماضي وبحث عن أدلة أو آثار وقلب السماء والأرض واهتدى إلى شيء، فماذا يفعل صاحبنا؟ هل يظلّ هادئ الأعصاب ثابت الجأش وهو يرى الخطر يقترب؟ لا أظن ذلك. صدّقيني يا عزيزتي الآنسة ماربل، لا شيء يرغمك على التدخل، ومن الحكمة أن تبقَي بعيدة عن كل ذلك.

وسكت الطبيب لحظة ثم استطرد قائلاً: وهذه هي وصفتي لك إذا أردت، لا تتدخلي في هذه القضية.

– ولكن الأمر لا يتعلق بي، وإنما بشابين ظريفين. دعني أذكر لك كل شيء بالتفصيل.

وروَت له العانس العجوز كل القصة فقال بعد أن فرغت: مدهش؛ يا لها من مصادفة عجيبة! أظن أنك تعرفين العواقب التي قد تنتج عن ذلك.

– تماماً، ولكنني لا أظن أن ذلك قد خطر بعدُ لهذين الشابين

المسكينين.

– إنهما قد يتعرضان للخطر، وقد يندمان كل الندم لتدخلهما في تلك القضية القديمة. من الأفضل أن يتخلّيا عن فضولهما وأن يتركا أسرار الأسرة في هدوء، ولكنني أفهم وجهة نظر الشاب غايلز، وأظن أنني كنت سأتصرف مثله لو أنني كنت مكانه.

وحدق إلى الآنسة ماربل ثم قال بلهجة خطيرة: إذن أنت تصرّين على الذهاب إلى ديلموث لهذا السبب كي تحشري أنفك في قضية لا شأن لك بها إطلاقاً.

– لا يا دكتور، بل إنني شديدة القلق على هذين الشابين، فهُما لم يفهما الحياة تماماً، ثم إنهما ساذجان مغروران، وأرى أن من واجبي أن أسهر عليهما.

ثم قالت وهي تتكلّف الابتسام: ومن رأيي أن بضعة أسابيع في ديلموث ستصيبني بخير كثير.

– أخشى أن تضع هذه المغامرة حداً لحياتك، ولكنني أعرف أنك صلبة الرأي وأنك لن تستمعي لنصيحتي.

* * *

الفصل السادس

تحرّيات

- أين المكان الذي تظنين أن الجثة كانت فيه؟ هنا؟

كانت غويندا تقف هي وزوجها في بهو هيلسايد، وكانا قد وصلا الليلة الماضية، وكان الشاب شديد الانفعال بصفة خاصة كصبيّ قدّموا له لعبة جديدة. فأجابته غويندا: نعم، تقريباً.

وصعدت الدرَج ثم ألقت نظرة إلى البهو وقالت: نعم، أظن أن هذا هو المكان.

- انحني قليلاً وتصوري أنك في الثالثة من عمرك.

فأطاعته المرأة الشابة دون اعتراض، ثم عاد فسألها قائلاً: ألم تشاهدي الرجل الذي نطق بتلك العبارة؟

- لا أذكر أنني رأيته، لا ريب أنه كان يقف إلى الخلف قليلاً. نعم، هناك. لم أرَ غير يديه، وكانتا أشبه بكفَّي قرد.

قطب غايلز حاجبَيه ثم قال: ولكننا لسنا إزاء جريمة شارع مورغ يا غويندا.

ولزمت غويندا الصمت لحظة ثم قالت: إذا أردت الحق فلا

ريب أنني تصوّرت ذلك. لقد أمعنت الفكر وأشعر أن كل هذا لم يكُن إلا حلماً من تلك الأحلام التي يراها الأطفال في منامهم، وربما كان هذا هو التفسير الصحيح لأنه يبدو أنه لا يوجد في ديلموث من يدري أن جريمة قتل وقعت في هذا البيت أو أن شخصاً قد اختفى.

وعندئذ بدا غايلز كالطفل حين تُنتزع منه لعبته الجديدة وقال على مضض: أظن أن هذا ما حدث في الواقع.

ولكن لم يلبث أن تألّق وجهه من جديد وقال: ولكن لا، لا أظن ذلك، فما كان في مقدورك أن تختلقي تلك العبارة المأخوذة من مسرحية «الدوقة أمالفي».

- ربما نطق بها أحد أمامي في وقت ما ثم انطبعت في ذهني وعادت في أحلامي فيما بعد.

- لا أظن أن في مقدور طفلة صغيرة أن تستوعب مثل هذه العبارة إلا إذا كانت واقعة تحت تأثير انفعال كبير، وفي هذه الحالة نعود إلى نفس النقطة. ولكن لحظة واحدة، يخيّل إليّ أنني فهمت ما حدث. لقد رأيت الجثة وسمعت تلك الكلمات، ثم تملّكك الذعر فيما بعد ورأيت كابوساً تخللته كفّا قرد، ولا ريب لأنك كنت تخافين في قرارة نفسك من القرود في ذلك الوقت.

فبدا الاضطراب على وجه غويندا وقالت بغير اقتناع: لعل الأمور وقعت كما تقول.

- أتمنى أن تستطيعي تحديد ذكرياتك بشيء من الدقة. انزلي إلى البهو وأغمضي عينيك وحاولي التركيز. ألا تتذكرين شيئاً آخر؟

– نعم يا غايلز، لا أتذكر. كلما فكرت بدا لي أن كل هذا يبتعد عني. وإنني أتساءل الآن، هل رأيت شيئاً حقاً؟ من الجائز أنني كنت في المسرح في تلك الليلة وكنت ضحية لنوع من... من انتقال المخّ.

– لا، لقد حدث شيء حقاً، والآنسة ماربل تعتقد ذلك أيضاً، ولا ريب أن اسم هيلين يعيد إلى ذاكرتك شيئاً.

– لا شيء على الإطلاق يا غايلز، ليس أكثر من اسم.

– لعله ليس الاسم الذي سمعته حقاً.

فاعترضت الفتاة وقالت بإصرار: بل هو الذي سمعته؛ لقد سمعته يقول هيلين.

– إذا كان الأمر كذلك فلا بدّ أن تتذكري شيئاً عنها. هل كنت تعرفينها جيداً؟ هل كانت تقيم هنا أم أنها كانت زائرة فحسب؟

فقالت غويندا وقد بدأت تشعر بالتوتر والانفعال: أقول لك إنني لا أعرف شيئاً.

ورأى غايلز أن يحاول بطريقة أخرى فقال: من تتذكرين إذن؟ هل تتذكرين أباك؟

– لا، لا أستطيع التأكيد على الأقل. لقد كانت له صورة عند خالتي أليزون، وكانت تقول لي أحياناً: «هذا أبوك»، ولكنني لا احتفظ بأية ذكرى منه في هذا البيت.

– ألم يكُن يوجد خدم أو مربّية أطفال؟

– نعم، لم يوجد، وكلّما حاولت أن أتذكّر أحسست بفراغ ذاكرتي يتّسع. إن الأشياء التي أعرفها موجودة كلّها في عقلي

الباطن، كما حدث عندما اتجهت بصورة آلية إلى ذلك المكان من الجدار حيث كان يوجد الباب من قبل. لم أتذكر أنه كان موجوداً حتماً، ويجوز أنك إذا لم تلاحقني هكذا فقد يعود إلى ذاكرتي كل شيء. إن محاولة اكتشاف ما حدث في تلك اللحظة من العبث تماماً، فقد مرّ وقت طويل على ذلك.

- أرى أن الحالة ليست ميؤوساً منها كما تتصورين، وهذا رأي الآنسة ماربل أيضاً.

- ولكنها لم تذكر لنا كيف نتناول هذه المسألة، ومع ذلك وطبقاً لما ارتسم في عينيها فإنني أدرك أنها كانت تواجه نظريات كثيرة. وإنني أتساءل، بأي صورة يمكنها أن تتناول هذه المسألة؟

- أعترف أنني لا أدري كيف يمكن أن تدرك أشياء لا نفهم لها نحن أي معنى. اسمعي يا غويندا، يجب أن نكفّ عن إبداء النظريات وأن نحاول دراسة الحقائق بترتيب وبطريقة منطقية، ومهما يكُن فقد بدأت أنا وذهبت إلى المكتب المدني وفحصت السجلات المدنية، ولكنني لم أصل إلى نتيجة ما لسوء الحظ، فلم تمُت أية امرأة باسم هيلين في ذلك الوقت، ولهذا يجب أن نحاول محاولة أخرى، وإذا كان أبوك وزوجته قد أقاما هنا فلا بدّ أنهما اشتريا البيت أو استأجراه على الأقل.

- إذا صدّقنا فوستر البستاني فإن البيت كان ملكاً للآنسة ألوورثي وأخواتها قبل آل هنغريف وكان ملكاً قبل ذلك لامرأة تُدعى السيدة فنديزون.

- لا ريب أن أباك اشتراه وأقام فيه فترة من الوقت ثم باعه فيما بعد، ولكن يبدو لي أنه من المعقول أن يكون قد استأجره مفروشاً، وإذا كان الأمر كذلك فإن الوسيلة الوحيدة هي أن نلجأ

إلى سماسرة العقارات.

ولم يكُن الطواف بمكاتب سماسرة العقارات بالأمر العسير لأنه لم يكُن يوجد غير مكتبين اثنين في ديلموث وهما مكتب ويلكنسون، وهو مكتب حديث لم يمرّ على إنشائه أكثر من عشر سنوات، ومكتب غالبريت ويندرلي وهو المكتب الذي اشترت غويندا هيلسايد عن طريقه.

فذهب غايلز إليه في اليوم التالي وذكر قصته الصغيرة، وهي أنه وزوجته أحبّا ديلموث كثيراً وأنهما يشعران بسرور كبير لأنهما اشتريا البيت، وقد تذكرت السيدة ريد أخيراً أنها أقامت فترة من حياتها وهي طفلة صغيرة في ديلموث وأنها لا تزال تحتفظ ببعض الذكريات، وأنه يخيل إليها أنها أقامت في هيلسايد بالذات ولكنها غير متأكدة، فهل من الممكن أن يعرف إذا كان الميجور هاليداي اشترى ذلك البيت في وقت من الأوقات أو إذا كان قد استأجره فحسب؟ كان ذلك منذ ثمانية عشر عاماً.

اعتذر السيد ويندرلي بحركة من يده وقال: أخشى أننا لا نستطيع يا سيد ريد لأن السجلات الموجودة لا ترجع إلى ذلك الوقت، ولو أن السيد ناراكوت الكهل لا يزال على قيد الحياة لاستطاع أن يساعدك بكل تأكيد لأنه كان يتمتع بذاكرة قوية، وقد بقي في المكتب نحو ثلاثين عاماً، ولكن لسوء الحظ...

فقاطعه غايلز قائلاً: ألا يوجد من يستطيع أن يتذكر ذلك؟

- إن جميع موظفينا من الشباب، ولكن يوجد السيد غالبريت، غير أنه اعتزل العمل منذ سنوات طويلة.

- هل نستطيع أن نراه؟

- طبعاً، ولكنني أخشى أن لا يتمكّن من مساعدتكم؛ فقد أُصيب بأزمة في العام الماضي وتدهورت قواه العقلية كثيراً. لقد تجاوز الثمانين من عمره.

- ألا يزال مقيماً في ديلموث؟

- بلى، هو مقيم في ديلموث، وهو يقطن كلكتا لودج، وهو بيت صغير جميل يقع في طريق ستيون، ولكنني لا أظن حقاً أن بإمكانه مساعدتكم.

فقال غايلز: يبدو أنه لا أمل، ولكن من يدري؟

* * *

في كلكتا لودج استقبلتهما امرأة شابة هي الآنسة غالبريت بشيء من الشك، ولكن عندما قالت لها غويندا الغرض من زيارتهما انبسطت أساريرها حين رأت أنهما لا يحاولان أن يبيعاها شيئاً وقالت: أظن أنه لن يستطيع أن يقدّم لكما أية مساعدة لأن الأمر يرجع إلى عهد بعيد جداً. أتقولين الميجور هاليداي؟ لا أذكر أنني سمعت هذا الاسم في ديلموث قطّ.

فقالت غويندا: ربما تذكّر أبوك شيئاً ما.

- يمكنك أن تتحدثي إليه إذا أردت، ولكنني لا أدري إن كانت صحّته تسمح له باستقبالكما أم لا.

وتقدّمت زائريها إلى مكتب صغير يقع خلف البيت حيث يجلس في مقعد كبير رجل طاعن في السنّ له شارب أبيض ضخم، وقد نظر إلى غويندا باستحسان، ثم قامت ابنته بواجب التعارف فقال بعد أن أصغى إلى القصة: إن ذاكرتي لم تعُد كما كانت.

أتقولين هاليداي؟ لا، إنني لا أتذكر هذا الاسم.

- إننا نظن أن الميجور هاليداي ربما استأجر هيلسايد.

- هيلسايد؟ أكان البيت معروفاً بهذا الاسم في ذلك الوقت؟ لقد كانت تقيم فيه سيدة تُدعى السيدة فنديزون.

- من المحتمل أن يكون أبي قد استأجر منها البيت مفروشاً بعدما عاد من الهند في ذلك الوقت.

- من الهند؟ إنني أتذكر رجلاً، ضابطاً، كان معه زوجة شابة وطفلة صغيرة.

فقالت غويندا: أنا تلك الطفلة.

- أهذا صحيح؟ يا إلهي، إن الوقت يمرّ بسرعة مذهلة! لقد كان يبحث عن بيت مفروش، وكانت السيدة فنديزون قد سافرت إلى مصر حيث كانت تنوي قضاء الشتاء بسبب سوء صحّتها. ماذا كان اسمه؟

فعادت غويندا تقول: هاليداي.

- نعم، صحيح. هاليداي، الميجور هاليداي. لقد كان رجلاً ظريفاً، وكانت زوجته جميلة وفي مقتبل العمر. كان لها شعر أشقر، ولم تكُن تريد الابتعاد عن أهلها. نعم، كانت جميلة جداً.

- ومن هم أقرباؤها؟

- ليس لديّ أية فكرة، ولكنك لا تشبهينها.

وهمّت غويندا بأن تقول إنها ليست إلا زوجة أبيها، ولكنها رأت أنه لا فائدة من تعقيد الأمور أكثر من ذلك واكتفت بأن سألته قائلة: وكيف كانت؟

فجاء ردّ غالبريت مثيراً للدهشة حين قال: كانت تبدو قلقة. لقد كان الميجور هاليداي رجلاً ظريفاً، واغتبط حين علم أنني كنت في كلكتا. إنه لم يكُن يشبه هؤلاء الرجال الذين لم يغادروا إنكلترا قط، هؤلاء الرجال الأغبياء بُلداء الذهن. ولكن ماذا كان اسم ذلك الضابط الذي أراد أن يستأجر بيتاً مفروشاً؟

وبدا كالحاكي القديم الذي يردّد أسطوانة مستهلكة فقال: نعم، سانت كاترين. لقد استأجر سانت كاترين لمدة ثمانية شهور في الوقت الذي ذهبت فيه السيدة فنديزون إلى مصر. لقد ماتت هناك على كل حال وبِيع البيت في المزاد العلني بعد ذلك. من الذي اشتراه؟ نعم، السيدة ألوورثي وأخواتها، ولكنهن غيرنّ اسمه، وكنّ يعملن بالتنصير.

وتنهّد تنهيدة عميقة ثم اضطجع في مقعده إلى الخلف وقال: لقد انقضى على ذلك وقت طويل ولم أعُد أتذكر الأسماء. جاء رجل من الهند، شاب شهم، وأظنه ضابطاً، وزوجة جميلة، وطفلة صغيرة. إنني متعَب يا غلاديس، أريد كوباً من الشاي.

وشكره غايلز وغويندا كما شكرا ابنته. وقالت غويندا وهي تجلس في السيارة: لقد ثبت لنا الآن أنني أقمت أنا وأبي في هيلسايد. ماذا نفعل الآن؟

فصاح الشاب فجأة قائلاً: ما أشدّ غبائي! يوجد سومرست هاوس طبعاً.

- وما هو؟

- هو مكتب يحتفظ بصورة من جميع وثائق الزواج. سأمضي إليه كي أبحث فيه عن وثيقة زواج أبيك. إن خالتك تقول إنه

تزوّج زوجته الثانية بمجرد عودته إلى إنكلترا. وكان يجب أن نفكر في ذلك من قبل؛ فمن الجائز أن هيلين التي تتكلمين عنها تمتّ بِصلة القرابة إلى زوجة أبيك، ولعلها أختها. ومهما يكُن فما إن نعرف اسم أسرتها حتى نستطيع أن نجد من يقدم لنا ما نريد من معلومات عنها، ولا تنسَي أن الكهل غالبريت قال إن زوجة أبيك لم تشأ الابتعاد عن أهلها. وإذا كان هؤلاء الأهل لا يزالون على قيد الحياة فربما اهتدينا إلى شيء آخر.

* * *

رأى غايلز أنه ليس من الضروري أن ينتقل إلى لندن وأن في مقدوره أن يكلّف غيره بالبحث عن تلك الصورة، ولهذا اتصل هاتفياً بمكتبه في العاصمة وجاءه الردّ بعد يومين من ذلك. وفضّ المظروف وأخرج منه صورة لوثيقة زواج ألقى إليها نظرة ثم أعطاها لزوجته وهو يقول: ها هي الوثيقة. لقد تزوّج أبوك يوم الجمعة السابع من شهر أغسطس في مكتب مدني ليفنغستون. كلفن جيمس هاليداي وهيلين سبنلوف كيندي.

فهتفت غويندا تقول: هيلين؟!

وتبادل الزوجان النظر بصمت، ثم قال غايلز أخيراً: ولكن لا يمكن أن يكون... أعني أنهما افترقا بعد سنة، ثم تزوّجت بعد ذلك.

فخفضت المرأة الشابة عينيها ونظرت إلى الاسم من جديد، هيلين سبنلوف كيندي.

هيلين!

* * *

الفصل السابع

الدكتور كيندي

بعد بضعة أيام كانت غويندا تجتاز الميدان عندما هبت ريح شديدة البرودة فتوقفت فجأة أمام استراحة أقامتها البلدية قاعدتها مبنية بالطوب ونصفها العلوي وسقفها عبارة عن ألواح زجاجية. ثم صاحت تقول بشيء من الدهشة: الآنسة ماربل؟!

وكانت تلك الأخيرة جالسة داخل الاستراحة وقد التفّت في معطف سميك من الصوف وأحاطت عنقها بوشاح، فقالت: إنني أقدّر دهشتك وأنت ترَينني هنا، ولكن طبيبي وصف لي هواء البحر، وأنت قد أطريت جمال ديلموث بحيث رأيت أن أمضي بها بضعة أيام.

- ولمَ لم تأتي لزيارتي؟

- أنت تعرفين أن الأشخاص المسنّين متعبون في بعض الأحيان، ثم إن الشبان المتزوجين يجب أن يعيشوا في جوّ هادئ. وقد نزلت في فندق تديره طاهية قديمة لإحدى صديقاتي.

ثم أسرعت تقول وهي تبتسم رداً على اعتراض غويندا: إنني واثقة أنك كنت ستُحسنين ضيافتي. ولكن أخبريني، كيف حالكما؟

هل جلوتما السرّ؟

فأجابت غويندا وهي تجلس بجوار العانس العجوز: ليس بعد، ولكننا اهتدينا إلى أثر.

ثم أطلعتها على حقيقة تحرياتهما واختتمت حديثها قائلة: وقد نشرنا في جميع الجرائد المحلّية إعلاناً، كما نشرنا نفس الإعلان في جريدة التايمز نطلب إلى كل من عرف هيلين سبنلوف هالياداي المولودة باسم كيندي الاتصال بنا. وأظن أنه لا بدّ أن يأتينا بعض الردود، فما رأيك؟

فقالت الآنسة ماربل ببطء: وأنا الأخرى أظن ذلك.

وكان صوتها هادئاً كالعادة ولكنّ عينيها كانتا تنطقان بالقلق، وألقت نظرة سريعة إلى المرأة الشابة الجالسة بجوارها والتي بدت لها كلماتها جوفاء. كانت غويندا قلقة، ولا ريب أنها بدأت ترى العواقب المحتملة لفضولها، ولكن فات الأوان كي ترجع إلى الوراء، ولا شك أنها أصبحت تدرك ذلك جيداً.

عادت الآنسة ماربل تقول بهدوء: أعترف أن هذه المسألة تثير حيرتي واهتمامي. وأنت تعرفين أن حياتي رتيبة جداً، وأرجو أن لا ترميني بالفضول إذا طلبت منك أن تطلعيني على نتائج تحرّياتكما أولاً بأول.

فصاحت غويندا تقول بحماسة: أعدُك أنك سوف تعرفين كل شيء، فإنني لا أنسي أنه لولا وجودك معي في لحظة معيّنة لكنت الآن ألاحق الأطباء كي يرسلونني إلى إحدى مصحّات الأمراض العقلية. اذكري لي عنوانك، ولكن يجب أن تأتي وتتناولي معنا كوباً من الشاي. يجب أن تشاهدي مسرح الجريمة، أليس كذلك؟

ثم راحت المرأة الشابة تضحك، وبدت سضحكتها مصطنعة بعض الشيء. وعندما انصرفت هزّت الآنسة ماربل رأسها برفق وقطبت حاجبيها.

* * *

راح غايلز وغويندا ينتظران البريد كل يوم بشوق، وقد شعرا بخيبة أمل في البداية لأن الردّين الوحيدَين اللذين تلقّياهما جاءا من مكتبين للأبحاث الخاصة يعرضان عليهما القيام بالتحرّي والتحقيق. وقد قال غايلز: لا داعي إلى العجلة من هذه الناحية، ولكن إذا اضطررنا إلى أن نلجأ إلى مكتب للأبحاث فيجب أن نختار بكل عناية؛ فإنني لا أثق أبداً في تلك الدعاية التي تقوم بها الصحف، ثم إنني لا أدري ماذا يستطيعون أن يفعلوا أكثر منا.

ووجد مكافأته بعد بضعة أيام عندما جاءه خطاب مكتوب بذلك الخط الواضح الذي يتعذر قراءته تقريباً والذي يتميز به أصحاب المهن الحرّة، وكان نصّه:

جولز هول، وودلي بولتون.

سيدي العزيز،

رداً على إعلانكم المنشور بجريدة التايمز أحيطكم علماً بأن هيلين سبنلوف كيندي هي أختي، وأن أخبارها انقطعت عنّي منذ سنوات طويلة، وأكون سعيداً لو عرفت شيئاً عنها.

جيمس كيندي، طبيب ممارس سابقاً.

قال غايلز: وودلي بولتون؟ إنها لا تبعد عنا بأكثر من ثلاثين كيلومتراً. سنكتب إلى الدكتور كيندي ونسأله إذا كان يمكن أن

نزوره، إلا إذا كان يفضّل أن يأتي بنفسه.

ولم يتأخر الردّ، فقد أرسل الدكتور يقول إنه يسرّه أن يستقبلهما يوم الأربعاء التالي.

وقرية وودلي بولتون قرية بيوتها متناثرة وتقوم في منحدر رابية، أما البيت المعروف باسم جولز هول فيقع فوق القمة ويشرف على البحر مباشرة. وكان البيت نفسه كئيباً، وكان يبدو واضحاً أن الدكتور كيندي يزدري الاختراعات الحديثة كالتدفئة العامة، أما المرأة التي فتحت لهما الباب فكانت متجهّمة الوجه هي الأخرى، وقادتهما عبر بهو يكاد يكون عارياً إلى مكتب نهض من أمامه صاحب البيت لاستقبالهما. وكانت غرفة المكتب مستطيلة ذات سقف مرتفع غُطيت جدرانها بالكتب.

كان الدكتور كيندي رجلاً تقدّمت به السنّ، ذا شعر أبيض وعينين حادّتين فوقهما حاجبان كثيفان، فقال: السيد والسيدة ريد؟ اجلسي هنا يا سيدتي لأن هذا المقعد أفضل. هل أستطيع الآن أن أسألك عن حقيقة الأمر؟

وكان يتكلّم بلهجة جافة وتحفّظ كبير، فانطلق غايلز يروي القصة التي سبق أن أعدّها هو وغويندا، فقال إنهما تزوّجا حديثاً في نيوزيلندا، وإنهما أقبلا إلى إنكلترا حيث سبق أن أقامت زوجته فيها فترة وهي طفلة صغيرة، وإنها تتمني أن تهتدي إلى أقربائها أو إلى أصدقاء الأسرة.

وظلّ الطبيب محتفظاً بجموده، وكان رقيقاً طبعاً ولكنه بدا محنقاً لإصرارهما على تجديد روابط أسرية قديمة، ثم قال: وتحسبان أن أختي، أو بالأحرى أختي غير الشقيقة، من أقربائكما؟

ونمّت رقّته عن شيء من العداء، فقالت غويندا: إنها زوجة أبي، تزوّجها بعد وفاة أمي، ولكني لا أتذكر شيئاً عنها لأنني لم أكُن غير طفلة في ذلك الوقت. واسمي قبل الزواج هو الآنسة هاليداي.

فنظر الطبيب الكهل إليها بعينين متسعتين لفرط الدهشة، وفجأة أضاءت وجهه ابتسامة وتخلّى عن توتّره وتحفّظه ثم صاح قائلاً: يا إلهي، لا تقولي لي إنك أنت غويني!

فأومأت المرأة الشابة برأسها ثم قالت: نعم، أنا غويني.

- يا إلهي! أهكذا كبرت وتزوّجت؟ لقد مرت خمس عشرة سنة، بل أكثر من ذلك. أظن أنك لا تتذكّرينني.

- بصراحة أنا لا أتذكّرك، بل إنني لا أتذكّر أبي نفسه. إن تلك الفترة من حياتي غامضة في ذاكرتي.

- لقد كانت زوجة هاليداي الأولى من مواليد نيوزيلندا طبعاً، وقد أخبرني بذلك ذات يوم. إنها بلدة جميلة، أليس كذلك؟

- بل إنها أجمل بلاد العالَم بالنسبة إليّ، ولكنني أحبّ إنكلترا أيضاً.

- أجئتِها في زيارة أم أنك تنوين البقاء فيها؟

وقرع الجرس وهو يتكلم فأقبلت المرأة ذات الوجه المتجهّم فقال لها الطبيب: الشاي من فضلك، وأحضري معه بعض الكعك.

وكانت المرأة تبدو خشنة الطباع ولكنها حنت رأسها بإذعان ثم خرجت، وعاد الطبيب يقول: إنني لا أشرب الشاي عادة، ولكن يجب الاحتفال بهذه المناسبة.

فقالت غويندا: هذا كرم منك. لا، إننا لم نأتِ لزيارة إنكلترا، وإنما اشترينا بيتاً، اشترينا هيلسايد.

- هيلسايد؟ أظن أنه يقع في ديلموث، فقد كتبتما لي من هناك.

- نعم، وهذه مصادفة غريبة حقاً، أليس كذلك يا مايلز؟

- بلى، مصادفة غريبة جداً.

ثم استطردت غويندا قائلة: كان البيت معروضاً للبيع. وأردفت تقول وهي ترى أن الطبيب لم يفهم شيئاً: إنه نفس البيت الذي سبق أن أقمت فيه مع أبي.

فقطب كيندي حاجبَيه وقال: هيلسايد؟ الواقع أنني سمعت أنهم غيّروا اسمه، كان اسمه فيما مضى سينت... لا أذكر. إذا كان هو نفس البيت الذي نتكلّم عنه فإنه يقع على طريق ليهامبثون، على اليمين، قبل أن تبلغي البلدة بقليل.

- هذا صحيح.

- من العجيب أن المرء ينسى الأسماء دائماً، ولكن لحظة واحدة، أظن أن اسمه كان سانت كاترين.

- وهل صحيح أنني أقمت به حقاً؟

- بالتأكيد.

ثم نظر إليها بشيء من الطرب وقال: ولكن لماذا اشتريتِه بالذات في حين أنك لا تمتلكين أية ذكريات معيّنة عنه؟

- صحيح أنني لا أملك أية ذكريات عنه ولكنني ما إن رأيته حتى شعرت بطريقة ما أنه بيتي.

فتمتم الطبيب يقول مستفهماً: بيتك؟

لم يكُن في صوته أية رنة خاصة، ومع ذلك فقد تساءل غايلز فجأة فيما عساه يفكّر. وعادت غويندا تقول: كنت أرجو أن تستطيع أن تحدثني عن ذلك الماضي البعيد، عن أبي وعن هيلين، عن كل شيء.

فنظر كيندي إليها وهو يفكّر من جديد ثم قال: أظن أن أقرباءك في نيوزيلندا لم يعرفوا شيئاً قطّ، ومهما يكُن فلم يكُن يوجد الكثير. كانت هيلين عائدة من الهند على نفس الباخرة التي استقلّها أبوك، وكانت زوجته قد ماتت منذ أيام وخلّفت له طفلة صغيرة، ولا ريب أن هيلين أشفقت عليه أو لعلها أحبّته، وكان أبوك يحس بالوحدة فأحبها هو الآخر. ومن العسير أن نعرف كيف تقع هذه الأمور، ومهما يكُن فقد تزوّجا في لندن بمجرد وصولهما إليها، ثم أقبلا إلى ديلموث حيث كنت أمارس مهنتي هناك في ذلك الوقت، وكان كلفن هاليداي شاباً ظريفاً وإن كان عصبياً بعض الشيء، ولكنهما كانا سعيدين على أية حال.

وسكت الطبيب لحظة ثم عاد يقول: ومع ذلك فقد هربت هيلين مع رجل آخر بعد أقلّ من سنة، ولا ريب أنك تعرفين ذلك.

فسألته غويندا قائلة: ولأيّ سبب هربت؟

فحدق كيندي بعينيه الثاقبتين ثم قال: إنها لم تقُل لي ذلك. لم تبُح لي بأسرارها قطّ، ولكنني كنت قد لاحظت، وكان من المستحيل أن أفعل غير ذلك، أنه يوجد بينها وبين كلفن خلاف لا أدري سببه، فقد كنت متحفّظاً دائماً، ثم إنني من أنصار الأمانة الزوجية، وهذا هو السبب في أن هيلين لم تُطلعني على ما كان

يدور بينهما من خلاف. وكنت قد سمعت بعض الشائعات كما يحدث عادة في مثل هذه الحالات، ولكن دون ذكر أية أسماء. وكان كلفن وهيلين يستقبلان الكثير من الضيوف والزوّار الذين يأتون من لندن أو من أماكن أخرى من إنكلترا، وأظن أنها هربت مع واحد منهم.

- أظن أنه لم يقع طلاق بينهما، أليس كذلك؟

- بلى، لم يقع طلاق؛ فقد أبت هيلين ذلك. وقد اعترف كلفن نفسه لي بذلك، وهذا ما حملني على الظن بأنها هربت مع رجل متزوّج، وربما كنت مخطئاً في ظني هذا.

- وأبي؟

فأجاب الطبيب بلهجة جافة قائلاً: لم يشأ أن يطلّقها هو الآخر.

قالت غويندا: حدّثني عنه. لماذا قرّر فجأة أن يبعث بي إلى نيوزيلندا؟

ففكّر كيندي لحظة قبل أن يقول: أظن أن خالتك أقنعته هي وخالك بذلك، ولعله رأى أن هذا هو أفضل حلّ بعد فشله في الزواج الثاني.

- ولماذا لم يذهب إليهما هو بنفسه؟

- لا أدري. لم تكُن صحّته على ما يرام منذ وقت طويل.

- ومم كان يشكو؟ وكيف مات؟

وفي تلك اللحظة فُتح الباب ودخلت المرأة تحمل صينية الشاي وفوقها بعض الكعك بالمربى والزبد، فأشار الطبيب إلى

غويندا إشارة خفيفة كي تصبّ الشاي. وعندما فرغت من ذلك استطرد كيندي يقول بمرح متكلّف شيئاً ما: حدثيني عن التغييرات التي قمت بها في البيت. هل أدخلت به تعديلات كثيرة؟ أظن أنني لن أعرفه إذا رأيته.

فقال غايلز: لم نُدخل أية تعديلات حتى الآن إلا في غرفتَي الاستحمام.

ورفعت غويندا عينيها إلى الطبيب وقالت: من أي شيء مات أبي؟

- لن أستطيع القول يا عزيزتي؛ فكما قلت لك منذ لحظة لم تكُن صحّته على ما يرام منذ وقت ما، وقد دخل إحدى المصحّات في شمال بريطانيا أخيراً ومات فيها بعد سنتين.

- وأين هذه المصحّة؟

- للأسف لا أتذكر، غير أنني شبه واثق من أنها في شمال إنكلترا.

وكان كيندي يتكلّم بشيء من التردّد في تلك اللحظة، وتبادل غايلز وغويندا النظر ثم قال الشاب بإصرار: يمكنك أن تقول لنا على الأقل أين دُفن؛ فإن غويندا تريد أن تزور قبره، وهذا شيء طبيعي.

فانحنى الطبيب فوق المدفأة كي يفرغ غليونه ثم قال بصوت أجش: لو أنني مكانك لما اهتممت بالماضي كثيراً، فإنني أرى أن الاهتمام به خطأ كبير، وإن ما يهمّ الآن إنما هو المستقبل. وأنتما في ريعان الشباب وفي تمام الصحّة، انظرا إلى الأمام ولا تلتفتا إلى الخلف، فلا توجد أية فائدة من وضع زهور على قبر شخص

لم تعرفاه تقريباً.

فقالت غويندا بإصرار: ولكنني أريد أن أزور قبر أبي.

فقال الطبيب بصوت هادئ: يؤسفني أنني لا أستطيع مساعدتك؛ فإن هذا الأمر أصبح بعيداً جداً وذاكرتي ليست أمينة كما كانت من قبل، هذا فضلاً عن أنني فقدت الصلة بأبيك بعد انتقاله من ديلموث. وأظن أنه كتب لي مرة من المصحّة، ولكنني لست واثقاً وليست عندي أية فكرة عن المكان الذي دُفن فيه.

فقال غايلز: أليس هذا شيئاً غريباً؟

– ليس تماماً؛ فقد كانت هيلين هي الرابطة التي تربطني به، وكنت أحبّها كثيراً. إنها أختي غير الشقيقة، وهي أصغر منّي بكثير، وقد بذلت قصارى جهدي كي أحسن تربيتها فألحقتها بأحسن المدارس، ولكن مما يؤسف له أنها لم تكُن على أخلاق متينة، فقد واجهت مشكلات كثيرة وهي لا تزال صغيرة بسبب شاب فاسد الأخلاق تعلّقت به، ولحسن الحظ أنني أنقذتها من تلك الورطة دون أن يلحقها أي أذى. ثم حاولت بعد ذلك السفر إلى الهند كي تتزوّج والتر فين، ابن محام كبير في ديلموث، وهو شاب كريم شهم إلا أنه يثير الملل، وقد أحبّها جداً ولكنها لم تهتمّ به. ثم غيرت رأيها فجأة وأبحرت إلى الهند وفي نيتها أن تتزوجه، غير أنها ما كادت تراه حتى غيرت رأيها من جديد وأرسلت برقية إليّ تطلب منّي أن أبعث إليها قيمة تذكرة العودة. وماذا كنت أستطيع أن أفعل؟ أرسلت إليها النقود طبعاً، ولكنها تعرفت بكلفن في أثناء الرحلة وتزوجا قبل أن أعلم بنيتهما. وهكذا ترَين أنني واجهت المتاعب مع أختي دائماً، وهذا هو السبب في أنني لم أستمرّ في مخالطة كلفن. ولكن قولا لي، أين هي الآن؟ هل تعرفان ذلك؟ إنني أحب

أن أعثر عليها أو أن أسمع أنباءها على الأقل.

فأجابته غويندا قائلة: ولكننا لا نعرف عنها شيئاً، لا نعرف عنها أيّ شيء على الإطلاق.

- لقد خُيل إليّ عندما قرأت إعلانكما...

وتنقلت عيناه بين غويندا وغايلز بشيء من الحيرة ثم قال: بالمناسبة، لماذا نشرتما ذلك الإعلان؟

- إنني أتمنى الاتصال...

فقاطعها كيندي بدهشة قائلاً: بشخص لا تذكرين عنه أي شيء، أليس كذلك؟

- لقد خطر لي أنني إذا اهتديت إليها فقد تحدثني عن أبي.

- نعم، إنني أفهم، ولكن يؤسفني جداً أنني لا أستطيع أن أقدّم لكما أية مساعدة، فقد أصبح كل هذا بعيداً عن ذاكرتي.

وعندئذ تدخّل غايلز قائلاً: ولكنك تستطيع أن تعرف المصحّة التي دخلها الميجور هاليداي. هل هي خاصة بالأمراض الصدرية؟

فتجهّم وجه الطبيب وقال: نعم، أظن ذلك.

- إذا كان الأمر كذلك فيجب أن نجدها دون صعوبة. أشكرك يا دكتور على كل ما أخبرتنا به.

ونهض غايلز وحذت زوجته حذوه وهي تقول: شكراً لك، وأرجو أن تأتي لزيارتنا في هيلسايد.

وبينما هي تجتاز العتبة التفتت ونظرت إلى الدكتور نظرة

أخيرة، وكان واقفاً على مقربة من المدفأة يداعب شاربه بانفعال وقد ارتسمت أمارات القلق على وجهه.

* * *

قالت المرأة الشابة وهي تجلس في السيارة بجوار زوجها: إنه يعرف شيئاً لم يُرِد أن يخبرنا به. نعم، يوجد شيء يا غايلز، وكم أتمنى لو أنني لم أدسّ أنفي في هذه المسألة القديمة.

وتبادل الشابان النظر لحظة وقد سرى بينهما شيء من الخوف، ثم استطردت غويندا قائلة: لقد كانت الآنسة ماربل على حق، كان يجب أن لا أنبش الماضي.

فقال غايلز بغير اقتناع: لا يوجد ما يرغمنا على الاستمرار. لعل من الأفضل أن نتخلى عن كل ذلك الآن يا عزيزتي.

فهزّت غويندا رأسها وقالت: لا يا غايلز، إننا لا نستطيع أن نتوقف الآن. سنظلّ نُلقى أسئلة لن نجد لها جواباً، وسنتخيل أشياء كثيرة. يجب أن نستمرّ، فليس لنا الخيار. من المؤكد أن الدكتور كيندي قد أخفى بعض الحقائق، ربما بدافع الطيبة والكرم، ولكننا لسنا بحاجة إلى هذا النوع من الكرم، لا بدّ لنا أن نكتشف ما حدث حقاً، حتى... حتى إذا كان أبي هو الذي...

وتحطّم صوتها وسكتت.

* * *

الفصل الثامن

أوهام كلفن هاليداي

في صباح اليوم التالي كان غايلز وغويندا في الحديقة عندما جاءتهما السيدة كوكر تقول: معذرة يا سيدي، ولكنّ رجلاً يُدعى الدكتور كيندي يطلبك في الهاتف.

ترك غايلز غويندا تتحدث مع فوستر البستاني وعاد إلى البيت، ثم أمسك السماعة وقال: مرحباً، غايلز يتكلّم.

- أنا كيندي. لقد فكّرت في حديث أمس يا سيد ريد وانتهيت إلى رأي، وهو أنه يجب أن أطلعك على بعض الحقائق التي خطر لي أنه من الأفضل أن تعرفها أنت وزوجتك. هل أستطيع زيارتكما بعد ظهر اليوم؟

- طبعاً، في أية ساعة ننتظرك؟

- الساعة الثالثة، إذا ناسبكما ذلك.

- حسناً.

وفي نفس الوقت كان البستاني يسأل غويندا قائلاً: هل الدكتور كيندي هذا هو الذي كان يقيم في وست كليف فيما سبق؟

- أظن ذلك. هل تعرفه؟

- لقد سمعت عنه، والناس يقولون إنه طبيب ممتاز، ولكن الدكتور لازنبي كان يتمتع بشعبية أكثر؛ فقد كان رقيق المعاملة دائماً ويحبّ مداعبة مرضاه، أما الدكتور كيندي فكان جافاً في طباعه على الرغم من أنه كان قديراً في مهنته.

- ومتى تخلّى عن عملائه؟

- منذ وقت طويل، نحو خمسة عشر عاماً، بسبب صحّته كما قيل.

قال غايلز رداً على سؤال زوجته الصامت الذي بدا في عينيها: سيأتي بعد ظهر اليوم.

وتحوّلت غويندا إلى البستاني من جديد وقالت: هل عرفت أخت الدكتور كيندي؟

- أخته؟ لا أظن ذلك. لقد كانت صبية وكانت لا تزال تذهب إلى المدرسة الثانوية، ثم رحلت بعد ذلك إلى الخارج، ولكن يخيّل إليّ أنها عادت بعد أن تزوّجت، ثم هربت بعد ذلك مع رجل غريب. لقد كانت المسكينة مجنونة بعض الشيء، ولكن أظن أنني لم أرَها قطّ لأنني كنت أعمل في بليموث في ذلك الوقت.

ابتعدت غويندا مع زوجها وقالت: لماذا يأتي؟

- سوف نعرف ذلك قريباً.

* * *

أقبل الدكتور كيندي في تمام الساعة الثالثة، وقال بعد أن ردّد البصر في غرفة الاستقبال: من العجيب أنني أجد نفسي هنا

من جديد!

ثم انتقل إلى الغرض من زيارته فقال دون أية مقدّمات: لقد أدركت أنكما مصمّمان على معرفة المصحّة التي مات فيها كلفن هاليداي وأنكما تريدان معرفة المزيد عن مرضه وعن أيامه الأخيرة.

فقالت غويندا: هذا صحيح.

- يمكنكما معرفة كل ذلك دون أية صعوبة طبعاً، ويخيّل إليّ أن الصدمة ستكون أخفّ وقعاً إذا أطلعتكما بنفسي على الحقائق التي أخفيتها عنكما أمس، ويؤسفني أن أطلعكما عليها لأنها قد تسبّب لك بعض الضيق يا غويني. إن أباك لم يكُن مصاباً بمرض صدريّ، وإنما مات في مستشفى للأمراض العقلية.

- مستشفى للأمراض العقلية؟! هل فقد عقله؟

امتقع وجه المرأة الشابة حتى أصبح يحاكي وجوه الموتى، فقال الطبيب: لم يعلَن أنه أُصيب بالجنون رسمياً، وإنني أعتقد أنه لم يكُن مجنوناً بالمعنى المعروف لهذه الكلمة وإنما كان قد أصيب بانهيار عصبيّ، وكان يشكو من تخيلات استحواذية. وقد دخل تلك المصحّة برضاه التام، وكان في مقدوره أن يغادرها في أية لحظة لو أنه أراد ذلك. ولكن حالته لم تتحسن ومات فيها.

فقال غايلز: تخيلات استحواذية؟ أي نوع من التخيلات؟

فأجابه الدكتور كيندي بلهجة أكثر جفاء قائلاً: كان يعتقد أنه خنق زوجته.

فكتمت غويندا صيحة صغيرة، واقترب غايلز منها مسرعاً فأمسك بيدها الباردة وضغطها بيده قائلاً: وهل... هل كانت تلك

هي الحقيقة؟

فنظر الطبيب إليه بدهشة وقال: طبعاً لا، إنه لم يفعل شيئاً من هذا.

فسألته غويندا بصوت مضطرب قائلة: ولكن كيف عرفت هذا؟

– لم يكُن هذا موضوع نقاش قطّ يا ابنتي العزيزة، فقد هجرته هيلين بسبب رجل آخر، وكان يشكو منذ بعض الوقت من انهيار عصبيّ. وكانت تلك الصدمة شديدة الوقع عليه، والنفسيّون لهم رأي في مثل هذه الحالة، فإن الرجل الذي يحب زوجته يؤْثر أن يراها ميتة بدلاً من خائنة، وينتهي به الأمر إلى الاعتقاد بأنها ماتت حقاً وأنه قتلها بيديه.

تبادل غايلز وغويندا النظر بشيء من الحذر، فقال غايلز: إذن أنت تعتقد أنه لم يرتكب الجريمة التي اتهم بها نفسه؟

– طبعاً، فقد تلقّيت من هيلين بعد ذلك خطابين، الأول بعد أسبوع من رحيلها، والثاني من فلورنسا بعد ذلك بنحو ستة أشهر. لا، صدّقني إن الأمر ليس بأكثر من تخيلات وأوهام.

تنفّست غويندا نفَساً عميقاً ثم قالت: هل لك أن تذكر لي كل شيء من فضلك؟

– سأذكر لك كل ما أستطيع طبعاً. كان أبوك يشكو من حالة عصبية كما سبق أن قلت لك، وقد أقبل لاستشارتي في هذا الموضوع، وقال لي إنه يرى أحلاماً تثير القلق، وإنه يراها دائماً وتنتهي دائماً بنفس الطريقة. كان يرى نفسه وهو يخنق هيلين، وقد حاولت الوصول إلى أصل الداء فخطر لي أنه لا بدّ أنه شاهد شيئاً

ما في طفولته، وعرفت أن أباه وأمه كانا غير متفقين تماماً. لكنني لن أقف عند هذه النقطة لأنها لا تهمّ غير الطبيب، وبعد ذلك نصحته بأن يمضي لاستشارة طبيب نفسيّ، ولكنه رفض نصيحتي مقتنعاً بأن كل هذا ما هو إلا لغو، وأحسست بأنه ليس بينه وبين هيلين أيّ اتفاق أو وئام، ولكنه لم يحدثني في ذلك ولم أُلقِ عليه أيّ سؤال. ثم بلغ الأمر نهايته في اليوم الذي جاءني فيه، وأذكر أن ذلك اليوم كان يوم جمعة وأنا عائد من المستشفى، فوجدته في انتظاري في غرفة العيادة، وما إن رآني حتى رفع عينيه إليّ وقال: "لقد قتلت هيلين". ومضت بي لحظة لم أدرِ فيها ماذا أقول لأنه كان شديد الهدوء والبرود، ثم سألته إن كان رأى أحد هذه الكوابيس التي يراها عادة، ولكنه أجابني قائلاً: "هذه المرة لم أحلم وإنما أتكلّم حقاً"، ثم أردف يقول وهو لا يزال محتفظاً بهدوئه: "من الأفضل أن تأتي معي إلى البيت". وحينئذ أخرجت السيارة من مكان انتظارها وانطلقنا، وعندما وصلنا كان البيت هادئاً ومظلماً، فصعدنا إلى غرفة النوم...

فتدخّلت غويندا على الفور وسألت: غرفة النوم؟!

نمّ صوتها عن دهشة شديدة، فتأملها الطبيب بشيء من الحيرة وقال: نعم. ولكن لم يكُن بها أحد، لم يكُن على الفراش أحد، وكانت الغرفة مرتبة والفراش كذلك. لم يكُن الأمر غير تخيّلات مرة أخرى.

- وماذا قال أبي؟

- أصرّ على قصته طبعاً، فقد كان يعتقد قطعاً أنه قتلها، فأعطيته مسكّناً وأرقدته في الغرفة الصغيرة المجاورة، وفي سلة المهملات بغرفة الاستقبال وجدت ورقة مكوّرة عليها بضعة سطور

بخطّ هيلين تقول فيها: «هذا وداع، وإنني آسفة، ولكن زواجنا كان غلطة منذ البداية. إنني راحلة مع الرجل الوحيد الذي أحببته. أرجو أن تغفر لي إذا استطعت. هيلين». وبعد ذلك سألت الخادمة، وكان ذلك هو يوم إجازتها وقد عادت في وقت متأخر، وأخذتها إلى غرفة هيلين كي تريني ثياب أختي. كان كل شيء يبدو واضحاً، فقد أخذت هيلين حقيبة صغيرة وحقيبة سفر وملأتها بالثياب، ومع ذلك فقد فتشت البيت تفتيشاً دقيقاً دون أن أجد أي أثر يدل على أن أختي قُتلت.

وصمت الدكتور كيندي برهة ثم استطرد قائلاً: وفي صباح اليوم التالي قضيت لحظات عصيبة مع كلفن، ولكنه أدرك في النهاية أنه توهّم، أو على الأقل هذا ما قاله لي قبل أن يدخل إحدى المصحّات للعلاج. وبعد أسبوع من ذلك جاءني خطاب من هيلين كما قلت لك، وقد ألقته في صندوق بريد بيارتيز، وكانت تخبرني فيه بأنها راحلة فوراً إلى إسبانيا، وطلبت منّي أن أقول لكلفن إنها لا تريد الطلاق، وأن يحاول أن ينساها بأسرع ما يمكن. عرضت الخطاب على كلفن فلم ينطق بكلمة، ولكنه كتب لأقرباء زوجته في نيوزيلندا يطلب منهم أن يتكفلوا بابنته، ثم رتب أموره ودخل مصحّة خاصة تتمتع بسمعة طيّبة، ولكن العلاج فشل معه للأسف ومات بعد سنتين. وأستطيع أن أعطيكما عنوان المصحّة. إنها تقع في نورفولك، ومديرها الحالي كان يعمل فيها طبيباً في ذلك الوقت، وفي مقدوره أن يزوّدكما بكل التفصيلات عن مرض أبيك.

فسألته غويندا قائلة: أظن أنك قلت لنا إنه قد جاءك خطاب آخر من هيلين، أليس كذلك؟

– بلى، بعد ستة شهور. وقد جاءني من فلورنسا، وذكرت فيه

عنوانها على أنه يحفظ بشباك البريد باسم الآنسة كيندي، وقالت في ذلك الخطاب إنها تدرك أنها ظلمت كلفن برفضها الطلاق، وإنه إذا أراد الطلاق فما عليه إلا أن يخبرها بذلك وعندئذ ستحرص على أن ترسل إليه كل المستندات الضرورية. وذهبت بالخطاب إلى كلفن ولكنه قال لي إنه لا يريد الطلاق، فكتبت إلى هيلين على الفور كي أخبرها بذلك، ولكنني لم أسمع عنها بعد ذلك ولا أدري أين هي، بل إنني لا أعرف هل ما زالت على قيد الحياة، وهذا هو السبب في أن إعلانكما قد لفت نظري، وكنت أرجو أن تذكروا لي أنباءها.

وأمسك لحظة ثم أردف يقول برفق: وأنا آسف حقاً يا غويني، ولكن كان لا بدّ أن تعرفي كل ذلك، وآسف كذلك لأنك نبشت كل ذلك الماضي البعيد.

* * *

الفصل التاسع

عنصر جديد

عندما عاد غايلز إلى غرفة الاستقبال بعد أن شيّع الدكتور كيندي وجد غويندا جالسة في نفس المقعد الذي تركها فيه، وكان وجهها مضطرباً وعيناها محمومتين، ثم قالت بلهجة قاسية جافة لم يألفها منها قبل ذلك: يقول المثل القديم: «الموت من ناحية أو الجنون من ناحية أخرى»، وهذا هو الموقف يا غايلز، الموت أو الجنون.

- غويندا، حبيبتي.

واقترب غايلز من زوجته وأحاط كتفيها بذراعه وأحسّ بها متوترة متصلّبة، ثم قالت: لماذا نبشنا كل ذلك؟ لماذا؟ إن أبي هو الذي قتلها، وصوته هو الذي سمعته وهو ينطق بتلك الكلمات، وليس من العجيب أن يعود كل شيء إلى ذهني، ليس من العجيب أن يتملّكني كل هذا الذعر. أبي بالذات...

- مهلاً يا غويندا، مهلاً، إننا لا نعرف حقاً إذا...

- بل نعرف بكل تأكيد. ألم يقُل للدكتور كيندي إنه قتلها؟

- ولكن كيندي يؤكد أنه لم يفعل شيئاً من ذلك.

- لأنه لم يجد الجثة، ومع ذلك فقد كانت توجد جثة، وقد رأيتها بنفسي.

- ولكنك رأيتِها في البهو وليس في غرفة النوم.

- وما الفرق؟

- الواقع أنه أمر غريب، فلماذا قال أبوك إنه قتل زوجته في غرفة النوم إذا كانت قد قُتلت في البهو؟

- إنني لا أدري، ولكن هذه نقطة لا أهمية لها.

- لست واثقاً من ذلك. لا تنسَي أن في هذه المسألة بعض النقاط الغريبة يا عزيزتي. لنفرض -إذا أردت- أن أباك خنق هيلين في البهو، فما الذي حدث بعد ذلك؟

- ذهب إلى الدكتور كيندي.

- أجل، وقال له إنه قتل زوجته في غرفته وجاء به معه، ولكن عندما وصلا لم تكُن توجد أية جثة لا في غرفة النوم ولا في البهو، فماذا حدث لها؟

- ربما كانت توجد جثة وساعد الدكتور أبي في إخفائها، وهذا شيء لا يسعه الاعتراف به.

فهزّ غايلز رأسه بغير اقتناع ثم قال: لا يا غويندا، لا أستطيع أن أتصوّر كيندي يتصرف بهذه الطريقة؛ إنه رجل اسكتلندي وغير عاطفيّ وعمليّ إلى أبعد الحدود، ثم تأتين الآن فتقولين إنه استطاع أن يورّط نفسه بقبوله أن يكون شريكاً لأبيك بعد أن قتل زوجته؟ لا أعتقد أبداً أنه أقدم على مثل هذا العمل. لا ريب أنه كان يبذل قصارى جهده لمساعدة زوج أخته بأن يشهد في التحقيق بأنه مختلّ

العقل، وهذا ممكن حقاً، ولكن لأيّ سبب يخفي الجريمة؟ ومهما يكُن فإن كلفن هاليداي لم يكُن قريباً له ولا صديقاً حميماً في حين أن أخته هي التي قُتلت، وهي أخت كان يحبّها جداً على الرغم من أنه لم يكُن بطبيعته المتحفّظة يقرّها على تصرّفاتها. لا، إنني ما زلت مقتنعاً بأنه غير جدير بالتستّر على جريمة قتل. كل ما كان في مقدوره أن يفعله هو أن يحرّر شهادة بأنها ماتت ميتة طبيعية، كأن توقّف قلبها عن الحركة فجأة أو أي شيء من هذا القبيل. نعم، أظن أنه كان في مقدوره أن يفعل ذلك، ولكننا نعرف أنه لم يفعل ما دامت السجلات المدنية لم تذكر شيئاً عن الوفاة. ثم قولي لي إذا استطعت، ما الذي حدث للجثة؟

- ربما دفنها أبي في مكان ما، في الحديقة مثلاً.

- كي يمضي بعد ذلك ويقول إنه قتل زوجته؟ لماذا؟ ولماذا لا نقرّ بكل بساطة بأنها هجرته؟

أبعدت غويندا شعرها عن جبينها، وكانت أقلّ توتراً في تلك اللحظة، ثم أخذ وجهها يسترد منظره الطبيعي شيئاً فشيئاً، ثم قالت: لا أدري. أعترف بأن كل هذا غريب. هل تعتقد أن كيندي قال لنا الحقيقة؟

- أكاد أكون واثقاً من ذلك. إن القضية واضحة جداً من وجهة نظره، أحلام وأوهام، وأخيراً وهم أقوى من كل الأوهام الأخرى. والمزعج فيما يتعلق بنا أننا نعرف أنه كانت توجد جثة، أما بالنسبة لكيندي فكلّ شيء يبدو طبيعياً، رسالة الوداع وحقيبة اليد وحقيبة السفر والثياب التي اختفت، ثم الخطابان اللذان أرسلتهما له أخته فيما بعد.

- أجل. وبمَ نفسّر هذين الخطابين؟

- إذا انطلقنا من مبدأ أن كيندي قال لنا الحقيقة، وهذا هو رأيي، فلا بدّ لنا أن نجد لهما تفسيراً.

- أظن أن هذين الخطابين كتبتهما أخته، وأظن أنه عرف فيهما خطها.

- لا أظن أنه يجب أن نعلق أهمية كبيرة على هذه النقطة بالذات، فلسنا هنا أمام توقيع شيك مثلاً، وإذا كان خطّ هذين الخطابين يشبه بما فيه الكفاية خط أخته فإن كيندي لم يخطر له أن يشتبه في أمرهما، فقد كان مقتنعاً منذ البداية بأن هيلين هربت مع رجل آخر، وجاء هذان الخطابان فأكّدا هذا الاقتناع، أما إذا كانت لم تأتِه أنباء منه فقد كان من الممكن أن تخامره الشكوك. وعلى الرغم من ذلك فإنه توجد بعض النقاط يبدو أنه لم يُعِرها أي اهتمام وتثير حيرتي أنا، فإن هذين الخطابين لا يدلان على شيء إطلاقاً، وليس فيهما عنوان ثابت معروف فيما عدا «يُحفظ بالبريد»، وليس فيهما أي دليل ولا أية إشارة عن الرجل الذي هربت هيلين معه، وفي هذا تصميم أكيد لقطع كل العلاقات القديمة، وهذا هو نوع الخطابات الذي يمكن لقاتل أن يتصوره كي لا يثير شبهات أسرة القتيل، ثم إن إرسال الخطابات من الخارج عمل سهل نسبياً.

- هل تظن أن أبي...

- لا، هذا ما لا أظنه. تصوّري أن رجلاً صمّم على التخلص من زوجته، فأول كل شيء ينشر شائعة بأنها تخونه، ثم يدبّر الأمر كي يبدو أنها هربت، رسالة وداع واختفاء حقيبتين وبعض الثياب، ثم يرسل أحدهم خطابات من الخارج في فترات متفاوتة، وهي خطابات يكون قد أعدّها مسبقاً في حين أنه قتل زوجته بكل هدوء في الواقع وأخفى جثتها، لنقُل تحت بلاط القبو مثلاً، ومثل هذه

الجريمة سبق تنفيذها أكثر من مرة، ولكن مثل هذا القاتل لا يسرع بعد ذلك إلى أخي زوجته كي يقول له إنه قتل زوجته ويطلب منه استدعاء الشرطة. ومن ناحية أخرى فلو أن أباك مثال القاتل السريع التأثير الذي يحبّ زوجته إلى حدّ الجنون، ولو أنه خنقها في إحدى نوبات الغيرة الجنونية على طريقة عطيل -وهذا يتفق مع الكلمات التي سمعتِها أنت- لما قام بكل ذلك التدبير، أعني الثياب والخطابات قبل أن يُطلع الرجل الوحيد الذي لا قِبل له بكتمان السرّ على جريمته.

- ماذا تقصد من وراء كل هذا يا غايلز؟

- لا أدري، ولكن يبدو أنه يوجد عنصر مجهول، شخص لم يظهر حتى الآن، ولكننا بدأنا ندرك ما كان يخطط له.

- إنك تختلق كل هذا كي تواسيني يا غايلز.

- لا، وأقسم لك. ألا تفهمين أنه من المستحيل أن نتصوّر مخططاً يتفق مع كل هذه الحقائق؟ إننا نعرف أن هيلين هاليداي خُنقت لأنك أنت نفسك رأيت...

وأمسك فجأة عن الكلام ثم هتف يقول: يا إلهي، ما أشدّ غبائي! إنني أفهم كل شيء الآن. إنك على صواب، وكيندي على صواب هو الآخر. اسمعي يا غويندا، لقد كانت هيلين تستعدّ للفرار مع عشيقها، فمن هو؟ لا نعرف ذلك، ولكنها تكتب رسالة إلى زوجها، ثم يدخل ذلك الأخير الغرفة في تلك اللحظة ويقرأ ما تكتبه فيُجَنّ جنونه ويكوّر الورقة ويلقي بها في سلة المهملات ويهجم على زوجته، فيتملّكها الذعر فتجري إلى البهو، وهناك يلحق بها ويمسكها من عنقها فتنهار فوق الأرض، وعندئذ وعلى بُعد خطوات منها ينطق بتلك الكلمات المأخوذة من مسرحية

«الدوقة أمالفي» في نفس اللحظة التي تنظر فيها إليه طفلة صغيرة من خلال قضبان سياج الدرَج.

- وبعد ذلك؟

- النقطة التي تهمّنا هي أن هيلين لم تمُت، بل إنه فقط قد خطر له أنها ماتت، ولكنها كانت قد فقدت وعيها. ولعلّ عشيقها جاء في تلك اللحظة، بعد انصراف زوجها الذي أسرع إلى الدكتور كيندي في الناحية الأخرى من المدينة، أو لعلها عادت إلى وعيها وحدها. مهما يكُن، فما إن عادت إلى الوعي حتى بادرت بالهرب من غير أن تضيع دقيقة واحدة، وهذا يفسّر كل شيء، اقتناع كلفن الذي يعتقد أنه خنق زوجته، واختفاء الثياب التي لا ريب أن هيلين كانت قد أعدّتها من قبل، والخطابين، ولا ريب أنهما بخطّ يدها حقاً.

- ولكن نظريتك هذه لا تفسّر لماذا قال أبي إنه قتل زوجته في غرفة النوم.

- لقد كان شديد الاضطراب بحيث لم يتذكر ما حدث تماماً.

- أودّ أن أصدّقك، ولكنني اقتنعت وما زلت مقتنعة بأنها كانت ميتة حين نظرت إليها وهي في البهو.

- وكيف كان في مقدورك معرفة ذلك؟ لا تنسَي أنك كنت في الثالثة من عمرك.

فتأمّلت المرأة الشابة زوجها بطريقة غريبة ثم قالت: أظن أن الطفل في هذه السنّ يمكن أن يتذكر أشياء لا يمكنه أن يتذكرها بعد ذلك، تماماً كالكلاب التي تستشعر الموت وتظلّ تنبح، وأظن أن الأطفال يستشعرون الموت هم أيضاً.

- كل هذا هراء.

وفي تلك اللحظة رنّ جرس الباب فقالت: يا إلهي، لقد نسيت تماماً! لقد دعوت الآنسة ماربل كي تتناول الشاي معنا اليوم. لن نتحدث إليها في ذلك.

* * *

خشيت غويندا أن لا يمرّ حفلها الصغير كما تود وتشتهي، ولكن لحسن الحظ لم تلحظ الآنسة ماربل أن مضيفتها تتكلّم دون تروٍّ أو تفكير وأن مرحها كان متصنّعاً شيئاً ما، فقد كانت العانس العجوز مشغولة عنها بحديثها عن ديلموث وإقامتها فيها، ثم استطردت قائلة: وهكذا تريان أن المرء لا يشعر بالغربة تقريباً عندما يفلح في التعرف ببعض الأهالي المقيمين منذ وقت طويل، فأنا مثلاً يجب أن أتناول الشاي مع السيدة فين، أرملة المحامي المعروف بهذا الاسم، ومع ابنها الذي يتولى مهام المكتب حالياً بدلاً من أبيه.

ثم راحت تتكلّم عن صاحبة الفندق الذي نزلت فيه، فقالت إنها امرأة ظريفة وإن الطعام في الفندق شهيّ وجيّد. وبعد ذلك استطردت قائلة: ومن عجائب المصادفات أنها قد عملت طاهية لسنوات عديدة عند صديقتي العزيزة السيدة بانتري، وقد ورثت الفندق عن عمتها عقب موتها، وهي تقيم هنا الآن منذ بضع سنوات، وهذا هو السبب في أنها تعرف الكثير من القصص والشائعات التي تدور بالبلد. بالمناسبة، هل أنت راضية عن البستاني الذي يشرف على حديقتك؟ لقد سمعت أنه يقال عنه إنه رجل غريب الأطوار يتكلّم أكثر مما يعمل.

فأجاب غايلز قائلاً: أجل، إن الشيء الذي يهمّه أكثر من أي

شيء آخر هو الثرثرة واحتساء العديد من أكواب الشاي، ولكنه يعمل بجد عندما نكون بجواره.

عرضت غويندا على الآنسة ماربل أن تريها الحديقة والبيت، وكانت تخشى أن تسمع نقداً من العانس العجوز ولكن مخاوفها لم تكُن لها محلّ، فقد انتهت الزيارة على ما يرام ولم تجد الآنسة ماربل ما يثير الدهشة أو الاستغراب. والعجيب أن غويندا هي التي تصرفت بطريقة غير متوقعة، فقاطعتها في حين كانت تنطق بإحدى الدعابات وقالت لزوجها: سأخبرها، وليكُن ما يكون.

فالتفتت الآنسة ماربل إليها، وفتح غايلز فمه كي يتكلّم ولكنه لم يلبث أن هزّ كتفيه وبدا عليه التردّد ثم قال أخيراً: هذا شأنك أنت على كل حال.

تكلمت المرأة الشابة فروَت القصة كلها، ولم تنسَ أن تشير إلى زيارتهما للدكتور كيندي وزيارة هذا الأخير لهما، ثم اختتمت حديثها قائلة بصوت متقطع: هذا ما كنت تقصدين قوله في لندن، أليس كذلك؟ ظننت أن أبي ربما تورّط في تلك المسألة.

اعترفت العانس العجوز فقالت برفق: لقد مرّ بخاطري هذا الاحتمال فعلاً، وخطر لي أن هيلين ربما كانت زوجة أبيك، وفي حالة كهذه نجد الزوج متورطاً في أكثر الأحيان.

وكانت الآنسة ماربل تتكلم بصوت واضح ودون أي انفعال كأي شخص يبدي نظرية تافهة وعادية تماماً. وقالت غويندا: لقد فهمت الآن لماذا نصحتِنا بأن نتخلى عن كل ذلك، وليتنا استمعنا إليك. لكننا لا نستطيع أن نتخلى الآن للأسف، من المستحيل أن نعود إلى الوراء.

فقالت الآنسة ماربل: أجل، هذا مستحيل.

- يجب أن تُصغي الآن إلى غايلز، فإنني أظن أن لديه بعض الملاحظات المهمة.

وقال الشاب: إنما أقول إنه يوجد شيء لا ينسجم مع الأحداث.

وببطء ووضوح عرض النقاط التي سبق أن أبداها لزوجته ثم قال مختتماً: ليتك تستطيعين إقناع غويندا بأنه ربما كانت هذه الطريقة هي الوحيدة التي وقعت بها الأحداث.

حدجت الآنسة ماربل المرأة الشابة لحظة ثم عادت فنظرت إلى زوجها وقالت: هذه النظرية معقولة تماماً، ولكن يبقى، كما قلت أنت نفسك، احتمال وجود شخص مجهول.

- أجل، وهو العنصر المجهول، رجل يمكن القول بأنه لا يزال خلف الستار، ولكن يبدو أنه توجد بعض النقاط التي تثبت وجوده.

فقالت غويندا: سنمضي إلى تلك المصحّة بنورفولك حيث مات أبي، فقد نكتشف فيها شيئاً.

* * *

الفصل العاشر

خفايا القضية

كانت مصحّة سالتمارش هاوس تقع في مكان جميل على بُعد ستة أميال من الساحل وعلى مسيرة بضعة أمتار من محطة ساوث بنهام.

خفّ الدكتور بنروز إلى استقبال غايلز وغويندا وقال: لقد استلمت خطابكما وخطاب الدكتور كيندي كذلك، وقد درست حالة أبيك يا سيدة ريد، وإنني أتذكره جيداً ولكنني طلبت الملف الخاص به زيادة في التأكد كي أخبرك بكل ما تريدين معرفته، وقد فهمت أنك عرفت الحقائق أخيراً.

فقالت له غويندا إنها نشأت في نيوزيلندا مع أقرباء أمها وإن كل ما تعرفه عن أبيها أنه مات في إحدى المصحّات، فأجابها الطبيب قائلاً: هو كذلك، وكانت حالته تتسم ببعض السمات الغريبة.

فسألته غويندا قائلة: وكيف ذلك؟

– كانت وساوسه، أو أوهامه، شديدة الخطورة. لقد كان يؤكد بصفة قاطعة أنه خنق زوجته الثانية في أثناء نوبة من الغيرة، ومع

ذلك فقد كانت توجد علامات كثيرة خاصة بهذه الحالة العصبية مفقودة. ولا أتردّد في الاعتراف صراحة يا سيدة ريد بأنه لولا اعتراف الدكتور كيندي الذي يؤكد فيه أن السيدة هاليداي ما زالت على قيد الحياة لصدّقت في ذلك الوقت مزاعم أبيك.

فسأله غايلز قائلاً: معنى هذا أنه كان لديك إحساس بأنه قتل زوجته حقاً.

– لقد قلت: "في ذلك الوقت"، غير أنني وجدت فيما بعد أسباباً جعلتني أعيد النظر في رأيي، وذلك عندما أصبحت حالة الميجور هاليداي مألوفة لديّ. إن أباك يا سيدة ريد لا ينتمي إلى هذه الفئة التي تُصاب بالذهان الهذَياني، فهو لم يكُن يشكو من أي اضطهاد، كما أنه لم يكُن يميل إلى العنف ولم يكُن مجنوناً، كما أنه لم يكُن يمثل أي خطر للغير، ولكن كانت تلحّ عليه فكرة ثابتة تتعلق بموت السيدة هاليداي، غير أنها تفسّر حالته الذهنية. وإنني واثق أنه كان لا بدّ لنا أن نرجع إلى الماضي البعيد، وعلى الأرجح تجرِبة قاسية تعرّض لها في طفولته، ومع ذلك يجب أن أعترف أن كل وسائلنا التحليلية أخفقت معه وأننا عجزنا عن معرفة سبب متاعبه بالتحديد، وإن تحطيم مقاومة مريض لهو عمل شاقّ وطويل قد يقتضى سنوات في بعض الأحيان، وفي حالة أبيك بالذات كنا في حاجة إلى الوقت.

وأمسك عن الحديث لحظة ثم رفع عينيه فجأة وقال: أعتقد أنك تعرفين أن الميجور هاليداي انتحر؟

فصاحت غويندا قائلة: آه، لا!

– ألتمس معذرتك يا سيدة ريد، ولكنني كنت أظنك تعلمين. مهما يكُن ربما حقّ لك أن تغضبي منا بعض الشيء لأنني أعترف

أننا لو أقمنا عليه مراقبة شديدة لما حدث ما حدث، ولكنني صراحة لم أكتشف عند أبيك أية إشارة تحملنا على أن نعتقد أنه ممن يلجؤون إلى الانتحار، ولم يكُن لديه أي ميل إلى السوداوية أو الانهيار، وإنما كان يشكو من الأرق فحسب، وقد رأى زميلي أن يعطيه بعض الأقراص المنوّمة، ولكنه بدلاً من أن يتناولها كان يضعها جانباً حتى أصبح لديه كمّية كافية كي...

وترك عبارته معلقة وأتى بإشارة مبهمة من يديه، فقالت غويندا: هل كان يشعر بالتعاسة إلى هذا الحد؟

- لا أظن ذلك، وأعتقد أنه كان يشكو من عقدة ذنب ورغبة في عقاب كان يظن أنه يستحقه. وأنت تعرفين أنه كان قد ألحّ في اليوم الذي اختفت فيه زوجته على استدعاء الشرطة، وعلى الرغم من أنهم صرفوه عن ذلك مؤكدين له أنه لم يرتكب أية جريمة فإنه رفض أن يقتنع، ومع ذلك فقد أثبتوا له أكثر من مرة، واضطُرّ هو إلى الاعتراف بذلك وبأنه ليس لديه أيّ ذكرى حقيقية بأنه اقترف العمل الذي يتهم به نفسه.

ثم قلب الدكتور بنروز في الأوراق التي أمامه واستطرد قائلاً: إن أقواله فيما يتعلق بتلك الليلة لم تتغير قط. عندما عاد إلى بيته كان الوقت ليلاً، ومضى إلى غرفة الطعام كعادته وصبّ لنفسه كأساً من الليمون احتساها على الفور، ثم انتقل إلى غرفة عبر الباب الفاصل، ولكنه لا يذكر بعد ذلك شيئاً فيما عدا أنه وجد نفسه واقفاً في غرفة النوم يتأمل جثة زوجته، وكانت ميتة خنقاً فوق الفراش، وقد اقتنع على الفور بأنه هو الذي ارتكب الجريمة.

فقال غايلز: معذرة يا دكتور، ولكن لماذا كان مقتنعاً إلى هذا الحد؟

– يبدو أنه لم يكُن يوجد أي شك في ذهنه في أنه هو القاتل، فقد كانت تخامره، لمدة شهور قبل الحادثة، شكوك جنونية في أن زوجته تدسّ له العقاقير خلسة. وقد أقام في الهند، وكانت المحاكم تنظر في قضايا كثيرة تتهم فيها الزوجة بأنها أصابت زوجها بالجنون بسبب تعاطيه أدوية هندية، وقد عانى أكثر من مرة من أوهام وتخيلات كانت تشوّش على ذهنه، وخصوصاً فيما يتعلق بالوقت والمكان، وقد أنكر بشدة أنه شك في أن زوجته تخونه، ولكن على الرغم من إنكاره فإنني مقتنع أن هذا هو السبب الحقيقي، ويبدو أن الأمور وقعت على النحو التالي: حين عاد إلى غرفة الاستقبال وجد الرسالة التي كتبتها له زوجته والتي تقول فيها إنها ستهجره. والطريقة التي كان يراها تصلح كي يتلافى هذه الضربة الشديدة الوقع هي اقتناعه بأنه يؤثر أن يراها ميتة على أن يراها خائنة وأنه يفضّل أن يقتلها، ومن هذا جاءت أوهامه وتخيلاته.

فتمتمت غويندا: معنى هذا أنه كان يحبها كثيراً.

– هذا واضح تماماً يا سيدة ريد.

– ولم يشأ الإقرار قط بأن جريمته لم تقع إلا في مخيلته.

– لقد اضطُر إلى أن يعترف بأن الأمر لا بدّ أنه قد حدث كذلك، ولكنه في قرارة نفسه بقي على إيمانه بأنه هو الذي قتلها حقاً. كانت الفكرة المستحوذة عليه أقوى من أن تخضع للمعقول، ولو أننا استطعنا أن نكتشف طبيعة العقدة الثابتة التي عاناها في طفولته...

فقاطعته غويندا فقالت للمرة الثانية: ولكنك واثق تماماً أنه لم يرتكب تلك الجريمة، أليس كذلك؟

– إذا كانت هذه الفكرة هي التي تؤرقك يا سيدة ريد فيمكنك استبعادها عن ذهنك تماماً. إن الميجور هاليداي على الرغم من غيرته على زوجته لم يكُن قاتلاً على الإطلاق.

وسعل الطبيب ثم أخذ دفتراً صغيراً أصاب غلافه البلى وقال: إذا أردت يا سيدة ريد فإنني أستطيع أن أعطيك هذا الدفتر. إن به خواطر كتبها أبوك في أثناء إقامته هنا، وعندما أعاد الدكتور ماكجير، مدير المؤسسة في ذلك الوقت، حاجات الميجور هاليداي لمحاميه خطر له الاحتفاظ بهذا الدفتر لأن فيه تفسيراً لمعاناة الميجور.

فقالت غويندا وهي تأخذ الدفتر الصغير منه: إنني أشكرك كثيراً يا دكتور.

* * *

في قطار العودة إلى لندن فتحت غويندا الدفتر مصادفة وقرأت الآتي:

أعتقد أن هؤلاء الأطباء لا يعرفون مهنتهم، وكل هذا يبدو غريباً وسخيفاً. هل كنت عاشقاً لأمي؟ وهل كنت أكره أبي؟ لا أصدّق كلمة واحدة من كل ذلك، ولا يسعني إلا أن أفكر في أن هذه قضية تخصّ الشرطة ويجب أن ينظر فيها القضاء ولا تدخل في اختصاص الأطباء النفسيّين، ومع ذلك فلا يسعني إلا أن أعترف أيضاً أنه يوجد مرضى كثيرون يعالَجون في هذه المصحّة، وأنهم يبدون طبيعيين ومعقولين تماماً كجميع الناس، إلا عندما نلتمس نقطة الضعف فيهم، ويبدو لي أنني أنا الآخر لي نقطة ضعف. لقد كتبت إلى جيمس

وطلبت منه أن يتصل بهيلين كي يسمحوا لها بأن تأتي لزيارتي، إذا كانت على قيد الحياة، ولكنه يزعم أنه لا يعرف أين هي، وذلك لأنه يعرف تماماً أنها ميتة وأنني أنا الذي قتلتها. إنه شاب شهم ولكن توكيداته لا تخدعني. إن هيلين ماتت.

متى بدأت أشكّ فيها؟ منذ وقت طويل، بعد وصولنا إلى ديلموث بقليل، فقد تغير سلوكها وقد كانت تخفي شيئاً ما، وكنت أراقبها وكانت تراقبني هي أيضاً. هل كانت تضع بعض العقاقير في طعامي؟ هذه الكوابيس الفظيعة الغريبة ليست أحلاماً عادية، ولكنها كوابيس حية حقيقية. إنني أعلم أن العقاقير هي السبب، وهي وحدها التي استطاعت أن تفعل هذا، فلماذا؟ كان يوجد رجل، رجل كانت تخاف منه. يجب أن أكون شريفاً مع نفسي. لقد ارتبت في أن لها عشيقاً، من المؤكد أنه كان يوجد رجل. إنني أعرف ذلك، فقد حدثتني عنه بغموض ونحن فوق ظهر السفينة، رجل كانت تحبه ولا تستطيع أن تتزوجه. لقد كنا متشابهين أنا وهي لأنني لم أكُن أستطيع نسيان ميغان. إن صغيرتي غويني تشبهها كثيراً، وكانت هيلين تلاعب غويني برفق فوق السفينة.

هيلين، أنت رقيقة جداً يا هيلين. أما زالت على قيد الحياة أم تراني خنقتها وطوّقت عنقها بيديّ حقاً ورُحت أضغط حتى كتمت أنفاسها؟ لقد عبرت غرفة الطعام ورأيت ذلك، بعد ذلك أظلمت الدنيا في عينيّ ولم أعُد أرى شيئاً، ولكن لا يوجد أي شك. لقد قتلتها،

وأحمد الله على أن غويني في أمان في نيوزيلندا. إن خالها وخالتها كريمان وسيسهران عليها من أجل ميغان، ميغان، كم أودّ لو أنك لا تزالين معي! هذه هي الوسيلة المثالية دون أية فضائح، أحسن وسيلة للطفلة، فإنه يستحيل عليّ الاستمرار هكذا سنوات وسنوات. يجب أن أسلك أقصر طريق، ولن تعلم غويني أبداً، لن تعلم أن أباها قاتل.

* * *

نظرت غويندا إلى غايلز وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ولكن الشاب كان ينظر إلى الناحية الأخرى، وعندما أحس بأن زوجته تنظر إليه التفت إليها، وكان يوجد مسافر آخر يجلس على بُعد يطالع جريدة في صفحتها الأولى عنوان مكتوب بالخط العريض ونصه: «مَن هم الرجال الذين كانوا في حياتها؟». وببطء أشارت غويندا برأسها وخفضت عينيها من جديد إلى المذكرات التي كتبها أبوها في الدفتر الصغير، وقرأت مرة أخرى: «من المؤكد أنه كان يوجد رجل، وإنني أعرف ذلك».

* * *

الفصل الحادي عشر

رجال في حياتها

عبرت الآنسة ماربل الميدان ثم انعطفت إلى شارع فور فألقت نظرة سريعة على نافذة عرض محلّ لبيع خيوط الصوف، وكان به بائعتان منهمكتان مع بعض الزبائن، ولكن كانت توجد بائعة أخرى متوسطة السنّ تجلس في آخر المحلّ. دفعت الآنسة ماربل الباب فدخلت، ثم اتجهت إلى البائعة الأخيرة وقالت لها إنها تبحث عن صوف أصفر اللون من طراز كادر كي تغزل منه ثوباً لطفل، ثم راحت بعد ذلك، وببطء شديد، تتصفح مجلات الصيحات الحديثة الخاصة بالأولاد، ولم تُبدِ البائعة أيّ ضجر لأنها كانت قد اعتادت منذ وقت طويل التعامل مع عميلات مسنّات يهوين الحديث والثرثرة. قالت الآنسة ماربل: نعم، أظن أن هذا اللون جميل، ثم إنه من نوع جيّد لا ينكمش مع الغسيل.

فقالت البائعة وهي تربط اللفافة: إن الطقس اليوم شديد البرودة.

فأجابت الآنسة ماربل: أجل، وقد أحسست ببرودته وأنا أعبر الميدان، ولكنني أرى أن ديلموث تغيرت كثيراً. إنني لم آتِ إليها منذ... منذ ما يقرب من سبعة عشر عاماً.

– ستجدين فيها تغيّرات كثيرة إذن، فإن دار عرض سوبرب لم تكُن قد شُيدت بعد، ولا الفندق الجديد هو الآخر.

– هذا صحيح. لقد كانت ديلموث صغيرة جداً، وكنت أقيم عند بعض الأصدقاء في فيلا سانت كاترين على طريق ليهامبتون، أظنك تعرفينها.

ولكن البائعة قالت إنها لا تقيم في ديلموث إلا منذ عشر سنوات، فشكرتها الآنسة ماربل وأخذت منها لفافتها ثم غادرت المحلّ ودخلت المحلّ الذي بجواره، وهناك قصدت بائعة متقدّمة في السنّ راحت تثرثر معها وهي تفحص بعض الأقمشة، وقد ردّت عليها البائعة تلك المرة على الفور فقالت: لا ريب إذن أنك كنت تقيمين مع السيدة فنديزون.

– أجل، أظن أن هذا هو اسم صاحبة الفيلا، ولكن الأصدقاء الذين أتحدث عنهم كانوا قد استأجروا الفيلا مفروشة، وهم الميجور هاليداي وزوجته وابنته الصغيرة، ولم تكُن هذه الأخيرة قد تجاوزت الثالثة من عمرها في ذلك الوقت.

– إنني أتذكرهم تماماً، وقد أقاموا في الفيلا نحو سنة.

– أجل، فقد عاد الميجور من الهند، وكانت لديهما طاهية ممتازة أعطتني وصفة جميلة لعمل البودنغ بالتفاح، وكذلك وصفة كعك بالينسون، ولكنني لا أذكر اسمها، وأحب أن أعرف ماذا جرى لها.

– أظنك تتكلّمين عن أديث باغيت يا سيدتي. إنها ما زالت في ديلموث، ولكنها تعمل الآن في وندر وش لودج.

– وقد التقيت كذلك بأناس آخرين، منهم آل فين، وأظن أن

السيد فين كان يعمل بالمحاماة.

– هذا صحيح، ولكنه مات منذ سنوات عديدة، وما زال ابنه السيد والتر فين يقيم مع أمه لأنه لم يتزوّج حتى اليوم، وهو الذي يشرف على المكتب الآن.

– حقاً؟ ولكنني كنت أعتقد أنه سافر إلى الهند.

– إنك لست مخطئة يا سيدتي، فقد سافر وهو شاب صغير ولكنه عاد بعد سنة أو سنتين. وكتبه الآن مشهورة في الإقليم كله وأعماله رائجة، والسيد فين نفسه رجل ظريف ومحبوب جداً.

– كان قد خطب الآنسة كيندي، ولكن الفتاة فسخت الخطبة كي تتزوّج الميجور هاليداي، أليس كذلك؟

– بلى، كانت قد رحلت إلى الهند كي تتزوّج السيد فين، ولكنها غيّرت رأيها أخيراً ووقع اختيارها على الميجور.

وكانت لهجة العاملة تنمّ عن شيء من الاستهجان، فانحنت الآنسة ماربل إلى الأمام وخفضت رأسها وهي تقول: لقد رثيت كثيراً للميجور هاليداي وابنته الصغيرة. لقد فهمت أن زوجته الثانية هجرته وهربت مع رجل آخر، ولا ريب أنها كانت امرأة متقلبة.

– كانت امرأة رعناء تماماً، ومع ذلك فإن أخاها الطبيب كان رجلاً ظريفاً وقديراً جداً في عمله.

– مع من هربت؟ إنني لم أعرف ذلك قطّ.

– لن أستطيع أن أخبرك بذلك يا سيدتي؛ فإن البعض يزعمون أنه أحد الضيوف الذين استقبلهم الميجور في أثناء الصيف، أما ما أعرفه أنا عن يقين فهو أن الميجور أصيب بصدمة عنيفة وترك

ديلموث، وقد سمعت أن صحّته تدهورت تماماً. إليك باقي المبلغ يا سيدتي.

فأخذت الآنسة ماربل الباقي مما دفعته والتقطت ما اشترته وهي تقول: أشكرك كثيراً، إنني أتساءل إذا... إذا كانت أديث باغيت، أظن أنك قلت إن هذا هو اسمها، إذا كانت لا تزال محتفظة بوصفة الكعك بالينسون لأنني فقدتها، وأنا أحب هذا النوع من الكعك كثيراً.

- أرجو أن تكون محتفظة بها يا سيدتي. بالمناسبة، إن أختها تقطن بالبيت المجاور، وهي متزوّجة وزوجها يُدعى السيد مونتفورد، وهو صاحب محلّ الحلوى بالبلدة، وأختها تأتي لزيارتها مرة كل أسبوع، وأنا واثقة أن السيدة مونتفورد سوف تنقل إليها رسالتك.

- هذه فكرة طيبة، وأشكرك كثيراً.

وعندما خرجت ألقت نظرة إلى ساعتها وقالت: ما زال أمامي خمس دقائق على موعدي مع هذين الشابين الظريفين في مشرب جنجر كات، وأرجو أن لا يكونا قد سمعا ما يكدرهما في تلك المصحّة.

* * *

كان غايلز وغويندا جالسَين في ركن من المشرب والدفتر الأسود الصغير أمامهما عندما دخلت الآنسة ماربل وانضمّت إليهما، وبعد أن طلبت غويندا لها فنجاناً من القهوة وبعض الكعك ناولتها الدفتر الصغير قائلة: يجب أن تقرئي هذا أولاً ثم نتحدث بعد ذلك. إن أبي هو الذي كتب هذه المذكرات في أثناء إقامته

في تلك المصحّة.

ثم تحوّلت إلى زوجها وقالت: هل لك أن تُطلع الآنسة ماربل على ما ذكره لنا الدكتور نبروز؟

فأطاعها الشاب على الفور، وبعد أن فرغ من قصته فتحت الآنسة ماربل الدفتر الصغير وبدأت تقلب صفحاته ثم أطبقته أخيراً. وكان من الصعب معرفة ما يدور في ذهنها، ولكن خُيل إلى غويندا أنها ترى وميضاً من الغضب في عينيها. وقالت المرأة الشابة: إنك نصحتنا بأن لا نهتمّ بهذه المسألة، ولم نقدّر نصيحتك في ذلك الوقت فلم نُصغ إليك، وها أنت ترَين ما وصلنا إليه. ولكن يبدو أننا بلغنا الآن نقطة أخرى نستطيع أن نتوقف عندها إذا أردنا، فهل تظنين أنه يجب أن نفعل ذلك؟

فهزّت الآنسة ماربل رأسها ببطء وكانت بادية القلق والحيرة، ثم أجابت قائلة: لا أدري، لا أدري حقاً. لعل من الأفضل أن تفعلا لأنه لا يوجد ما يمكنكما عمله بعد هذه المدة الطويلة.

فسألها غايلز قائلاً: أظن أنك تقصدين القول إننا لا يمكن أن نكتشف شيئاً بعد هذا الوقت الطويل.

- لا، ليس هذا ما أقصد قوله على الإطلاق. إن تسعة عشر عاماً ليست مدة طويلة، فما زال يوجد أناس كثيرون، وعلى سبيل المثال الخدم. لا ريب أنه كان يوجد خادمان في البيت في ذلك الوقت على الأقل، غير المربية والبستانيّ طبعاً، ويكفي أن نتذرّع بالصبر ونتحمّل المشاقّ كي نحملهم على أن يرووا لنا ما يعرفون. وقد اكتشفت واحدة منهم، وأعني بها الطاهية. كنت أقصد على العموم النتيجة العملية التي يمكنكما أن تصلا إليها، وأميل إلى الظن أنها لن تكون إيجابية أبداً، ومع ذلك...

وأمسكت لحظة ثم عادت تقول: أشعر أنه يوجد شيء، وأعترف أنه قد لا يكون ملموساً تماماً، شيء يحملنا على المجازفة، ولكنني لا أستطيع أن أحدّد طبيعته بالذات.

- يُخيل إليّ...

وسكت غايلز فجأة، فحوّلت الآنسة ماربل عينيها إليه وقالت: إن الرجال قديرون على ترتيب الحقائق بوضوح أكثر، وأنا واثقة يا سيد ريد أنك قد كوّنت لنفسك رأياً.

- لقد فكرت في المسألة طبعاً، وأظن أنه لا يمكننا إلا أن نصل إلى نتيجتين، الأولى سبق أن ذكرتها، وهي أن هيلين هالياداي لم تكُن قد ماتت عندما رأتها غويني طريحة في البهو، وأنها عادت إلى وعيها وهربت مع عشيقها، وهذه النظرية تتفق مع كل الحقائق التي نعرفها، فإنها تنسجم مع اقتناع هالياداي الذي يعتقد أنه قتل زوجته، وكذلك مع رسالة الوداع والثياب المختفية، ولكنها في نفس الوقت تترك بعض النقاط في الظلام، مثال ذلك أنها لا تشرح سبب اقتناع هالياداي بأنه خنق هيلين في غرفة النوم، ومن ناحية أخرى لا تردّ على سؤال يبدو لي مهماً وهو: أين توجد هيلين هالياداي حالياً؟ لأنني أعتقد أنه ليس معقولاً أن لا نعرف أنباءها طَوال هذه المدة.

وصمت برهة ثم استطرد قائلاً: وإذا فرضنا أن الرسالتين اللتين تلقّاهما الدكتور كيندي حقيقيتان فماذا حدث لها بعد ذلك؟ ولماذا لم تكتب من جديد؟ إن علاقتها طيبة مع أخيها، وهو نفسه كان شديد التعلق بها. كان في مقدوره أن يستهجن سلوك أخته، ولكن ليس هذا بسبب كافٍ كي لا ترسل إليه خطابات أخرى، وأرى أن هذه النقطة أزعجت الدكتور كثيراً. لقد تقبّل في ذلك الوقت القصة

التي ذكرها لنا، أعني هرب أخته وانهيار زوجها، ولكن السؤال المزعج الذي ظلّ يلحّ عليه هو: أين أخته؟ ولماذا انقطعت أنباءها؟ وإذا كانت قد ماتت في مكان ما بالخارج أفلا يخطرونه؟ وأظن أن هذا هو سبب اهتمامه عندما رأى الإعلان الذي نشرناه. لقد كان يأمل طبعاً أن نقول له ماذا حدث لأخته منذ اختفائها وأين توجد. ومهما يكُن فإنني أعتقد أنه من الغريب أن تختفي تماماً هكذا، فهذه النقطة وحدها تثير الشك إلى حدّ بعيد.

قالت الآنسة ماربل: إنني أوافقك على ذلك. وما هي النظرية الأخرى يا سيد ريد؟

فقال غايلز ببطء: إنها شديدة الغرابة ومخيفة بعض الشيء أيضاً لأنها تنطوي على نوع من سوء النية، وهي تقوم على أساس أن كلفن هاليداي لم يقتل زوجته ولكنه يعتقد صادقاً أنه فعل ذلك، وهذا ما يظنه الدكتور نبروز حيث كان انطباعه الأول أن هاليداي ارتكب الجريمة وأراد لهذا السبب أن يسلّم نفسه للشرطة، ولكنه لم يلبث أن انضمّ إلى رأي كيندي فسلّم بأن كلفن كان يشكو من عقدة ثابتة، ولكن هذا الحلّ لم يرُق قطّ لرجل له مثل تجارِبه مع مثل هؤلاء المرضى، فقد كان هاليداي يبدو مختلفاً، وكلّما زادت معرفته به ازداد اقتناعاً بأنه لا ينتمي إلى هذه الفئة التي تُقدِم على خنق امرأة حتى وهو في ثورة الغضب، ولهذا قبِل نظرية العقدة الثابتة ولكن بريبة وتردّد. ومعنى هذا في رأيي أن نظرية واحدة يمكن تطبيقها في حالة الميجور هاليداي، وهي أن شخصاً آخر دفعه إلى الاعتقاد بأنه قتل زوجته، وبصيغة أخرى نصل الآن إلى شخص مجهول، ولنقل إنه «س»، وإذا نحن درسنا الحقائق بعناية تامة فإنه يبدو أن هذه هي النظرية المعقولة على الأقل، فإنه طبقاً لأقوال هاليداي نفسه يتضح أنه عندما عاد إلى البيت دخل إلى

غرفة الطعام كي يشرب كأساً من العصير كما كان يفعل عادة، ثم انتقل بعد ذلك إلى غرفة الاستقبال المجاورة فرأى الرسالة على المكتب فأصابه الدوار.

أبدت الآنسة ماربل موافقتها في حين استطرد غايلز قائلاً: ولا ريب أنه لم يكُن دواراً بسيطاً، وإنما كان دواراً شديداً سببه مخدّر وُضع في العصير، والبقية واضحة بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟ لقد خنق «س» هيلين في البهو ثم نقلها إلى غرفتها بالطابق الأول وألقاها فوق الفراش، ودبّر الأمر كي تبدو الجريمة غرامية، وعندما ردّ كلفن إلى صوابه رأى زوجته أمامه، ولما كانت الغيرة قد عذّبت المسكين فإنه يعتقد أنه ارتكب جريمته في لحظة اضطراب، فماذا يفعل بعد ذلك؟ يمشي على قدميه كي يمضي إلى أخي زوجته، وهو يقيم في الطرف الآخر من البلدة، وهذا الغياب يسمح لسيد المجهول «س» بأن يفرغ من الخطة التي سبق أن أعدّها فيدسّ بعض الثياب في حقيبة صغيرة وحقيبة سفر ينقلهما مع الجثة، أما ما فعله بالجثة فأعترف بأن هذا يتجاوز إدراكي.

فقالت الآنسة ماربل: يدهشني أن أسمع كل هذا منك يا سيد ريد لأنني أرى أن هذه المسألة ليست بمثل هذه الصعوبة، ولكن أرجو أن تستمرّ.

فقال غايلز: لقد رأيت عنواناً في الصفحة الأولى من إحدى الصحف في أثناء عودتنا في القطار يقول: «مَن هم الرجال الذين كانوا في حياتها؟»، ورأيت أن هذه هي النقطة الأساسية في مسألتنا هذه؛ لأنه إذا كان يوجد رجل مجهول كما نظن حقاً فإن كل ما نستطيع أن نفترضه عنه هو أنه لا بدّ أنه كان يحب المرأة الشابة إلى حدّ الجنون.

فقالت غويندا: ولهذا السبب كان يكره أبي ويتمنى أن يؤذيه.

- هذا ما وصلنا إليه. لقد عرفنا الآن أي نوع من الفتيات كانت هيلين.

وأمسك غايلز عن الكلام كما لو كان يشمئزّ من إبداء رأيه، فقالت غويندا مكملة: مجنونة رجال.

رفعت الآنسة ماربل رأسها بحدّة ولكنها لم تقُل شيئاً، فقال غايلز: وجميلة جداً، ولكننا لا نملك أي دليل بخصوص الرجال الآخرين الذين ربما كانوا في حياتها، فمن المحتمل أنه يوجد عدد كبير منهم، فيما عدا زوجها.

هزت الآنسة ماربل رأسها وقالت: هذا احتمال ضعيف. لا تنسيا أنها كانت في ريعان الصبا، ثم إنك ترتكب غلطة يا سيد ريد لأننا نعرف من هم الرجال الذين كانوا في حياتها. يوجد ذلك الذي كان يجب أن تتزوّجه قبل أن تلتقي بالميجور هاليداي.

- أجل، ابن المحامي. ما اسمه؟

- والتر فين.

- هذا صحيح، ولكن لا يمكن أن نعدّه من بين المشبوهين لأنه كان في الهند.

- هل أنت متأكد من ذلك؟ لا تنسَ أنه لم يقِم هناك مدة طويلة وأنه عاد كي يعمل بمكتب أبيه.

فصاحت غويندا قائلة: لعله عاد في أثر هيلين.

- هذا جائز، ولكننا لسنا متأكدين من شيء كهذا.

تأمل غايلز العانس العجوز بشيء من الفضول ثم قال: كيف اكتشفت كل هذا؟

وارتسمت ابتسامة على شفتَي الآنسة ماربل ثم قالت: لقد ثرثرت قليلاً في المتاجر وفي أثناء انتظاري لحافلة النقل. إن السيدات المسنّات معروفات بالفضول، وبهذه الطريقة يمكن جمع ما نشاء من معلومات.

فتمتم غايلز بتفكير قائلاً: والتر فين. إن هيلين صدّته، ولا ريب أنه تكدّر لذلك كثيراً. هل تزوّج؟

- لا، إنه يقيم مع أمه، وأنا مدعوّة إلى تناول الشاي معهما في آخر الأسبوع.

وقالت غويندا فجأة: يوجد رجل آخر سمعنا عنه أيضاً، رجل فاسد الأخلاق، إذا استعملنا تعبير الدكتور كيندي، ولكن لأيّ سبب كان فاسد الأخلاق؟

فقال غايلز: وهكذا نجد أنفسنا أمام رجلين، وربما احتفظ كل منهما بضغينة نحو الفتاة التي صدّته، وربما عانى الأول منهما من قصور عقليّ.

فقالت غويندا: يستطيع الدكتور كيندي أن يفيدنا في هذه النقطة، ولكن قد يكون من الصعب إلقاء مثل هذه الأسئلة عليه. شيء معقول أن أحاول معرفة ما حدث لزوجة أبي التي أكاد لا أذكرها، ولكن أن أتدخّل في شؤون قلبها وعلاقاتها السابقة فإن هذا أمر يتطلب بعض التفسيرات لأن الاهتمام بشخص لم أعرفه تقريباً يبدو زائداً عن الحدّ شيئاً ما.

قالت الآنسة ماربل: توجد وسائل أخرى للاستعلام.

وقال غايلز: إننا نملك الآن احتمالين على كل حال.

- وأظن أنه يمكننا أن نضيف إليهما احتمالاً ثالثاً، وقد لا يعدو الأمر أكثر من نظرية ولكن تبرّرها الأحداث.

فنظرت غويندا وزوجها إلى العانس العجوز بشيء من الدهشة في حين استطردت الآنسة ماربل قائلة وقد احمرّ وجهها قليلاً: ليس هذا إلا مجرّد استنتاج. لقد سافرت هيلين كيندي إلى الهند وفي نيتها أن تتزوّج والتر فين، وحتى إذا لم تكُن أحبته إلى حدّ الجنون فلا ريب أنها كانت تشعر نحوه بودّ ما دامت قد هيأت نفسها كي تقضي بقية حياتها معه. ومع ذلك، وبمجرّد أن وصلت هناك فسخت خِطبتها له وبعثت ببرقية إلى أخيها كي يرسل إليها ثمن تذكرة العودة إلى إنكلترا، فلماذا؟

فقال غايلز: أظن أنها غيّرت رأيها.

فهزت غويندا كتفيها وقالت: طبعاً، ونحن نعرف ذلك.

ولكن الآنسة ماربل عادت تقول: لماذا غيّرت رأيها؟

- هذا أمر شائع مع الفتيات.

فقالت الآنسة ماربل موضحة: في ظروف معيّنة.

فأقرّها غايلز قائلاً: طبعاً، لا ريب أن شيئاً قد حدث.

وأسرعت غويندا تقول: بكل تأكيد، قد يكون ثمة رجل آخر.

وتبادلت المرأتان النظر كما لو كانت كل منهما تفهم الأخرى، ثم أردفت غويندا قائلة: فوق الباخرة التي سافرت بها إلى الهند، اللقاء الطارئ، ثم ضوء القمر على سطح الباخرة... ولكن لا ريب

أن الأمر كلّه كان متّسماً بطابع الجدّية ولم يكُن مجرد غزل في أثناء رحلة.

فتمتمت الآنسة ماربل قائلة: أجل، أظن أنه كان أمراً جاداً.

وتدخّل غايلز فقال: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تتزوّج ذلك الرجل؟

فقالت زوجته ببطء: ربما لم تكُن تحبه حباً حقيقياً. ولكنها لم تلبث أن هزّت رأسها برفق واستدركت قائلة: لا، لو أن الأمر كما أقول لتزوّجت والترفين، ولكن... يا إلهي، ما أشدّ غبائي! من المؤكد أنه كان رجلاً متزوّجاً.

ثم نظرت إلى الآنسة ماربل بزهو وانتصار فقالت تلك الأخيرة: تماماً، هكذا أرى الأمر. لقد وقع كل منهما في غرام الآخر ولكن الرجل كان متزوّجاً، وربما كان له أولاد، وكان شريفاً طبعاً، ولم تذهب الأمور إلى أبعد من هذا.

ثم عادت غويندا تقول: ولكن هيلين لم تشأ أن تتزوج والترفين بعد ذلك وصمّمت على العودة إلى إنكلترا. نعم، إن كل شيء يتطابق تماماً، ثم التقت بأبي على الباخرة التي عادت بها إلى هنا و...

وأمسكت المرأة الشابة بضع لحظات كي تفكر ثم استطردت قائلة: ومن المؤكد أنها لم تكُن مجنونة بحبه بل انجذبت إليه فقط. لقد كان كل منهما تعيساً ووجد كل منهما عزاءه في الآخر، وقد حدثها أبي عن أمي ولعلها حدثته هي أيضاً عن الرجل الآخر.

وأمسكت غويندا الدفتر الصغير وراحت تقلب صفحاته بنشاط ثم قرأت: «نعم، هذا أكيد، من المؤكد أنه كان يوجد رجل آخر.

إنني أعرف ذلك، فقد حدثتني عنه بغموض ونحن فوق سطح الباخرة، رجل كانت تحبه ولا تستطيع أن تتزوجه». نعم، هو كذلك. لقد كانت هيلين وأبي يشعران أنهما متماثلان، ولا بدّ أنها قالت لنفسها إنها قد تستطيع إسعاده، بل لعلها اعتقدت أنها ستكون سعيدة معه هي الأخرى في نهاية الأمر.

وأمسكت مرة أخرى ونظرت إلى الآنسة ماربل فقالت تلك الأخيرة باقتناع: هو كذلك.

أما غايلز فقد أحسّ بشيء من الاستياء وقال: ولكنك تتوهمين أشياء كثيرة يا غويندا ثم تزعمين فيما بعد أنها وقعت حقاً.

- ولكنها وقعت يا غايلز، يجب أن تكون قد وقعت. ولدينا الآن شخص ثالث يمكن أن يكون هو صاحبنا «س».

- هل تقصدين...؟

فقاطعته قائلة: الرجل المتزوّج. إننا لا نعرف من هو، ربما لم يكن شريفاً كما كنا نقول منذ لحظة، بل لعله كان مجنوناً شيئاً ما ولاحق هيلين إلى هنا.

- ولكنك قلت لنا منذ لحظة إنه كان راحلاً إلى الهند.

- لا شك في ذلك، ولاحظ أنني لا أؤكد أن صاحبنا المجهول قد عاد، ولكنه يمثل مع ذلك احتمالاً آخر. كنت تريد أن تعرف من هم الرجال الذين كانوا في حياة هيلين. حسناً، لدينا الآن ثلاثة، والتر فين، وشاب لا نعرف اسمه، ورجل متزوّج.

فقال غايلز مختتماً: ولا نعرف هل كان موجوداً حقاً أم لا.

- سوف نتحرى عن هذه النقطة، أليس كذلك يا آنسة ماربل؟

- إذا عرفنا كيف نتصرف فلا بدّ أن نكتشف أشياء كثيرة. وإليكما الآن مساهمتي في التحقيق، ففي خلال حديث لي مع إحدى البائعات عرفت أن أديث باغيت (التي كانت تعمل طاهية في فيلا سانت كاترين في الوقت الذي يهمّنا) ما زالت تعيش في ديلموث، وأظن يا غويندا أنه من الطبيعي أن تحاولي مقابلتها؛ فقد يكون في مقدورها أن تخبرك بالكثير.

فصاحت المرأة الشابة قائلة: هذا رائع. ولديّ فكرة أخرى أنا أيضاً، سأحرّر وصية جديدة. لا تقلق يا غايلز، سأوصي بثروتي لك كما هي، ولكن السيد فين هو الذي سيعدّ الوصية هذه المرة.

- أرجو يا غويندا أن تتوخّي الحذر.

- إن إعداد الوصية عمل عاديّ جداً، والطريقة التي تصورتها لا بأس بها. إنني أريد أن أرى ذلك الرجل يا غايلز. أريد أن أرى كيف هو، وإذا كان قد استطاع كما أظن...

ولم تكمل عبارتها وإنما قالت: إن الذي يدهشني أنه ما من أحد آخر قد ردّ على إعلاننا، فأديث باغيت هذه مثلاً...

وهزّت الآنسة ماربل رأسها ثم قالت: إن الناس في الريف يفكّرون طويلاً قبل الإقدام على أية خطوة.

* * *

الفصل الثاني عشر

ليلي كيمبل

وضعت ليلي كيمبل البطاطا في المقلاة فوق النار ثم نشرت جريدتين فوق مائدة المطبخ وهي تدندن بإحدى الأغنيات الشائعة، ثم جرت بعينيها على أقرب جريدة إليها وأمسكت عن الغناء فجأة وصاحت قائلة: جيم، أرأيت هذا؟

وكان جيم كيمبل يغسل يديه في الحوض، وهو رجل متوسط السنّ متجهم الوجه، فقال متذمراً: ماذا؟

– هذا الإعلان الذي في الجريدة، إن نصّه يقول: «على كل من لديه أنباء عن هيلين هاليداي المولودة باسم كيندي أن يتصل بالسادة ريد وهاردي بساوث هامبتن رو». لا ريب أنهم يقصدون السيدة هاليداي التي كنت أعمل عندها في فيلا سانت كاترين، فقد استأجرت هي وزوجها الفيلا من السيدة فنديزون، وأذكر أن اسمها هيلين وأنها أخت الدكتور كيندي، ذلك الذي كان يطلب منّي دائماً أن أقتلع الأعشاب الضارّة.

ولزمت السيدة كيمبل الصمت ريثما تقلب البطاطا في حين راح جيم كيمبل يجفف يديه، ثم عادت ليلي كيمبل تقول وهي

تنظر إلى تاريخ الجريدة: إنها قديمة طبعاً، فقد صدرت منذ أسبوع تقريباً. أتظن أنه يوجد نقود يمكن أن نكتسبها من هذه المسألة يا جيم؟

فزمجر جيم ولم ينطق، فعادت تقول: قد تكون ثمة وصية، ولكنّ مدة طويلة قد انقضت على هذه الأحداث، تسعة عشر عاماً أو ربما عشرون، فلماذا يعودون إلى هذه المسألة الآن؟ هل تظن أن رجال الشرطة هم الذين نشروا هذا الإعلان يا جيم؟

- لأيّ سبب؟

فأجابت بشيء من الغموض قائلة: إنك تعرف ما كان يدور في ذهني دائماً، وقد رويت لك كل شيء في ذلك الوقت عندما كنا نخرج معاً، فقد قيل إنها هربت مع رجل، ولكن هذا ما يزعمه الأزواج الذين يتخلّصون من زوجاتهم دائماً. لقد قلت لك إن في الأمر جريمة بالتأكيد، قلت لك هذا ولأديث في نفس الوقت، ولكن أديث لم تشأ أن تصدّق ذلك لأنها لم تكُن تتمتع بأي خيال. هل تتذكر الثياب التي زعموا أن سيدتي أخذتها؟ كانت حقيبة صغيرة وحقيبة سفر وبعض الثياب، ولكنها لم تأخذ ما كان يجب أن تأخذه من ثياب، وقد قلت لها: "صدّقيني، إن السيد هو الذي قتلها ودفنها في البهو"، ولكنها لم تكُن في القبو لأن ليوني المربية السويسرية رأت شيئاً من النافذة. لم يكُن يجب أن تبرح البيت ولكنها تركته ورافقتني إلى دار العرض لأن الطفلة لم تكُن تصحو إطلاقاً في أثناء الليل، كما أن سيدتي لم تكُن تصعد إلى غرفة الطفلة على الإطلاق، ولهذا قلت لليوني إن أحداً لن يعرف أنها خرجت معي. ولكن عندما عُدنا كان يوجد هرج ومرج كبيرَين، وكان السيد مريضاً وراقداً في الغرفة الصغيرة والطبيب يرعاه.

وعندئذ ألقى الطبيب عليّ بضعة أسئلة عن الثياب، ولم أهتم بالأمر في ذلك الوقت وخطر لي أنها هربت فعلاً مع ذلك الرجل الذي كانت مولعة به، وأعني به ذلك الرجل المتزوّج. إنني لا أستطيع أن أتذكره، كان اسمه يبدأ بحرف الميم، أو لعله حرف الراء، لا أدري. لا ريب أنني بدأت أفقد الذاكرة.

ولم ينطق السيد كيمبل واكتفى بأن راح يزمجر، فعادت زوجته تقول: سأصفي البطاطا، ولكن سأذهب أولاً لأبحث عن جريدة أخرى؛ فمن الأفضل أن نحتفظ بهذه الجريدة، فمن يدري؟ مهما يكُن من أمر فلا يمكن أن يكون رجال الشرطة هم الذين نشروا هذا الإعلان. لعلهم بعض المحامين، وإذا صحّ هذا فقد يكون لنا مبلغ من المال. إنهم لم يذكروا أنه توجد مكافأة، ولكن قد توجد مكافأة على كل حال. ما رأيك يا جيم؟

واكتفى جيم بأن زمجر ولم ينطق.

* * *

الفصل الثالث عشر

والتر فين

رفعت غويندا عينيها إلى والتر فين وكان جالساً أمامها في الناحية الأخرى من المكتب، فرأت فيه رجلاً في الخمسين من عمره مرهقاً مكدوداً حلو الملامح يبدو كما لو كان لا شأن له. كان من نوع الرجال الذين يصعب على المرء أن يتذكرهم إذا ما التقوا بهم في الشارع، ولكنه عندما تكلّم كان صوته بطيئاً ورخيماً، فحدثت المرأة الشابة نفسها فقالت: لا ريب أنه محامٍ قدير.

ثم ألقت نظرة حولها في الغرفة، وكانت غرفة جميلة مفروشاتها قديمة تنسجم مع صاحبها، وقد حُجبت جدرانها بخزائن خاصة بملفات العملاء، وكان للنوافذ مصاريع كبيرة ألواحها الزجاجية قذرة وتطلّ على المنوَر، والبيت نفسه قديم يرجع عهده إلى القرن السابع عشر.

فرغ والتر فين من الكتابة ثم رفع عينيه إلى المرأة الشابة الجالسة أمامه ثم قال: هذا واضح جداً يا سيدة ريد، وصية بسيطة جداً. متى تعودين للتوقيع عليها؟

فأجابته غويندا بأنها ليست على عجل، ثم استطردت قائلة: لقد اشترينا بيتاً في ديلموث، فيلا هيلساید.

فخفض المحامي عينيه إلى مذكّراته وقال: نعم، لقد ذكرت لي العنوان.

ولم يكُن يوجد أيّ تغيير في لهجته، فقالت غويندا: إنه بيت جميل، ونحن نحبّه كثيراً.

فابتسم والتر فين وقال: حقاً؟ هل يقع على شاطئ البحر؟

- لا، لقد كان معروفاً باسم فيلا سانت كاترين فيما سبق ثم تغيّر اسمه.

فرفع السيد والتر فين نظارته وراح يمسح زجاجها بمنديل حريريّ صغير وهو يحدق بعينيه إلى المكتب ثم قال: آه، على طريق ليهامبتون، أليس كذلك؟

ثم رفع رأسه، ولاحظت غويندا مرة أخرى أن الناس الذين يتعودون على لبس النظارات يبدون مختلفين جداً إذا ما رفعوها عن أعينهم، وكانت عينا والتر فين رماديتين شاحبتين جداً وتبدوان غير واضحتين تماماً بما فيهما من حوَل ظاهر. أعاد والتر النظارة إلى عينيه ثم قال بصوت واضح: لقد قلت لي إنه سبق أن حرّرت وصية عند زواجك.

- أجل، ولكنني أوصيت فيها ببعض الهبات لأناس في نيوزيلندا تُوُفّوا الآن، ولهذا رأيت أن أسهل شيء هو أن أحرّر وصية جديدة، خصوصاً أنني نويت أنا وزوجي الإقامة في إنكلترا بصفة دائمة.

أتى والتر فين بإشارة تدل على الاستحسان ثم قال: هذا قرار حكيم جداً. حسناً، أظن أننا سوّينا كل شيء يا سيدة ريد. هل تستطيعين أن تعودي بعد غد في الساعة الحادية عشرة؟

فنهضت غويندا فحذا والتر حذوها ثم أسرعت تقول بعجلة مقصودة: لقد لجأت إليك لأنني أعتقد أنك عرفت أمي فيما مضى.

قال فين باهتمام مفاجئ: حقاً؟ وماذا كان اسمها؟

– هاليداي، ميغان هاليداي. لقد قيل لي إنكما كنتما مخطوبَين في وقت من الأوقات.

وأحسّت غويندا بأن قلبها قد ازدادت خفقاته. لقد كان وجه السيد فين جامداً لا يعبر عن شيء، ثم قال بصوت عاديّ: لا، إنني لم أعرف أمك قطّ يا سيدة ريد، ولكنني كنت خاطباً في وقت من الأوقات هيلين كيندي التي أصبحت فيما بعد الزوجة الثانية لأبيك.

– آه، لقد أسأت الفهم، وهذا غباء منّي. لقد كنت خاطباً هيلين زوجة أبي! إنني لا أتذكر ذلك طبعاً، فلم أكُن إلا طفلة صغيرة عندما فشل الزواج الثاني لأبي، ولكن قيل لي إنك كنت خاطباً السيدة هاليداي في الهند فظننت أنهم يتحدثون عن أمي لأن أبي تعرّف بها هناك.

فقال والتر فين: لقد ذهبت هيلين كيندي إلى الهند كي تتزوّجني ولكنها غيّرت رأيها، ثم التقت بأبيك على السفينة التي عادت بها إلى إنكلترا.

كان قوله هذا مجرّد بيان بما حدث وكان خالياً من كل انفعال، فقالت غويندا: أرجو المعذرة. هل أثَرتُ أحزانك؟

فارتسمت على شفتيه إحدى ابتساماته النادرة ثم قال: لقد مرّ على كل هذا تسع عشرة سنة أو ربما عشرون يا سيدة ريد، وبعد

مثل هذا الوقت لا يكون في النفس أيّ أثر للأحزان أو الأشجان. إذن فأنت ابنة كلفن؟ أظن أنك ما زلت تتذكرين أن أباك وهيلين أقاما فترة من الوقت في ديلموث، أليس كذلك؟

– لم أنسَ ذلك طبعاً، ولهذا السبب بالذات أتيت أنا وزوجي للإقامة هنا. لم أعُد أتذكر أي شيء طبعاً، ولكن عندما فكّرنا في اختيار مكان للاستقرار فيه أتيت لإلقاء نظرة على ديلموث قبل أي شيء، وقد وجدت البيت جميلاً واجتذبني بحيث قررت الإقامة فيه على الفور، وقد حالفني الحظ فاشتريت نفس البيت الذي أقمت فيه من قبل.

فقال والتر فين وهو يبتسم: إنني أتذكر ذلك يا سيدة ريد، ولكن أظن أنك لا تتذكرين طبعاً أنني حملتك فوق كتفي وأنت صغيرة.

فراحت غويندا تضحك ثم قالت: حقاً؟ إذن فأنت صديق قديم. لا أستطيع أن أزعم أنني أتذكرك طبعاً لأنني كنت في الثانية أو الثالثة من عمري في ذلك الوقت، ولكن هل أتيت من الهند في ذلك الوقت لقضاء إجازتك في إنكلترا؟

– لا، بل غادرت الهند نهائياً. لقد ذهبت إليها كي أعمل بزراعة الشاي، ولكن لم تناسبني الحياة هناك؛ فقد وُلدت كي أسير على نهج أبي وأغدو محامياً. وكنت قد حصلت على شهادة الحقوق قبل رحيلي فعدت إلى مكتب أبي على الفور وبقيت فيه إلى اليوم.

ثم بسط يده إلى زائرته وقال: حسناً، حيث إننا متعارفان منذ وقت طويل كما يبدو فلا بدّ لك أن تأتي في يوم قريب لتناول الشاي أنت وزوجك. سأقول لأمي أن ترسل إليك بطاقة دعوة،

وأنا في انتظار ذلك. ليكُن موعدنا يوم الخميس المقبل.

وغادرت غويندا الغرفة. كان يوجد عنكبوت يعشش في مكان ما أسفل الدرَج، وكان يبدو في وسط خيوطه كحشرة صغيرة تافهة كما لو كانت بعيدة عن الواقع. لم تكُن من تلك العناكب الكبيرة السمينة التي تمسك بالذباب كي تأكله، بل كان يبدو كشبح عنكبوت، كما كان والتر فين يشبه هو الآخر نوعاً من الأشباح.

* * *

كان غايلز ينتظر زوجته على شاطئ البحر، فسألها قائلاً دون أية مقدمات: ماذا حدث؟

فأجابته قائلة: كان قد عاد من الهند في الوقت الذي يهمّنا، وكان موجوداً في ديلموث، بل إنه قال إنه حملني فوق كتفه. ولكنه لا يستطيع أن يقتل أحداً، فليس هذا ممكناً في الواقع لأنه شديد الهدوء والدعة ورقيق جداً فعلاً. إنه من هؤلاء الرجال الذين لا يلتفت إليهم أحد، من هؤلاء الرجال الذين يحضرون الحفلات الاجتماعية ولا يدري أحد متى انصرفوا، وأظن أنه رجل شريف شديد الإخلاص لأمه ويتمتع بكثير من الصفات الحسنة، ولكن إذا نظرنا إليه من وجهة نظر امرأة فهو كئيب، وإنني أفهم الآن لماذا لم يُثِر اهتمام هيلين. إنه من هؤلاء الرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم في الزواج، ولكن لا تحبّ أية امرأة الزواج بهم.

- يا للمسكين! أظن أنه كان يحبها إلى حدّ الجنون.

- أظن ذلك، ومهما يكُن فإنني واثقة من أنه ليس هو قاتلنا الذي نبحث عنه. لا أستطيع أن أتصوّره قاتلاً.

* * *

الفصل الرابع عشر
أديث باغيت

كانت غرفة استقبال السيدة مونتفورد مريحة يشعر الجالس فيها بالاطمئنان والهدوء، وتقوم في وسطها منضدة مستديرة يغطيها مفرش نظيف ومقاعد كبيرة على النمط القديم بجوار المدفأة وأريكة كبيرة بسيطة، وفوق المدفأة بعض التحف الجميلة، ووسط الحائط إطار يضمّ صورة قديمة للأميرتين إليزابيث ومرغريت روز، وعلى الحائط صورة لأبيهما الملك جورج السادس وهو بثياب أمير البحرية الملكية، وفي مكان آخر صورة للسيد مونتفورد وسط جماعة من أصحاب محلات الحلوى والفطائر، وكانت توجد أشياء أخرى بعيدة عن الأناقة والجمال ولكنها كانت تضفي على غرفة الاستقبال المتواضعة جواً من المرح والهدوء.

والسيدة مونتفورد، وكانت تُعرف باسم باغيت قبل الزواج، امرأة قصيرة القامة بدينة الجسم ذات شعر أسود وخطه المشيب، أما أختها فكانت على العكس منها، طويلة القامة نحيفة الجسم لم يتخلل الشيب شعرها الأسود على الرغم من أنها قد بلغت الخمسين. وكانت أديث باغيت تقول في تلك اللحظة: من كان يظن ذلك؟ الآنسة غويني الصغيرة؟! معذرة يا سيدتي إذ أدعوك

بهذا الاسم حتى الآن، ولكن من المدهش جداً أن أراك هنا بعد كل تلك السنوات، فما زلت أتخيلك كما كنت عندما كنت تأتين إلى المطبخ وأنت طفلة صغيرة وجميلة وتطلبين بعضاً من الزبيب. كنت تقولين: "أريد ويني"، ولا أدري من أين أتيت بتلك الكلمة التي كنت تشيرين بها إلى الزبيب.

فنظرت غويني إلى المرأة الجالسة أمامها ذات العينين السوداوين والوجنتين المتورّدتين ولكنها لم تتذكر شيئاً. إن الذاكرة شيء غريب حقاً! ثم تمتمت قائلة: أودّ لو أستطيع أن أتذكر.

- من المستبعَد أن تتذكري ذلك يا سيدتي؛ فقد كنت صغيرة جداً. هل تتذكرين ليوني يا آنسة غويني؟ آه، أرجو أن تعذريني مرة أخرى، كان يجب أن أقول: "يا سيدة ريد".

- ليوني؟ أهذا اسم مربّيتي؟

- نعم. كانت قد قدمت من سويسرا، ولم تكُن تجيد الإنكليزية، كما كانت شديدة الحساسية وكانت تبكي إذا ما قالت لها ليلي شيئاً يكدرها. وليلي أبوت كانت تعمل خادمة البيت في ذلك الوقت، وكانت فتاة وقحة رعناء، وكانت تلهو معك كثيراً، وكان يحلو لك أن تختبئي أسفل الدرَج.

ارتجفت غويندا عندما سمعت كلمة «الدرَج»، ثم قالت فجأة: إنني أتذكرها، أليست هي التي وضعت شريطاً حول عنق القط؟

- من العجيب أنك ما زلت تتذكرين ذلك! بلى، إنها هي. كنا نحتفل بعيد ميلادك وصمّمت ليلي على أن تضع شريطاً حول عنق القط، ولكن توماس تملّكه الغضب وانطلق إلى الحديقة كالمجنون وراح يحتكّ بالأشجار حتى استطاع التخلّص من تلك الحلية التي لم ترُقه. إن القطط لا تحبّ هذا النوع من المزاح.

- كان قطاً أبيض وأسود، أليس كذلك؟

- بلى، وكان شجاعاً. لم يكُن له مثيل في مطاردة الفئران.

وأمسكت الآنسة باغيت لحظة ثم سعلت وقالت: أرجو أن تغفري لي ثرثرتي يا سيدتي، ولكن يخيّل إليّ أنني أعيش الأيام الماضية من جديد. ربما كنت تريدين أن تسأليني عن شيء.

فقالت غويندا: إنني أحبّ أن أسمعك تتحدثين عن الماضي، والواقع أن هذا هو كل ما أريد لأنني نشأت في نيوزيلندا ولم أجد أحداً يحدّثني عن أبي ولا عن زوجته. لقد كانت جميلة، أليس كذلك؟

- بلى، وكانت تحبك كثيراً. كانت تصحبك إلى المصيف وتلعب معك في الحديقة، وهي نفسها كانت صغيرة جداً، لم تكُن أكثر من صبيّة في الواقع. وكنت أقول لنفسي دائماً إنه يسرّها أن تمرح وتلهو مثلك تماماً، ولا عجب؛ فقد كانت ابنة وحيدة، وكان أخوها الدكتور كيندي يكبرها بكثير.

وكانت الآنسة ماربل جالسة عن قرب مستندة إلى الحائط فسألتها برقة: لقد أقمت في ديلموث دائماً، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدتي. لقد قضيت طَوال حياتي هنا.

- لا ريب أنك تعرفين الكثير عن الأهالي إذن.

- هذا صحيح يا سيدتي. لم تكُن ديلموث فيما سبق غير بلدة صغيرة على الرغم من أنه كان يؤمّها مصطافون كثيرون، ولكنهم كانوا أناساً هادئين مسالمين، وكانوا يعودون كل سنة.

فقال غايلز: أظن أنك كنت تعرفين هيلين كيندي قبل أن تتزوّج الميجور هاليداي، أليس كذلك؟

- بلى، كنت قد سمعتها ورأيتها مراراً، ولكنني لم أعرفها حقاً إلا بعد أن التحقت بخدمتها عقب زواجها.

وسألتها الآنسة ماربل قائلة: وهل كنت تحبينها؟

فالتفتت أديث باغيت إليها وقالت: نعم يا سيدتي، كنت أحبها كثيراً، وعلى الرغم مما كان يقال عنها فقد كانت ظريفة وكريمة جداً معي، وما كنت أظن قطّ أن تقدِم على ما أقدمت عليه. وقد أحزنني ذلك كثيراً، ولكن كانت توجد شائعات طبعاً.

وصمتت مرة أخرى ثم ألقت نظرة إلى غويندا كما لو كانت تريد أن تعتذر، فأسرعت غويندا تقول: إنني أريد أن أعرف، فلا تظني أنك تغضبينني بما ستقولين، ثم إنها لم تكُن أمي، ويهمّني جداً أن نجدها، فإن أحداً لم يسمع عنها أي شيء منذ أن غادرت ديلموث، ولا أعرف إذا كانت لا تزال على قيد الحياة أم...، وتوجد أسباب الآن...

وتردّدت غويندا فقال غايلز: توجد أسباب قانونية لأننا لا ندري هل نعتبرها حية أم...

- إنني أفهم ما تعنيه يا سيدي، فإن زوج ابنة عمي ظل مفقوداً بعد الحرب وصادفتنا مشكلات وإجراءات كثيرة، وإذا كان في مقدوري تقديم مساعدة ما بأية طريقة فإنني لن أتردد.

فقال غايلز: جميل منك أن تقولي هذا، وإذا لم يكُن لديك مانع فسوف ألقي عليك أول سؤال. لقد غادرت السيدة هاليداي البيت فجأة، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، وكان ذلك صدمة كبيرة لنا جميعاً، وخصوصاً للميجور المسكين، فقد اعتلّت صحّته تماماً.

- هل لديك فكرة عن الرجل الذي هربت معه؟

فهزّت أديث باغيت رأسها ثم قالت: لا، وهذا السؤال بالذات ألقاه عليّ الدكتور كيندي في ذلك الوقت ولم أستطع الردّ عليه، وكذلك ليلي لم تستطع أن تردّ هي الأخرى، أما ليوني فكانت أجنبية ولم تكُن تجيد الإنكليزية، وكانت لا تفهم أشياء كثيرة.

- أنت لست متأكدة إذن، ولكن ألا يمكنك التخمين؟ إن كل هذا ينتمي الآن إلى ماضٍ بعيد جداً، ولم تعُد توجد أية أهمية حتى إذا أخطأت في تخمينكِ. لا ريب أنه كانت لديكم بعض الشكوك، أليس كذلك؟

- بلى، كانت لدينا شكوك، ولكنها لم تكُن أكثر من شكوك. وفيما يتعلق بي فإنني لم أدرِ شيئاً قطّ، ولكن ليلي كانت داهية، وكانت لها نظرية في هذا الشأن حيث كانت تقول: أقول لك إن ذلك الرجل يحبها، يكفي أن ترَيه كيف ينظر إليها وهي تقدّم له الشاي. يا لزوجته المسكينة! لقد كانت تنظر إليه وشرر الغضب يتطاير من عينيها.

قال غايلز: ومن كان ذلك الرجل؟

- أنا آسفة، فقد نسيت اسمه بعد كل هذه المدة. لقد كان اسمه الكابتن أسديل. لا، بل أظن أنه إيمري. لا، ولا هذا أيضاً، ولكن يخيّل إليّ أن اسمه يبدأ بحرف الألف. إنه اسم مألوف على كل حال، غير أنني لم أفكر في كل هذا منذ ثمانية عشر عاماً، وكان قد أقام هو وزوجته في فندق رويال كلارنس.

- وهل كانا من المصطافين؟

- نعم، ولكن أظن أنهما عرفا السيدة هاليداي قبل ذلك،

وكانا يذهبان كثيراً إلى الفيلا، وكانت ليلي تقول إنه يحبها.

- ولم يرُق هذا الأمر لزوجته طبعاً، أليس كذلك؟

- بلى، ومع ذلك فإنني لم أصدّق في ذلك الوقت أنه كانت بينهما أية علاقة، بل إنني لا أدري حتى الآن.

فقالت غويندا: هل كانا لا يزالان يقيمان في رويال كلارنس عندما هربت زوجة أبي؟

- الذي أتذكره أنهما رحلا في نفس الوقت تقريباً، ربما قبل أن تهرب بيوم أو بعد ذلك بيوم، ولكنني لم أستطع التأكد من ذلك. وإذا كانت توجد علاقة بينهما حقاً فإن كل شيء قد تمّ في الكتمان، غير أنني ما زلت أشكّ في ذلك. وإن ممّا يثير الدهشة أن السيدة هاليداي هربت هكذا فجأة، ولكن الناس يزعمون أنها كانت متقلبة دائماً على الرغم من أنني، من ناحيتي، لم ألحظ شيئاً من ذلك. ولو أنني صدّقت كل الشائعات لما رضيت أن أرافقهما إلى مقاطعة نورفولك.

حدق الثلاثة إلى أديث باغيت وقد ارتسمت على وجوههم أمارات الدهشة الشديدة، ثم قال غايلز: مقاطعة نورفولك؟ هل كانا ينويان الانتقال هناك؟

- نعم يا سيدي. كانا قد ابتاعا منزلاً هناك، وقد أخبرتني السيدة هاليداي بذلك من قبلُ قبلَ تلك الأحداث بنحو ثلاثة أسابيع. كانت قد سألتني إن كان يطيب لي أن أرافقها فأجبتها بالإيجاب، ولم أكُن قد غادرت ديلموث قط، لذا فقد خطر لي أن أغيّر الجوّ قليلاً.

عاد غايلز يقول: لم أسمع قطّ أنهما ابتاعا بيتاً في نورفولك.

- كان يبدو أن السيدة هاليداي تريد الاحتفاظ بالأمر سراً، وقد طلبت منّي أن لا أطلع أحداً على ذلك، وقد أطعتها طبعاً، وكانت تريد مغادرة ديلموث منذ وقت طويل، وكانت تلحّ على الميجور هاليداي كي يوافقها على رأيها ولكنه كان يروقه البقاء هنا، بل أظن أنه كتب إلى السيدة فنديزون يسألها إن كانت على استعداد كي تبيع له البيت. وكان يبدو أنها تكره ديلموث وتخشى أن يستقرّ بها المقام فيها نهائياً.

ونطقت أديث بالعبارة الأخيرة بلهجة طبيعية، ومع ذلك توتر الضيوف الثلاثة عند سماعهم لها، ثم قال غايلز: ألا تظنين أنها كانت تريد الانتقال إلى نورفولك كي تكون على مقربة من ذلك الرجل؟

فكرت أديث باغيت لحظة وهي بادية القلق ثم قالت: الحقيقة يا سيدي أنني لا أظن ذلك، ثم إنني أذكر أن ذلك الرجل كان يقيم هو وزوجته في شمال إنكلترا، في نورثمبرلاند على ما أظنّ، ولهذا كانا يأتيان لقضاء الصيف في الجنوب لاعتدال الجوّ فيه.

فتدخلت غويندا قائلة: قلت لي منذ لحظة إن زوجة أبي كانت تبدو خائفة، فهل كانت خائفة من شيء أم من رجل؟

- لقد تذكرت وأنت تسألينني الآن.

- ماذا تذكرت؟

- كانت ليلي تنظف الدرَج ذات يوم ثم جاءتني إلى المطبخ فقالت لي: "ثمة غيم في الجوّ". لقد كانت لها تعبيرات غريبة، وقد سألتها ماذا تعني فقالت إن السيد دخل غرفة الاستقبال من باب الشرفة هو وزوجته وأن الباب المؤدي إلى البهو كان مواراباً

فسمعتهما يتحدثان، وقد تحدثت السيدة هاليداي إلى زوجها قائلة: "إنني خائفة منك". واتضح لي من أقوال ليلي أن السيدة هاليداي كانت شديدة الخوف، وقد أردفت تقول: "إنني أخاف منك منذ وقت طويل، وأريد أن أكون وحدي. إنني خائفة منك، وأظن أنك أخفتني طَوال الوقت".

وسكتت أديث باغيت لحظة وبدا أنها هي نفسها كانت خائفة ثم عادت تقول: من العسير طبعاً أن أعيد عليكم نفس الكلمات بعد كل هذه المدة، ولكنها كانت هكذا تقريباً. ومهما يكُن فإن ليلي حملت هذا الحديث محمل الجدّ، وهذا هو السبب في أن ليلي بعد كل الذي حدث...

وتردّدت مرة أخرى ثم قالت: كانت تدور في رأس ليلي أفكار غريبة، ولكنني لم أكُن أهتم بها كثيراً. كانت تقضي كل أوقات فراغها في دار العرض ثم تروي لنا كل ما تراه فيها من غرائب وعجائب. وفي الليلة التي هربت فيها السيدة هاليداي كانت ليلي قد ذهبت إلى دار العرض واصطحبت ليوني معها، ولم يكُن هذا بعمل طيّب منها، وقد صارحتها برأيي هذا ولكنها قالت: "ليس لهذا أية أهمية، فإنني لا أترك الطفلة وحدها تماماً حيث إنك موجودة في المطبخ، ثم إن السيد لن يلبث أن يعود هو وسيدتي، والصغيرة لا تصحو بعد أن تنام إلا في الصباح"، فقلت لها بأن هذا غير صحيح. ولكنني لم أعرف أن ليوني خرجت هي الأخرى إلا فيما بعد، ولو أنني عرفت ذلك لصعدت كي أرى إذا كنت بحاجة إلى شيء يا سيدة غويندا لأنني لا يمكنني أن أسمع شيئاً مما يدور في الطابق الأول وأنا في المطبخ.

وسكتت أديث باغيت برهة قبل أن تستطرد قائلة: كنت أقوم

بكيّ بعض الملابس، وكانت الأمسية تمضي سريعاً حين دخل الدكتور كيندي المطبخ فجأة وسألني أين ليلي، فأجبته بأنها خرجت وأنها ستعود ما بين دقيقة وأخرى، ولم أخطئ. وما كاد يراها حتى أخذها إلى غرفة السيدة، وكان يريد أن يعرف ماذا أخذت معها من ثياب، ثم عادت ليلي إلى المطبخ وهي شديدة الاضطراب وقالت: "لقد هربت، هربت مع رجل آخر، وقد أُصيب السيد بأزمة شديدة، وما أشدّ غباءه! كان يجب أن يتوقع ذلك"، فقلت لها: "لا يجب أن تتكلّمي هكذا. كيف تعرفين أنها هربت مع رجل؟ ربما جاءتها برقية تدعوها إلى رؤية قريب مريض"، فقالت: "لقد تركت رسالة تقول فيها إنها هربت. مع من تظنين أنها هربت؟ إنها لم تهرب طبعاً مع السيد فين العبوس على الرغم من أنه يكاد يلتهمها بعينيه"، فسألتها قائلة: "أتظنين أنها هربت مع الكابتن؟"، فأجابت قائلة: "إنني أقسم على ذلك، ما لم تكُن قد هربت مع ذلك الرجل الغامض صاحب السيارة الأنيقة".

وسكتت أديث باغيت مرة أخرى قبل أن تسترسل في قصّتها قائلة: كان ذلك في أول الأمر، ولكن بعد قليل كنت نائمة عندما هزتني ليلي بخشونة وقالت لي: "اسمعي، إن هذا غير معقول"، فسألتها عمّا تعنيه فأجابت قائلة: "لقد فحصت ثيابها كما طلب الدكتور منّي، لكنني لم أجد الحقيبة الصغيرة وحقيبة السفر، وكذلك ما يكفي لملئهما من ثياب، ولكنها لم تأخذ من الثياب ما ينبغي أن تأخذه منها، فقد أخذت الثوب الحريري الرمادي والفضّي وتركت الحزام الذي يجب أن تلبسه معه، وكذلك لم تأخذ أيّ حذاء من الأحذية التي لا غنى لها عنها بل أخذت الحذاء الرياضي الخفيف، كما أخذت الثوب الأخضر مع أنها لم تعُد تلبسه. والأكثر من ذلك أنها لم تأخذ المعطف الجميل الذي تحبه كل الحب. ثم

إنها أساءت اختيار الثياب الداخلية فأخذت القديم المستهلَك منها وتركت الجديد. افهمي جيداً ما أقوله لك، إنها لم تبرح البيت إطلاقاً. لقد قتلها زوجها".

ورمت أديث باغيت غويندا بنظرة يشوبها القلق قبل أن تستطرد قائلة: وعندئذ كنت قد استيقظت تماماً فجلست في فراشي وسألتها عما تعنيه فأجابت قائلة: "لقد اكتشف السيد أنها تخونه فقتلها ودفنها في القبو، وأنت لم تسمعي شيئاً لأن القبو في أسفل البيت وبعيد عن المطبخ، ولكنني أؤكد لك أن الأمور وقعت كما أقول، ثم دسّ بعض الثياب في الحقيبتين كي يبدو أنها هربت، ولكنها مدفونة في القبو وليست في أي مكان آخر. صدّقيني، إنها لم تبرح البيت"، فعنّفت ليلي وصارحتها برأيي فيها، ولكنني أعترف بأنني نزلت في صباح اليوم التالي إلى القبو فوجدته كما هو وليس فيه أيّ أثر للحفر، ثم صعدت فقلت لليلي بأن كل ما ذكرته لي إنما هو من بنات أفكارها، ولكنها ظلت على رأيتها ولم تتزحزح عنه ثم قالت: "إن الميجور قتل زوجته، ولا تنسَي أنها كانت تخاف منه، وقد سمعتها تقول له ذلك و..."، فقاطعتها على الفور وقلت لها: إنك مخطئة لأن السيدة هاليداي لم تكُن تخاطب زوجها في ذلك اليوم لأنك بعد أن ذكرت لي هذه القصة ألقيت نظرة من النافذة فرأيت الميجور ينزل من المنحدر ومعه مضارب الغولف. لم يكُن هو الذي دخل غرفة الاستقبال من النافذة في ذلك اليوم، وإنما كان رجلاً آخر.

وبدا كأن تلك العبارة الأخيرة راحت تتردّد في جوانب الغرفة في حين أخذ غايلز يقول بصوت خافت: كان رجلاً آخر؟!

* * *

الفصل الخامس عشر

عنوان

كان فندق رويال كلارنس أقدم فندق بالبلدة، ولكن على الرغم من قِدمه وشيخوخته فقد كان المصطافون يؤمّونه كل عام لقضاء شهر على شاطئ البحر. وكانت السيدة ناراكوت، موظفة الاستقبال، في السابعة والأربعين من عمرها، وكانت تمشط شعرها على الطراز القديم. انبسطت أساريرها عندما وقعت عيناها على غايلز وأدركت على الفور أنه من أكارم الناس، وذكر لها الشاب بصوته الرقيق المقنع القصة التي جاءها من أجلها، فقال إنه وقع بينه وبين زوجته جدل كبير، فهي تزعم أن جدّتها نزلت بفندق رويال كلارنس منذ ثمانية عشر عاماً، وإنه لا يمكن إثبات ذلك على الإطلاق لأنه من الواضح أن إدارة الفندق قد تخلصت من سجلاتها القديمة، وإنه خالفها في هذا الرأي قائلاً إن فندقاً كبيراً كهذا الفندق لا بدّ أن يحتفظ بسجلاته حتى ولو بعد مئة سنة.

ضحكت السيدة ناراكوت وقالت: لا يا سيد ريد، هذا غير صحيح، فإننا لا نحتفظ بسجلاتنا القديمة، ولكننا نحتفظ بما ندعوه كتاب النزلاء، ومسجّل فيه توقيع الشخصيات الشهيرة من كتّاب وفنيين، بل وتوقيعات بعض أفراد الأُسر المالكة.

وتصرّف غايلز كما يجب، فتظاهر بالاهتمام والتقدير بحيث إنها لم تبدِ اعتراضاً في إحضار كتاب النزلاء الخاص بالعام المذكور، وراح يقلب صفحاته إلى أن عثر على ما يريد، فقرأ في إحدى الصفحات ما يلي: «الميجور ستون أرسكين وزوجته، قصر أنستيل بمدينة دايث بنورثمبرلاند. من السابع والعشرين من شهر يوليو حتى السابع عشر من شهر أغسطس».

نظر غايلز إلى السيدة ناراكوت ثم قال يستأذنها: هل أستطيع أن أنقل هذا؟

- بكل تأكيد يا سيد ريد.

* * *

عندما عاد غايلز إلى هيلسايد وجد غويندا في الحديقة منحنية فوق بعض الأزهار، فاعتدلت في وقفتها ونظرت إليه مستفهمة ثم قالت: هل عثرت على شيء؟

- نعم، أظن أن هذا هو ما نبحث عنه.

ألقت المرأة الشابة نظرة على الورقة التي أعطاها لها ثم تمتمت قائلة: دايث! نعم، إن أديث قالت لنا إنه تكلم عن نورثمبرلاند في الواقع. ولكن هل ما زال موجوداً في تلك المنطقة؟

- سوف ننتقل إلى هناك ونتأكد من ذلك.

- هذا أفضل الحلول. متى؟

- بأسرع ما يمكن. هل تريدين غداً؟ سنذهب بالسيارة، وبهذا يمكنك أن تشاهدي ناحية أخرى من إنكلترا.

- وماذا إن كان قد مات أو انتقل إلى مكان آخر؟

فهزّ غايلز كتفيه وقال: عندئذ سنعرف ذلك ونبحث عن أثر غيره. بالمناسبة، لقد كتبت إلى كيندي أسأله إذا كان من الممكن أن يأتينا بالخطابين اللذين أرسلتهما هيلين إليه بعد رحيلها ونموذج من خطّها، ولكن من الجائز أن لا يكون قد احتفظ بهما.

- أما أنا فإنني أتمنى أن أهتدي إلى أثر الخادمة ليلي التي وضعت شريطاً حول عنق القط. تُرى ماذا حدث لها؟ يبدو أن أديث لا تعرف عنها شيئاً مطلقاً، فهي ليست من أهالي المنطقة، ثم إنها غادرت البلدة بعد الذي حدث في فيلا سانت كاترين، وقد راسلت أديث مرة أو مرتين، وسمعت أديث أنها تزوجت ولكنها لا تعرف ممن تزوجت، ولو أستطيع الاهتداء إليها فإنه يمكننا أن نعرف منها الكثير.

- وماذا عن المربية ليوني؟

- ربما، ولكنها أجنبية كما تعلم. ويبدو أنها لم تفهم الموقف جيداً، كما أنني لا أتذكرها على الإطلاق. لا، أظن أن ليلي هي التي ستفيدنا كثيراً، فهي فتاة ماكرة وكثيرة الدهاء كما قالت أديث. ما رأيك في أن ننشر إعلاناً كي نجدها؟ كان اسمها أبوت، ليلي أبوت.

- حسناً، إنك على حق. يمكننا أن نحاول، وسننتقل غداً إلى نورثمبرلاند بحثاً عن الميجور أرسكين على كل حال.

* * *

الفصل السادس عشر

الأم والابن

قالت السيدة فين تخاطب كلباً ضخماً تلمع عيناه بالشراهة والفهم: الزم الهدوء يا هنري، تفضّلي كعكة يا آنسة ماربل.

- شكراً لك. إنه كعك لذيذ، ولا ريب أن لديك طاهية ممتازة.

- إن لويز لا بأس بها على الرغم من أنها مهملة كأغلب الخدم. بالمناسبة، كيف حال دوروتي يارد؟ لقد كانت كثيرة الشكوى من أعصابها.

فأسرعت الآنسة ماربل تمدّها بما تعانيه صديقتهما المشترَكة بسبب صحّتها، وخطر لها أنها محظوظة حقاً حين وجدت بين أصدقائها وأقربائها المتفرقين في أنحاء إنكلترا شخصاً يعرف السيدة فين، وقد تطوّع ذلك الشخص فكتب للسيدة فين يخبرها بوجود العانس العجوز في ديلموث ويرجوها أن تدعوها إلى زيارتها ذات يوم.

كانت إليانور فين امرأة متقدمة في السن، مهيبة الطلعة ذات عينين سمراوين صلبتين وشعر أبيض مجعد ووجه متورّد. وبعد

أن فرغتا من الحديث عن صحّة دوروتي تحدثتا عن صحّة الآنسة ماربل وجوّ ديلموث المنعش، ثم تشعّب بهما الحديث فانتقلا إلى الجيل الجديد وخموله. قالت السيدة فين بلهجة قاطعة: إن أبناء هذا الجيل يلاقون تدليلاً كبيراً وهم في سنّ الطفولة، أما أنا فلم أدلل أولادي قط.

- إن لك أبناء كثيرين، أليس كذلك؟

- ثلاثة. الأكبر جيرارد وهو في سنغافورة ويعمل في مصرف الشرق الأقصى، والأوسط روبرت وهو في الجيش ومتزوج، وهذان الابنان قلّما تأتيني أخبارهما. إن الجيل الجديد أنانيّ جداً.

- وأظن أن أصغر أبنائك لم يتزوج بعد، أليس كذلك؟

فانبسطت أسارير السيدة فين ثم قالت: بلى، إن والتر بقي في البيت. لقد كانت صحّته ضعيفة طَوال حياته، فاضطُررت إلى أن أشمله برعايتي دائماً. سترينه بعد لحظة، ولا أستطيع أن أصف لك مبلغ إخلاصه لي. إنني أشعر وهو معي بأنني أسعد الأمهات.

- ألم يفكر في الزواج؟

- إنه يقول دائماً إنه لا يستطيع الاهتمام بالفتيات العصريات، وهو لا يشعر بأيّ ميل إليهن. إن بيننا أشياء كثيرة مشتركة، منها أنه لا يغادر البيت تقريباً، وفي المساء يقرأ لي بضع صفحات من الكتب المفضلة لديّ، ثم نشترك معاً في لعب الأوراق بعد ذلك. إنه رجل بيت حقاً.

- لا ريب أن هذا الأمر يسرّك كثيراً. هل أقام هنا دائماً؟ لقد سمعت أن لك ابناً رحل إلى الهند للعمل بمزارع الشاي، ولكن لا

ريب أن هذا النبأ غير صحيح.

فقطبت السيدة فين حاجبَيها وقدمت كعكة أخرى للآنسة ماربل ثم قالت: إنه كان شاباً في مقتبل العمر وللشباب نزعاته، فالواحد منهم يشعر دائماً بالرغبة في رؤية العالَم. ويجب أن أعترف أنه كانت توجد فتاة وراء كل هذا. إن الفتيات بغيضات أحياناً.

- هذا صحيح، فأنا أتذكر أن ابن أختي...

ولكن السيدة فين أسرعت تقول دون أن تبدي أيّ اهتمام بابن أخت الآنسة ماربل: كانت فتاة لا تناسبه كما يحدث غالباً. لا أقول إنها كانت ممثلة أو شيئاً من هذا القبيل، والواقع أنها كانت أخت الطبيب، ثم إنها كانت أصغر منه بكثير حيث كانت تبدو كما لو كانت ابنته. لم يكُن المسكين يعرف شيئاً عن الطريقة التي تربّت عليها، فإن الرجال مجردون من ميزة العقل تماماً، أليس كذلك؟ وقد بدأت حقيقتها تظهر وتورّطت مع كاتب بسيط في مكتب زوجي، وكان شاباً فاسد الأخلاق اضطررنا إلى أن نطرده.

ثم نظرت إلى الآنسة ماربل وقالت: يجب أن يكون كل هذا سرّاً بيننا طبعاً. كانوا يقولون إنها جميلة، أما أنا فلم أجدها جميلة على الإطلاق، ولكن والتر المسكين وقع في هواها إلى حدّ الجنون، وكما سبق أن قلت لم تكُن من ذلك النوع الذي يناسبه، لا مال ولا جمال ولا أية آمال، ولكن ما الذي تستطيع الأم أن تفعله؟ طلب والتر يدها غير أنها رفضت، وعندئذ خطرت له تلك الفكرة الخرقاء، وهي أن يرحل إلى الهند كي يصبح مزارعاً. وقال لي زوجي: "دعيه يفعل ما يريد"، وذلك على الرغم مما شعر به من خيبة أمل لأنه كان يريد أن يخلفه والتر في المكتب، ولكن الأمور تقع على غير ما نشتهي دائماً، وما أكثر الضرر الذي يتسبب فيه

هذا النوع من الفتيات.

- هذا صحيح، وقد كان ابن أختي...

وللمرة الثانية أقصت السيدة فين ابن الأخت من الحديث بغير رفق وقالت: وهكذا رحل الابن العزيز إلى الهند، وكنت شديدة القلق لأن صحّته ضعيفة لا تحتمل الجوّ هناك، ولم تمضِ عليه هناك سنة حتى غيّرت تلك الصبية الوقحة رأيها وكتبت لَه تقول إنها مستعدّة كي تتزوجه.

فقالت الآنسة ماربل وهي تهزّ رأسها وترسم الدهشة على وجهها: يا إلهي! إلى هذا الحدّ؟

- ثم ركبت البحر كي تمضي إليه. ولكن ماذا تظنين قد حدث بعد ذلك؟

قالت الآنسة ماربل وهي تنحني إلى الأمام وتتظاهر بالاهتمام: لا أستطيع أن أخمن.

- لقد ارتبطت بعلاقة مع رجل متزوّج على نفس الباخرة التي أقلّتها إلى الهند، رجل متزوج وله ثلاثة أولاد كما سمعت. وكان والتر في انتظارها على الرصيف طبعاً، وأول شيء قابلته به هو أن قالت له إنها لا تستطيع الزواج به. أليس هذا أمراً فظيعاً؟

- لا شك في ذلك. إن ذلك التصرف كان جديراً بأن يحمل ابنك على عدم الثقة بالجنس البشري كلّه.

- كان يجب أن يرى تلك الفتاة على حقيقتها حقاً، ولكن هذا النوع من النساء يعرف كيف يتصرف دائماً.

فسألتها الآنسة ماربل بشيء من التردد: ولكن ألم يغضبه

مسلكها هذا؟

- إن والتر يعرف كيف يحتفظ بهدوئه دائماً مهما بلغ ألمه. إنه يعرف كيف يسيطر على مشاعره بحيث لا يبدو عليه أي شيء أبداً.

فتأملت العانس العجوز السيدة فين بشيء من التفكير قبل أن تقول: ربما رجع هذا إلى أن الأطفال يحتفظون بالأشياء في أعمق أعماقهم، ومع ذلك فطالما دهشنا من ردود الفعل عندهم، فيحدث أن يثور أحدهم فجأة على غير انتظار، كما يحدث أن طبيعة شديدة الحساسية لا تستطيع التعبير عما يجيش في نفسها حتى اللحظة التي يطفح فيها الكيل.

- من العجيب أن تقولي هذا! إنني أتذكر أن غيرارد وروبرت كانا يحتدّان ويثوران لأتفه الأسباب، وهذا أمر طبيعي عند أطفال يتمتعون بكامل صحّتهم، وكان هذا العزيز والتر هادئاً جداً وصبوراً، ولكنني أتذكر الآن حادثاً بالذات. كان والتر ماهراً بيديه، وكان قد فرغ من بناء نموذج مصغّر لطائرة، ولكن روبرت تجرّأ وأخذ الطائرة فحطمها. ودخلت إلى غرفتهما على أثر ذلك وإذا بي أرى روبرت طريحاً فوق الأرض ووالتر يمسك في يده قضيب النار، وكان قد ضربه به مرة وهمّ بأن يضربه أخرى. وأعترف أنني وجدت مشقة كبيرة في أن أمنعه من أن يضرب أخاه مرة ثانية، وكان يقول: "إنه فعل ذلك عامداً، وسأقتله"، وكنت شديدة الفزع. إن الأولاد يحسّون أحياناً بمشاعر عنيفة، أليس كذلك؟

فتمتمت الآنسة ماربل بتفكير قائلة: هذه هي عين الحقيقة.

ثم عادت إلى الموضوع الأصلي فقالت: إذن فقد فسخ خطبته مع تلك المرأة نهائياً، وماذا حدث لها بعد ذلك؟

- عادت إلى إنكلترا ودبّرت أمرها على سطح المركب كي ترتبط بعلاقة أخرى مع رجل آخر، ولكنها تزوجت ذلك الرجل في تلك المرة، وكان أرملاً وله طفلة، وكان قد فقد زوجته حديثاً، وكما ترَين، كان فريسة سهلة فتزوجته وأقامت معه في الناحية الأخرى من المدينة على مقربة من المستشفى. ولم يدُم الزواج طبعاً، فبعد سنة واحدة هجرته كي تهرب مع رجل آخر.

فقالت الآنسة ماربل وهي تتظاهر بالاستياء: يا إلهي! لقد نجا ابنك بأعجوبة.

- هذا ما أقوله دائماً.

- وهل هجر عمله كمزارع بسبب صحّته؟

فقطب السيدة فين جبينها ثم قالت: لم تطِب له الحياة هناك، فعاد بعد ستة شهور من عودة الفتاة.

- لو أن المقام استقرّ بها هنا في هذه المدينة لكان أمراً مزعجاً شيئاً ما.

- إن والتر شاب فذّ، وقد تصرف كما لو أن شيئاً لم يحدث إطلاقاً. كنت أعتقد وقد صارحته بذلك في ذلك الوقت أنه من الأصوَب أن يقطع علاقته بها لأن الشائعات يمكن أن تضايقهما معاً، ولكن والتر أصرّ على أن تبقى العلاقات بينهما ودّية، فكان يمضي إلى فيلا سانت كاترين بطريقة عادية ويلاعب الطفلة، ومن الغريب أن تلك الطفلة بعد أن أصبحت امرأة أتت للإقامة هنا هي وزوجها. وقد ذهبت منذ أيام إلى المكتب كي تحرّر وصية، ويا لها من مصادفة عجيبة! إنها تُدعى السيدة ريد الآن.

- السيد والسيدة ريد؟ إنني أعرفهما. إنهما زوجان ظريفان،

وحين يخطر لي أن السيدة ريد هي تلك الطفلة التي...

- نعم، ابنة الزوجة الأولى للميجور هاليداي. يا للرجل المسكين! لقد تحطم تماماً عندما هجرته تلك المرأة البلهاء، وإنه لمن الغريب أن تفلح أسوأ الفتيات في استمالة الرجال إليهم. هذا سرّ لا أستطيع أن أفهمه.

- وذلك الشاب الذي تورّطت معه، ذلك الكاتب الذي كان يعمل مع زوجك، ماذا حدث له؟

- جاكي أفليك؟ لقد شقّ طريقه، وهو يدير الآن شركة للرحلات المنتظمة تُعرف باسم شركة سيارات دافوديك، وسيارته مدهونة باللون الأصفر الفاقع. إننا نعيش حقاً في دنيا كلّها خشونة وفظاظة.

- أتقولين إن اسمه أفليك؟

- نعم، وهو رجل وصوليّ مصمّم على أن يمضي إلى الأمام، ولا ريب أنه أراد أن يلقي شبَاكه على هيلين كيندي لهذا السبب. ومما لا شك فيه أنه خطر له أن ارتباطه بها سيحسّن مركزه الاجتماعي نظراً لأنها أخت الطبيب.

- ألم تعُد هيلين إلى ديلموث بعد ذلك؟

- لم تعُد قط. ولا ريب أنها انتهت أسوأ نهاية، وإنني حزينة من أجل الدكتور كيندي، فليس الذنب ذنبه طبعاً، فإن الزوجة الثانية لأبيه كانت امرأة طائشة، ولا ريب أن هيلين ورثت عنها خصالها.

ثم أمسكت السيدة فين كي تقول: ها هو والتر.

كانت أذنها كأم قد تبيّنت بعض الخطوات المألوفة، وفعلاً انفتح الباب ودخل والتر فين، فقامت السيدة فين بواجب التعارف ثم خاطبت ابنها قائلة: هل لك أن تضغط على الجرس كي تأتيك الخادمة بالشاي؟

- لا تزعجي نفسك يا أمي، فقد تناولت الشاي قبل أن آتي.

- ولكننا سنتناوله مرة أخرى كلّنا الآن.

وكانت الخادمة قد أتت في تلك اللحظة بالذات كي تحمل الأقداح الفارغة، فقالت لها السيدة فين: بياتريس، هل لك أن تأتينا بالشاي مرة ثانية؟

- حسناً يا سيدتي.

جلس والتر فين ثم قال برفق: إن أمي تدللني كثيراً.

وكانت العانس العجوز تراقبه وهي تنطق بردّ عاديّ. كان رجلاً هادئ المنطق وديعاً يفتقر إلى الثقة في نفسه، وكان شخصية مغلقة ومن طراز الرجل المخلص الذي لا تبدي المرأة أي اهتمام به ولا تتزوّجه إلا إذا صدّها الرجل الذي تحبه. والتر الموجود دائماً، ابن أمه العزيز، والتر الذي ضرب أخاه بمحرّك النار وقال إنه يريد أن يقتله. فكّرت الآنسة ماربل في كل هذا ثم تلاحقت أسئلة كثيرة إلى ذهنها.

* * *

الفصل السابع عشر
ريتشارد أرسكين

كان قصر أنستيل مانور كئيب المنظر أبيض اللون يقوم على سفح تلّ معتم ويؤدي إليه طريق معوجّ يخترق أرضاً تغطيها الأعشاب الكثيفة. قال غايلز لغويندا: لماذا أتينا؟ وماذا نقول؟

- سبق أن تكلّمنا في هذا.

- أجل، ولكن إلى نقطة معيّنة. لحسن الحظ أن ابن خالة الآنسة ماربل يقيم في المنطقة، وسنتخذ ذلك ذريعة كي نتقدّم إلى أصحاب القصر، وإن كانت ليست بسبب كافٍ كي نستجوب مضيفنا عن حبه القديم.

- هذا فضلاً عن أن تلك القصة قديمة جداً، ومن الجائز أن يكون قد نسيها تماماً.

- هذا جائز، ثم إنه ربما لم تكُن توجد أية مغامرة غرامية على الإطلاق.

- غايلز، ألا تبدو مضحكاً حقاً؟

- لا أدري، يخامرني هذا الإحساس أحياناً. إنني لا أفهم لماذا نهتمّ بكل ذلك. ما أهمية كل هذا الآن؟

– إن الآنسة ماربل والدكتور كيندي نصحانا بالتخلي عن تلك القصة القديمة، فلماذا لم نفعل يا غايلز؟ هل هذا بسببها هي؟

– هي؟ من تعنين؟

– أعني هيلين. أتراني أتذكّر بسببها هي؟ هل تكون ذكريات طفولتي هي الرابطة الوحيدة التي تربطني بحياتها وبالحقيقة؟ هل تستخدمني هيلين وتستخدمك كي تظهر الحقيقة؟

– أتقصدين لأنها ماتت مقتولة؟

– نعم. يقال إن بعض الكتب تقول على كل حال إن القتلى لا يمكن أن يجدوا الراحة في قبورهم.

– أظن أنك تختلقين أوهاماً يا عزيزتي غويندا.

– ربما. مهما يكُن فما زال أمامنا الخيار، ويمكننا أن نقوم بزيارة ودّية مجاملة، ولسنا بحاجة إلى أن نضيف إليها شيئاً آخر إلا إذا كنا نريد ذلك حقاً.

فهزّ غايلز رأسه ثم قال: يجب أن نستمرّ، لا يمكننا أن نتوقف الآن.

– أجل، أظن أنك على صواب، ومع ذلك فإنني أشعر بشيء من الخوف.

* * *

قال الميجور أرسكين: إذن فأنتما تبحثان عن بيت.

وبسط لغويندا طبقاً من الشطائر فأخذت المرأة الشابة شطيرة وهي ترفع عينيها إلى مضيفهما. كان ريتشارد أرسكين قصير القامة أبيض الشعر له عينان مرهقتان وصوت خفيض رقيق، ولم يكُن فيه

ما يميزه، ومع ذلك فإن غويندا وجدته جذاباً. والواقع أنه لم يكُن وسيماً كوالتر فين، ولكن في حين كانت أغلب النساء تمرّ بهذا الأخير دون أن تلقي إليه أية نظرة فإنهن كن يهتممن بأرسكين كل الاهتمام. لقد كان فين ضعيف الشخصية في حين كان أرسكين قوي الشخصية على الرغم من هدوئه العادي. لا عجب أن وقعت هيلين كيندي في غرام مثل ذلك الرجل منذ ثمانية عشر عاماً.

وبينما هي ترفع عينيها التقت بعينَي السيدة أرسكين فاحمرّ وجهها على غير إرادة منها. كانت السيدة أرسكين تتحدث مع غايلز ولكنها كانت تراقب غويندا من طرف خفيّ، وكان في عينيها ظلّ من الشك. كانت امرأة طويلة القامة ذات صوت خفيض هي الأخرى متينة الجسم، ترتدي ثياباً من التويد لها جيوب واسعة وقد بدت أكبر سناً من زوجها. ولكن غويندا كانت واثقة أن هذا مظهر خادع، فقد كان في وجهها شيء من الحيرة، فحدّثت غويندا نفسها وقالت: إنها غَيْرى تعيسة. وبينما كانت تتابع حديثها مع الميجور أرسكين كانت تفكر وتقول: إنني واثقة أنها تحيل حياته جحيماً.

وكانت في تلك اللحظة تقول لمضيفيهما: إن البحث عن بيت في هذه الأيام شيء صعب جداً، فإن الأوصاف التي يذكرها لنا السماسرة أوصاف عجيبة، ولكن عندما نذهب إلى المكان المذكور نجد المبنى فظيعاً جداً.

- هل تفكرين في الاستقرار في هذه المنطقة؟

- الحق أنه أحد الأماكن التي فكرنا فيها، فإنني لا أفضّل مكاناً بالذات، فأنا من نيوزيلندا ولا أقرباء لي هنا، وقد قضى غايلز كل إجازاته عند أقربائه العديدين ولا تربطه رابطة بأي مكان، والشيء الوحيد الذي نصبو إليه هو أن نبتعد عن لندن بقدر المستطاع لأننا

نعشق الإقامة في الريف.

فابتسم أرسكين وقال: ستجدان ريف إنكلترا الحقيقي هنا، والواقع أننا هنا في عزلة تامة، فإن جيراننا قليلون وبعيدون بعضهم عن بعض.

وخُيل إلى غويندا أنها تتبين في صوته رنة من الحزن. أيام الشتاء القصيرة المعتمة بريحها التي تصفر في المدفأة، والأبواب المقفلة والستائر المسدلة، ولا جيران، وتلك المرأة الغيرى التعيسة، ثم اختفت الرؤية وظهر من جديد الصيف بنوافذه المفتوحة على الحديقة وأريج الزهور وزقزقة العصافير. ثم قالت غويندا: أهذا البيت قديم جداً؟

- نعم، إنه يرجع إلى عهد الملكة آن، وهو ملك لأسرتنا منذ ثلاثمئة سنة.

- إنه بيت جميل ويجب أن تكون فخوراً به.

- طبعاً، ولكنه ليس في حالة جيدة لسوء الحظ، فإن الضرائب كثيرة وفادحة بحيث لا نستطيع أن نتعهّده كما يجب، ولكن الأولاد قد التحقوا بوظائف وانزاح العبء الأكبر.

- كم ولداً لديك؟

- اثنان، أحدهما في الجيش والثاني فرغ من دراسته في أُكسفورد وسوف يلتحق بإحدى دُور النشر الكبيرة.

ثم حوّل عينيه إلى المدفأة فتابعت غويندا نظرته فرأت صورة لشابين في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من العمر التُقطت منذ بضع سنوات بالطبع، وكان في عينَي الأب نظرة حبّ وزهو كبيرين، ثم قال: إنهما شابان كريمان، ولك أن تصدّقيني على الرغم من أنني

أنا الذي أقول ذلك.

- إنهما يبدوان كما تقول حقاً.

فنظرت غويندا إليه مستفهمة فقال: أعني أنهما يستحقان التضحية التي تجعلك تضطرّين إلى التخلي عن بعض الأشياء أحياناً.

- بل عن أشياء كثيرة.

ومن جديد أحسّت المرأة فيه حزناً يحاول أن يخفيه، ولكن السيدة أرسكين تدخلت فقالت بصوتها القوي: هل تبحثين حقاً عن بيت في هذا الجزء من العالَم؟ أظن أنه لا يوجد في هذه النواحي ما يمكن أن يناسبك.

فقالت غويندا في سرّها: وحتى إذا كنت تعرفين مكاناً ما أيتها العجوز فإنك لن تقولي لي ذلك. إن هذه المرأة الغبية تحس بالغيرة لأنني أتحدّث إلى زوجها ولأنني شابة جذابة.

قال أرسكين: إن كل شيء متوقف عليكما طبعاً، إذا كنتما على عجل أم لا.

فقال غايلز بلهجة مرحة: لسنا متعجّلين حقاً، فإننا نريد أن نعثر على شيء يروقنا. إننا نقيم حالياً في بيت في ديلموث، على الساحل الجنوبي.

وقف الميجور أرسكين ومضى كي يأتي بلفافات التبغ من فوق الطاولة بجوار النافذة في حين قالت السيدة أرسكين: ديلموث؟

وكان صوتها خالياً من كل تعبير، ولكنها كانت تنظر إلى زوجها باهتمام كبير. وقال غايلز: إنها مدينة صغيرة جميلة. هل تعرفينها؟

وسادت لحظة صمت ثم تكلمت السيدة أرسكين فقالت: لقد قضينا فيها بضعة أسابيع ذات صيف منذ وقت طويل، ولكننا لم نحب ذلك المكان قط فالجوّ فيه غير جميل.

فقالت غويندا: وهذا رأينا نحن أيضاً، وهذا هو السبب في أننا نبحث عن مكان آخر.

وعاد أرسكين ومعه لفافات التبغ وقدم الصندوق إلى المرأة الشابة وهو يقول: ستجدين الطقس الجميل في منطقتنا.

ونطق بتلك العبارة بصوت أجش، ورفعت غويندا عينيها إليه في حين كان يقدّم لها شعلة عود ثقاب، وسألته بصوت عاديّ: هل تتذكر ديلموث؟

فعضّ أرسكين شفته كما لو أحسّ بألم مفاجئ ثم قال: إنني أتذكرها جيداً. لقد أقمنا هناك في فندق رويال جورج، أو بالأحرى رويال كلارنس.

- إنه أقدم فندق في المدينة، وبيتنا يقع على مقربة منه ويُعرف باسم هيلسايد، وكان معروفاً قبل ذلك باسم سانت ماري، أليس كذلك يا غايلز؟

فقال زوجها مصححاً: بل سانت كاترين.

وفي تلك المرة لم يكُن يوجد أيّ شك في التغيير الذي طرأ، فقد أشاح أرسكين بوجهه فجأة في حين ارتطم الفنجان الذي في يد زوجته بالطبق بصوت مسموع، وأسرعت السيدة أرسكين تقول: لعلكما تريدان مشاهدة الحديقة.

- كما تريدين.

وخرجا من باب الشرفة، وكانت الحديقة جميلة نظيفة

وممراتها متناسقة والأزهار تحيط بها، فأدركت غويندا أن الفضل يرجع إلى الميجور أرسكين الذي راح يتحدث بحماسة عن الزهور والنباتات، فقد كانت الحديقة تسليته في وقت فراغه فعلاً.

وبعد بضع لحظات في حين كان الزائران ينطلقان بسيارتهما قال غايلز بتردّد: هل أوقعته؟

- نعم، بجوار حوض الدلفينيون.

وتأملت غويندا بنصر يدها اليسرى وراحت تدير خاتمها بشرود، فقال لها غايلز: وإذا لم تجديه؟

- لا يهمّ؛ فإنه خاتم آخر غير خاتم الخطبة، فما كنت لأرضى أن يضيع خاتم خطبتي.

فقال غايلز: تُرى ماذا تفعل صديقتنا العجوز الآن؟ لا ريب أنها جالسة تحت الشمس مستغرقة في الأحلام.

- بل أظنها تتطفّل وتفتش في كل مكان، وأرجو أن لا تبالغ ذات يوم في مثل هذه الأمور.

- إن الفضول أمر طبيعي عند كل امرأة مسنّة، ولا يهتمّ أحد بذلك، على عكسنا نحن إذا ما حاولنا إلقاء عدد من الأسئلة العشوائية.

استعاد غايلز وقاره ثم قال: ولهذا لا يروقني أن تذهبي لتستجوبي الناس هكذا. لا أستطيع أن أحتمل فكرة البقاء هادئاً والانتظار في حين تقومين أنت بهذا العمل القذر.

لمست غويندا خدّ زوجها برفق ثم قالت: إنني أعرف يا عزيزي، ولكن يجب أن تعترف أنه ليس من الكياسة ولا اللياقة

أن يستجوب رجل رجلاً في شؤونه القلبية. لا يمكن أن يقوم بهذا العمل إلا امرأة تكون على قدر ضئيل من الذكاء واللباقة.

– إنني لم أشك في ذكائك ولا في حذقك قطّ، ولكن إذا كان أرسكين هو الرجل الذي نبحث عنه...

فقالت غويندا بتفكير: لا أظن أنه هو.

– هل تعنين أننا تتبعنا أثراً خاطئاً؟

– ليس تماماً، إنني أعتقد أنه كان متيماً بهيلين، ولكنه شاب ظريف يا غايلز ورقيق جداً، وليس من ذلك النوع الذي يخنق امرأة.

– لا تتسرّعي في الحُكم. إنك لم تعاشري أغراباً كثيرين حتى الآن.

– هذا صحيح، ولكن لي غريزتي كامرأة، وهي لا تخدعني.

– أظن أن هذا هو ما تقوله أغلب الضحايا لمثل ذلك الرجل. لا يا غويندا، وأرجوك أن تتوخي الحذر.

– أعدُك بذلك، ولكنني أرثى حقاً لذلك الرجل ومعه مثل تلك المرأة الشرسة. إنني واثقة أنه كان تعِساً جداً في حياته.

– أعترف بأنها امرأة غريبة الأطوار وأنها تثير القلق شيئاً ما.

– بل إنها امرأة كئيبة جداً. هل رأيت كيف كانت تنظر إليّ وأنا أتحدث إلى زوجها؟

– أرجو أن تفلح الخطة.

* * *

تم تنفيذ الخطة المرسومة في اليوم التالي، وأحس غايلز بأنه كالمخبر الرديء الذي يتولى قضية طلاق، فقد أخذ مكانه في موقع يشرف منه على بوابة قصر أنستيل مانور، وفي نحو الساعة الحادية عشرة أسرع إلى غويندا وأخبرها بأن كل شيء على ما يرام، فقد خرجت السيدة أرسكين في سيارتها الصغيرة ذاهبة إلى السوق في القرية المجاورة، وقد ابتعدت نحو ثلاثة أميال وأصبح الطريق حرّاً.

اتجهت غويندا إلى القصر على الفور فأوقفت سيارتها أمام البوابة ثم نزلت منها فقرعت الجرس وسألت عن السيدة أرسكين، فقيل لها إنها خرجت فطلبت الميجور أرسكين، وقد وجدته في الحديقة منحنياً فوق أحد أحواض الزهور، وعندما رآها اقتربت منه اعتدل في وقفته فابتدرته قائلة: إنني آسفة، ولكن أظن أن خاتمي ضاع مني أمس. لقد كان في إصبعي ونحن نتناول الشاي وعندما خرجنا إلى الحديقة، وإنه ليحزنني أن لا أجده لأنه خاتم الخطبة، وهو واسع على إصبعي قليلاً.

ثم أخذا يبحثان عنه، وسارت غويندا في الطريق الذي سارت فيه أمس وهي تحاول أن تتذكر الأماكن التي توقفت فيها والأزهار التي لمستها. وطبعاً عثرا على الخاتم بجوار أحد الأحواض في نفس المكان الذي أوقعته فيه في اليوم السابق، وتظاهرت بالارتياح. وعندئذ سألها أرسكين قائلاً: هل أستطيع أن أقدّم لك كأساً من العصير الآن يا سيدة ريد أم تفضلين فنجاناً من القهوة؟

- أكون شاكرة إذا تكرّمت بفنجان قهوة.

جلست بعد قليل فوق مقعد خشبيّ وجلس أرسكين بجوارها وراحا يحتسيان القهوة بضع لحظات في صمت. وأحسّت غويندا

بقلبها تشتدّ دقاته، ولكنها لم تجد غير طريقة واحدة لبلوغ الهدف، كان يجب أن تقدِم على الخطوة التالية دون تردد، فقالت: أريد أن أسألك شيئاً يا ميجور أرسكين، ولا ريب أنك ستحسبني فضولية ولكنني أريد أن أعرف، وأنت بالطبع الشخص الوحيد الذي في استطاعته إخباري لأنني أعتقد أنك أحببت زوجة أبي في وقت من الأوقات.

أدار أرسكين إليها وجهه الذي ارتسمت عليه أمارات الدهشة وقال: زوجة أبيك؟!

- نعم، هيلين كيندي التي أصبحت بعد ذلك السيدة هاليداي.

- لقد فهمت.

وبدا أرسكين هادئاً جداً وراح ينظر إلى الحديقة من غير أن يراها، ولكن على الرغم من هدوئه الظاهر أحسّت غويندا بأنه متوتر وشديد القلق، ثم تمتم أخيراً قائلاً كما لو كان يحدّث نفسه: الخطابات على ما أعتقد.

ولم تنطق غويندا بشيء فعاد يقول: إنني لم أبعث إليها بخطابات كثيرة، خطابين أو ثلاثة، وقد أكّدت لي أنها مزّقتها. ولكن النساء لا يمزقن الخطابات أبداً، أليس كذلك؟ وقد وقعت بين يديك وتريدين الآن معرفة...

- أريد أن أعرف عنها المزيد؛ فقد كنت أحبها على الرغم من أنني كنت صغيرة جداً عندما رحلت.

- رحلت؟!

حدجها أرسكين بدهشة وصراحة ثم قال: إنني لم أعرف عنها

شيئاً قط منذ ذلك الصيف الذي قضيناه في ديلموث.

- إذن أنت لا تعرف أين هي الآن؟

- وكيف أعرف ذلك؟ لقد كان ذلك منذ سنوات وانتهى كل شيء الآن وطواه النسيان.

- النسيان؟

وابتسم أرسكين ابتسامة صغيرة كلّها حزن ومرارة ثم قال: لعلّني لم أنسَ. إنك لشديدة الملاحظة يا سيدة ريد. ولكن حدّثيني عنها: إنها لم تمُت، أليس كذلك؟

قالت غويندا: لا أعرف هل هي حية أم ميتة، بل حسبتك تستطيع أن تخبرني بذلك.

هزّ رأسه ببطء فعادت غويندا تقول: لقد غادرت ديلموث ذات مساء منذ ذلك الصيف الذي نتكلّم عنه من غير أن تذكر كلمة لأحد، ولم تعُد بعد ذلك قط.

- وتظنين أنني ربما عرفت أنباءها، أليس كذلك؟

- بلى.

- لم تأتِني منها كلمة واحدة، ولكن أخاها الطبيب الذي يقيم في ديلموث لا بدّ أنه يعرف شيئاً، أو لعله مات هو الآخر؟

- بل ما زال على قيد الحياة، ولكنه لا يعرف شيئاً، فإن الجميع يعتقدون أنها هربت مع رجل آخر.

فحوّل أرسكين رأسه نحو المرأة الشابة فقرأت على وجهه حزناً كبيراً، ثم قال: هل خطر لهم أنها هربت معي؟

- كان هذا احتمالاً.

- لا أظن أن مثل هذا الاحتمال قد وقع بالفعل، ولكن ربما كنا من الجنون بحيث تركنا السعادة تفلت منّا من غير أن ننتهزها.

نظر أرسكين إلى غويندا من جديد ثم قال: أظن أنه من الأفضل أن أروي لك كل شيء لأنني لا أريد أن تسيئي الظن بهيلين أو أن تحكمي عليها حكماً خاطئاً. لقد التقينا لأول مرة على الباخرة التي أقلّتنا معاً إلى الهند. كان واحد من ولدَيّ قد أُصيب بالمرض فبقيت زوجتي معه في إنكلترا على أن تلحق بي بعد ذلك بسنة. وقد انتقلت هيلين إلى الهند كي تتزوّج رجلاً يعمل هناك، وهي لم تكُن تحبه ولكنه كان صديقاً قديماً ظريفاً رقيقاً، وكانت تتمنى أن تهجر بيتها لأنها لم تكُن سعيدة، وقد أحبّ كل منا الآخر.

وسكت لحظة ثم عاد يقول ببطء: ولكنني أحب أن تعرفي أنها لم تكُن مجرد مغامرة عابرة من تلك التي تقع عادة على ظهر الباخرة. كان الأمر أكثر جدّية، فقد كان كل منا مشغوفاً بالآخر وحائراً لا يجد مخرجاً، لأنه كان من المستحيل أن أهجر جانيت والولدين. وقد أدركَت هيلين ذلك مثلي تماماً، ولو كان الأمر يتعلق بزوجتي فحسب لهان الأمر، ولكن كان يوجد الولدان، ولم يكُن ثمة أيّ أمل فاتفقنا على أن يودّع كل منا الآخر وأن نحاول النسيان.

وراح يضحك ضحكة بدت زائفة ولم يكُن فيها أيّ مرح ثم قال: النسيان؟ لا، إنني لم أستطع أن أنسى على الإطلاق ولو لحظة واحدة. لقد كانت حياتي جحيماً لا يُطاق ولم يسَعني إلا أن أفكر في هيلين، غير أنها لم تتزوّج الرجل الذي سعت إليه، ففي آخر لحظة لم تستطع أن تقدِم على ما كانت تريد، ثم عادت إلى إنكلترا. وفي أثناء رحلة العودة التقت برجل آخر أظن أنه أبوك،

وبعد شهرين كتبت إليّ تخبرني بما فعلت. لقد كان الميجور هالياداي حزيناً بسبب موت زوجته وكانت معه طفلة في الثانية أو الثالثة من عمرها، وخطر لهيلين أنها تستطيع إسعاده وأن تبذل قصارى جهدها في سبيل ذلك. جاءتني رسالتها من ديلموث، وبعد نحو ثمانية شهور من ذلك مات أبي فعُدت للإقامة في إنكلترا بعد أن قدّمت استقالتي للجيش، وبعد ذلك خطر لنا أن نأخذ إجازة بضعة أسابيع قبل أن نستقرّ هنا، واقترحت زوجتي أن نمضي إلى ديلموث، وكانت إحدى صديقاتها قد وصفت لها جمالها وهدوءها. يمكنك أن تفهمي الإغراء الذي أحسست به، فقد أردت أن أرى الرجل الذي تزوجَته.

وسكت سكتة أخرى قصيرة ثم استطرد قائلاً: وأقمنا في فندق رويال كلارنس، وكانت تلك غلطة لأنني ما إن رأيت هيلين حتى بدأت أتعذّب. وكان يبدو أنها سعيدة عموماً، ولكنني لا أدري على وجه اليقين. لقد كانت تتحاشى أن توجد معي وحدها على كل حال، ولا أدري هل كانت لا تزال تحبني أم لا. ولعلها رضيت بالمقدور، ولكنني أعتقد أن جانيت اشتبهت في الأمر فهي امرأة شديدة الغيرة، وقد كانت كذلك دائماً، غَيرى إلى حدّ الجنون.

وتنهّد الميجور تنهيدة طويلة ثم قال: وهذا هو كل شيء، ثم رحلنا عن ديلموث.

فقالت غويندا تحدّد الميعاد: وكان ذلك اليوم السابع عشر من شهر أغسطس.

- ربما؛ لا أتذكر تماماً.

- وكان يوم سبت؟

- أجل، هذا صحيح؛ فإنني أذكر أن زوجتي قالت لي إن

الطرقات ستكون مزدحمة في اليوم التالي، ولكنني لا أظن أنه كان...

- أرجوك، حاول أن تتذكر في أية لحظة رأيت هيلين لآخر مرة.

ابتسم أرسكين ابتسامة رقيقة متعَبة ثم قال: لست بحاجة إلى أن أفكر لأن صورة هيلين الأخيرة ما زالت محفورة في مخيّلتي. لقد كان ذلك في مساء اليوم السابق لرحيلنا، على الشاطئ، وكنت قد مضيت إليه ولم يكُن به أحد، ورافقتها حتى بيتها وعبرنا الحديقة.

- وكم كانت الساعة حينئذ؟

- لا أدري بالضبط. أظن أنها كانت نحو التاسعة.

- وهل ودّع كل منكما الآخر؟

- نعم.

وابتسم ابتسامة أخرى حزينة ثم قال: ولكن ليس نوع الوداع الذي تفكرين فيه، فقد كان القرار مباغتاً ووجيزاً، واكتفت هيلين بأن قالت: "أرجو أن تذهب الآن. اذهب حالاً، فهذا أفضل"، وسكتت فجأة فلم يسعني إلا أن أنصرف.

- إلى الفندق؟

- نعم، ولكنني أخذت أتمشى في الريف أولاً دون هدف محدّد.

- من الصعب تحديد موعد مغادرتها المدينة بعد كل تلك السنين، ولكنني أعتقد أن هيلين غادرت المدينة في تلك الليلة

بالذات ولم تعُد بعد ذلك.

– ولما كنت قد غادرت ديلموث في اليوم التالي تصوّر الأهالي أنها هربت معي. إن عقلية الناس غريبة حقاً.

– ولكن ألم تهرب معك حقاً؟

– يا إلهي! إننا لم نفكر قط في شيء كهذا.

– إذا كان الأمر كذلك فلأيّ سبب تظنّ أنها رحلت؟

قطب أرسكين حاجبيه ثم قال: هذا هو السؤال الذي يجب أن نجد إجابة له. ألم تترك أيّ إيضاح؟

فكرت غويندا قبل أن تنطق في قرارة نفسها أن ما قاله أرسكين هو الحقيقة، ثم قالت: لا أظن أنها تركت أية رسالة. هل تعتقد أنها هربت مع أي شخص آخر؟

– بالطبع لا.

– يبدو أنك متأكد من ذلك تماماً.

– نعم، إنني كذلك.

– لماذا هربت إذن؟

– إذا كانت قد هربت هكذا فجأة فلا أستطيع أن أجد إلا تفسيراً واحداً، وهو أنها هربت منّي.

– منك أنت؟ وكيف ذلك؟

– لعلها خشيت أن أحاول مقابلتها أو مضايقتها بعد ذلك، ولا ريب أنها أدركت أنني ما زلت مجنوناً بها. نعم، لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك.

- ولكن هذا لا يفسر عدم عودتها بعد ذلك. قل لي، هل حدثتك عن أبي؟ هل حدث أن قالت لك مصادفة إنها تشعر بالقلق من أجله أو إنها تخاف منه أو من أي شيء آخر؟

- تخاف منه؟! ولكن لماذا؟ نعم، فهمت. أنت تظنين أنه ربما كان غيوراً. هل كان كذلك بطبعه؟

- لا أدري، فلم أكُن إلا طفلة عندما مات.

- أجل، هذا صحيح. فيما يتعلق به وجدته طبيعياً ودمث الأخلاق دائماً، ومن ناحية أخرى كان متعلقاً بهيلين جداً وفخوراً بها. لا، الواقع أنني أنا الذي كنت أغار منه.

- قلت لي منذ لحظة إنهما كانا يبدوان سعيدَين معاً، فهل هذا صحيح؟

- نعم، وقد اغتبطت لذلك من أجل هيلين، ولكنني تألمت في نفس الوقت. لا، إنها لم تحدّثني إطلاقاً، وكما قلت لك لم نكُن وحدنا قط ولم نتبادل الاعترافات، ومع ذلك، ولأنك أنت التي أثرت الموضوع، فإنني أذكر أنها كانت تبدو قلقة.

- قلقة؟

- نعم، فقلت لنفسي إنها ربما شعرت بالقلق بسبب زوجتي، ولكن كان ثمة شيء آخر بكل تأكيد.

ورفع أرسكين عينيه نحو وجه المرأة الشابة الجالسة إلى جواره وقال: هل كانت تخاف حقاً من زوجها كما قلت أنت منذ لحظة؟ هل كان يغار عليها من الرجال الآخرين؟

- يبدو أنك لا تعتقد ذلك.

- إن الغيرة إحساس غريب، قد تكون مستترة في بعض الحالات بحيث لا يشك فيها أحد.

- توجد نقطة أخرى أحبّ أن أعرفها.

ولكن غويندا أمسكت فجأة وهي تسمع صوت سيارة تقترب من البيت، فقال أرسكين: هذه زوجتي، وقد عادت من المدينة.

وفي بضع ثوانٍ تغيّر وأصبح رجلاً آخر، فأصبحت لهجته مصطنعة وخلا وجهه من أيّ تعبير، كما اضطربت يداه فنمّت عن انفعاله. أقبلت السيدة أرسكين بخطوات سريعة فنهض زوجها وتقدّم للقائها قائلاً: لقد وقع خاتم السيدة ريد في الحديقة.

فقالت المرأة بصوت جافّ: حقاً؟

فقالت غويندا وهي تقترب منها: صباح الخير. لقد وقع خاتمي منّي فعلاً، ولكنني وجدته لحسن الحظ.

- هذا جميل.

- أليس كذلك؟ لقد حزنت عليه، ولكنني يجب أن أنصرف الآن.

ولم تنطق السيدة أرسكين فقال الميجور: سأرافقك حتى سيارتك.

وكان قد بدأ يجتاز الممرّ خلف غويندا عندما ارتفع صوت زوجته يقول بحدّة: ريتشارد، توجد مكالمة هامة، وأرجو أن تلتمس السيدة ريد العذر لك.

فأسرعت المرأة الشابة تقول: طبعاً، لا بأس. أرجو أن لا تزعج نفسك.

وخرجت ثم دارت بزاوية البيت في طريقها إلى البوابة، ولكنها عندما بلغتها رأت أن السيدة أرسكين وقفت بسيارتها أمامها ثم عادت إلى البيت فتوقفت على قرب من باب الشرفة لأنها سمعت السيدة أرسكين تقول بلهجة غاضبة: لا يهمّني ما تقول. لقد كان الأمر مدبّراً، دبّرت ذلك معها أمس. لقد طلبت منها أن تعود وأنا في المدينة. هكذا أنت دائماً مع أية فتاة جميلة، ولكنني لن أحتمل هذا، هل تسمعني؟ لن أحتمل هذا.

ثم سمعت صوت أرسكين يقول بهدوء ويأس: أحياناً أحسبك مجنونة يا جانيت.

- بل أنت المجنون. لا يمكنك أن تترك النساء في هدوء.

- أنت تعرفين أن هذا غير صحيح يا جانيت.

- بل صحيح، فقد سبق أن حدث في المدينة التي جاءت منها تلك المرأة الشقراء، مع زوجة هاليداي.

- ألا يمكن أن تنسَي أبداً؟ لماذا تعودين إلى تلك المسألة؟ إنك تحتدّين...

- أنت الذي تحطم قلبي، ولكنني أقول لك إنني لن أحتمل هذا. تهزأ بي خلف ظهري، إنك لا تحبّني ولم تحبّني قطّ. سأنتحر، سألقي بنفسي من فوق الصخور... أودّ أن أموت!

- جانيت، بالله...

وكان صوت السيدة أرسكين قد تهدّج وراحت تبكي أحرّ بكاء، فعادت غويندا من حيث أتت على طرفَي قدميها ثم وجدت نفسها أمام البوابة، وفكرت لحظة ثم مضت إلى الباب الأمامي للبيت وصاحت قائلة: هل يوجد من يمكن أن يحرّك هذه السيارة؟

فخرجت خادمة، وعندما رأت السيارة التي تعترض الطريق مضت إلى حظيرة الخيل فعادت ومعها رجل حيّا غويندا ثم صعد إلى السيارة الأوستن وحرّكها إلى الفِناء، فصعدت غويندا إلى سيارتها وعادت إلى الفندق حيث كان غايلز ينتظرها على أحرّ من الجمر.

* * *

قال غايلز: لقد أخذت وقتاً طويلاً، فهل عرفت شيئاً؟

- نعم، إنني أعرف كلّ شيء الآن، وإنه لأمر مؤثّر حقاً. لقد كان مفتوناً بهيلين.

وروَت له الحديث الذي جرى بينها وبين الميجور أرسكين ثم اختتمت حديثها قائلة: وأظن حقاً أن السيدة أرسكين مجنونة شيئاً ما، هذا هو انطباعي عنها تماماً. وإنني أفهم الآن ماذا كان الميجور يعني حين تحدّث عن الغيرة، وإنه لمن الفظاعة الإحساس بمثل هذه المشاعر. ومهما يكُن فإننا نعرف الآن أن أرسكين ليس الرجل الذي هرب مع هيلين لأنه لا يدري شيئاً عن اختفائها لأنها كانت على قيد الحياة عندما غادرها في تلك الليلة.

- إنه هو الذي يؤكّد ذلك.

فنظرت غويندا إليه محنقة فعاد غايلز يقول بإصرار: هذا ما يزعمه هو.

* * *

الفصل الثامن عشر

اللبلاب

انحنت الآنسة ماربل فوق الشرفة واقتلعت بعض نبات اللبلاب، وهي غنيمة هزيلة في حدّ ذاتها لأن الجذور ما زالت عميقة في باطن الأرض، ولكنها وجدت بعض العزاء حين خطر لها أن زهور الدلفينيون الجميلة ستجد مصيراً أحسن.

وظهرت السيدة كوكر عند نافذة غرفة الاستقبال وقالت: معذرة يا سيدتي، ولكن الدكتور كيندي هنا ويريد أن يعرف متى يعود السيد والسيدة ريد، وقد أجبته بأنني لا أستطيع أن أعرف وأنك ربما عرفتِ، فهل أدَعه يدخل؟

- نعم، من فضلك يا سيدة كوكر.

وبعد لحظة ظهر الدكتور كيندي، فعرّفته الآنسة ماربل بنفسها ثم استطردت قائلة: لقد اتفقت مع غويندا على أن آتي في أثناء غيابها لاقتلاع الأعشاب الضارّة، وأعتقد أن فوستر البستاني يستغلّ السيد والسيد ريد، فهو رجل غريب الأطوار، يأتي مرتين في الأسبوع، ويحتسي عدداً كبيراً من أكواب الشاي، ويثرثر بقدر ما يحتسي ولا يكاد يعمل شيئاً.

فأجاب الدكتور كيندي قائلاً: أجل، إنهم جميعاً هكذا.

حدجته الآنسة ماربل باهتمام. لقد كان أكبر سناً عما تخيّلته، بناءً على وصف غويندا له، ويبدو أنه قد شاخ قبل الأوان، وكان يبدو في نفس الوقت مهموماً وتعساً. قال وهو يحكّ ذقنه: لقد رحلا إذن. هل تعرفين متى يعودان؟

- لن يتغيبا كثيراً، فقد ذهبا لزيارة بعض الأصدقاء في الشمال. ولكن ماذا تريد؟ إن الشباب لا يستقرّون الآن في مكان واحد، لا بدّ لهم من التنقّل باستمرار.

- أجل، هذا صحيح.

وأمسك لحظة ثم عاد يقول بارتباك: كان السيد ريد قد كتب إليّ يطلب منّي بعض المستندات، خطابات...

وتردّد مرة أخرى فسألته الآنسة ماربل بهدوء قائلة: خطابات أختك؟

فألقى إليها نظرة حادّة ثاقبة ثم قال: إذن أنت تعرفين؟ لا ريب أنك من أقربائهما، أليس كذلك؟

- بل مجرّد صديقة، وقد نصحتهما بقدر ما استطعت، ولكن الناس لا يستمعون إلى النصائح إلا فيما ندر، وهذا أمر مؤسف.

فسألها الطبيب المسنّ بشيء من الحيرة: وبمَ نصحتِهما؟

- بأن يتخلّيا عن هذه المسألة.

جلس كيندي فوق مقعد مريح ثم قال: لم تكُن نصيحة سيئة. إنني أحب غويني كثيراً، فقد كانت فيما سبق طفلة جميلة وأصبحت الآن امرأة فاتنة، ولا أريد أن تقع لها أية متاعب.

وتنهّد ثم عاد يقول: وقد كتب إليّ السيد ريد يسألني إن كنت أستطيع أن آتيه بالخطابين اللذين أرسلتهما هيلين إليّ بعد رحيلها ونموذج من خطها.

ثم رفع عينيه نحو العانس العجوز وقال: لا ريب أنك تفهمين المعنى من هذا طبعاً.

- نعم.

- إنهما يظنان أن كلفن لم يقُل الحقيقة عندما زعم أنه خنق زوجته، ويعتقدان أن الخطابين اللذين تلقّيتهما لم تكتبهما هيلين وأنهما خطابان زائفان، وبناءً على ذلك فهما مقتنعان بأنها لم تبرح البيت.

فسألته الآنسة ماربل برفق قائلة: وهل أنت مقتنع الآن تماماً بما حدث؟

فأجابها الطبيب وعيناه شاردتان قائلاً: كنت مقتنعاً في ذلك الوقت؛ فقد بدا الأمر واضحاً، وظننت أن كل ذلك إنما هي أوهام تسلطت على كلفن، فلم تكُن توجد أية جثة، ثم إن بعض الثياب اختفت، فماذا كنت أستطيع أن أفعل غير ذلك؟

فسألته الآنسة ماربل بصوت خافت قائلة: وكانت أختك في ذلك الوقت تشعر بميل إلى رجل آخر، أليس كذلك؟

فرفع الدكتور كيندي إلى الآنسة ماربل عينين تنطقان بالحزن ثم قال: لقد كنت أعشق أختي، ولكنني أظن أنه يجب أن أعترف بأنها كانت تميل دائماً إلى الرجال، وبعض النساء هكذا ولا حيلة لهن في ذلك.

- إذن فقد بدا لك الأمر في ذلك الوقت واضحاً، ولكنه لم

يعُد كذلك الآن، فلماذا؟

فأجاب كيندي بصراحة قائلاً: لأنه ليس من المعقول أن تبقى هيلين على قيد الحياة حتى اليوم ولا تكتب إليّ. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إذا كانت قد ماتت في بلد ما فإن من الغريب أن لا أعرف ذلك، وهذا هو السبب.

ثم نهض وأخرج من جيبه ظرفاً وقال: هذا كل ما وجدت. لا ريب أنني أتلفت الخطاب الأول الذي جاءني من هيلين لأنني لم أجده، ولكنني احتفظت بالخطاب التالي الذي قالت فيه إن عنوانها بشباك البريد. وأتيت كذلك بالنموذج الوحيد من خطها الذي استطعت العثور عليه، وهو عبارة عن بيان ببعض الأصناف التي كانت تنوي شراءها. ويبدو لي أن الخط مشابه لخط الخطاب، ولكنني لست خبيراً بالطبع. سأترك لك كل هذا وأرجو أن تتكرمي بتسليمه إلى غايلز وغويندا عندما يعودان. أظن أنه لا داعي إلى أن أرسلهما إليهما.

- نعم، أظن أنهما سيعودان غداً على الأكثر.

فهزّ الدكتور رأسه وراح ينظر إلى الشرفة بشرود ثم قال فجأة: هل تعرفين ماذا يزعجني؟ إذا كان كلفن قد قتل زوجته فلا ريب أنه أخفى الجثة أو تخلّص منها بطريقة ما، ومعنى هذا أن القصة التي ذكرها لي كان قد أعدّها مسبقاً إعداداً دقيقاً، أي أنه سبق أن أخفى حقيبتين ملأهما بالثياب كي يحمل الناس على الاعتقاد بأنها هربت، وأنه دبّر أمره كي تأتيني بعض الخطابات من الخارج. والواقع أن هذا معناه أنه كانت توجد جريمة قتل مدبرة تدبيراً محكماً وارتُكبت عمداً. وإنني أفكر من جديد في غويني، فقد كانت طفلة ظريفة، وإنه لمن المؤسف أن يكون أبوها مجنوناً،

ولكن الأفظع من ذلك هو أن يكون أبوها قاتلاً.

ثم التفت إلى باب الشرفة وجفل حين سمع الآنسة ماربل تسأله فجأة: دكتور كيندي، من أيّ شيء كانت تخاف أختك؟

التفتت إليها ونظر إليها بدهشة ثم قال: تخاف؟! لم تكُن تخاف من أحد!

- أرجو المعذرة إذا كانت أسئلتي متطفّلة، ولكن كان يوجد شاب، أليس كذلك؟ أعني تلك المغامرة التي وقعت فيها عقب مغادرتها المدرسة الثانوية، أظن أنه كان يُدعى أفليك.

- آه، هل تتكلمين عن تلك المسألة؟ لقد كانت مجرّد غزل بسيط كذلك الذي تتعرض إليه كل فتاة. كان جاكي أفليك شاباً سيئ الخلق لا ينتمي إلى طبقة هيلين، ولكن وقعت له بعد ذلك بعض المشكلات وغادر البلد.

- ألا يمكن أن يكون قد أراد الانتقام؟

فابتسم كيندي ابتسامة شكّ ثم قال: لا أعتقد أن عواطفه كانت عميقة إلى هذا الحدّ. ومهما يكُن، وكما قلت لك، فقد غادر البلد.

- أي نوع من المشكلات كانت؟

- ليست إجرامية. لقد أفشى بعض الأسرار الخاصة بمخدومه.

- وكان مخدومه السيد فين، أليس كذلك؟

فقال كيندي وقد ازدادت دهشته: بلى، هذا صحيح. الآن وقد أثرت أنت ذلك الموضوع أتذكّر أنه كان يعمل في مكتب فين

فعلاً. لقد كان مجرّد كاتب بسيط.

- كاتب بسيط؟

ألقت الآنسة ماربل ذلك السؤال على نفسها وهي تنحني فوق اللبلاب بعد انصراف الطبيب.

* * *

الفصل التاسع عشر
السيد كيمبل يتكلم

تمتمت السيدة كيمبل قائلة: عجباً! ما معنى هذا؟

قدّم زوجها كوبه إليها وهو يقول: فيمَ تفكرين يا ليلي؟ لقد نسيت السكّر.

أصلحت السيدة كيمبل غلطتها ثم عادت إلى الموضوع الذي يشغلها فقالت: إنني أفكر في هذا الإعلان: «ليلي أبوت، التي كانت تعمل في فيلا سانت كاترين بديلموث». هذا واضح جداً، إنهم يقصدونني أنا.

فزمجر السيد كيمبل قائلاً: آه!

- إنه لأمر غريب بعد كل هذه المدة. ماذا أفعل يا جيم؟

- لا شيء، لا تردّي على هذا الإعلان.

- وإذا كان في الأمر نقود؟

فرشف السيد كيمبل بضع رشفات من الشاي ثم قال: لقد رويت لي فيما سبق أشياء كثيرة عما حدث ولكنني لم أهتمّ بها، وكنت أعتبر كل ذلك نوعاً من اللغط والثرثرة، ولكن ربما كنت

مخطئاً. إن الأمر في هذه المسألة بالذات من اختصاص الشرطة ولا شأن لك أنت به ولا داعي إلى تدخلك، ثم إن كل ذلك قد مضى، فدعي كل ذلك يا حبيبتي.

- لا بأس بما تقول، ولكن ربما كانت توجد وصية، وربما كان يوجد مبلغ من المال لي. لعل السيدة هاليداي لا تزال على قيد الحياة، وإذا كانت قد ماتت أخيراً فلعلها أوصت لي بشيء.

- هل تهزلين؟ ولماذا توصي لك بأي شيء؟

- لو أن رجال الشرطة هم الذين نشروا هذا الإعلان فأنت تعرف أنهم يمنحون مكافأة كبيرة لكل من يدلي إليهم بمعلومات مفيدة عن جرائم القتل.

- وماذا يمكنك أن تفعلي؟ إن كل ما تحشرين به ذهنك ليس إلا مجرد أوهام.

- أنت الذي تقول ذلك، ولكنها هي الحقيقة، فمنذ أن قرأت الإعلان الأول وأنا أقول لنفسي إنني ربما لم أرَ الأمور كما يجب، فإن ليوني كانت غبية مثلها، وهي في ذلك كجميع الأجنبيات، لم تكُن تفهم ما يُقال لها تماماً، وكانت لا تعرف الإنكليزية جيداً. لنفرض أنني لم أفهم ما حاولت أن تخبرني به. لقد حاولت أن أتذكر اسم ذلك الرجل لأنه هو الذي رأته...

فأبعد السيد كيمبل كوبه بعيداً عنه ثم قال: دعي كل هذا وإلا فسوف تندمين.

ومضى إلى مؤخرة المطبخ فلبس حذاءه وخرج دون أن يزيد على ما قال شيئاً، ولبثت ليلي مكانها وقتاً طويلاً وقد غرقت في أفكارها. لم تكُن تستطيع أن تعمل ضد إرادة زوجها طبعاً، ولكن

جيم رجل ضيّق الأفق. تمنت لو أن تسأل أحداً النصح، شخصاً يمكن أن يحدثها عن المكافأة التي يمكن أن يقدمها رجال الشرطة. إنها لخسارة كبيرة أن تترك هذه الفرصة تفلت من بين يديها. وراحت تتابع حلمها، ما الذي رأته ليوني فيما سبق؟

وأخيراً خطرت لها فكرة فنهضت وجاءت بورقة وقلم وهي تقول: إنني لا أعرف ماذا أفعل. سأكتب إلى الدكتور، أخي السيدة هاليداي، وسيقول لي ما يجب أن أفعل، هذا إذا كان لا يزال على قيد الحياة، ومهما يكن فيجب أن أبرئ ضميري لأنني لم أحدثه عن ليوني في ذلك الوقت ولا عن السيارة.

ثم راحت تجري بالقلم على الورقة، وعندما فرغت من رسالتها وضعتها في ظرف وأغلقته بعناية، ولكنها لم تشعر مع ذلك بالارتياح الذي كانت تصبو إليه، فقد كانت توجد تسع فرص من عشر في أن يكون الطبيب قد مات أو أن يكون قد غادر ديلموث، فهل يوجد شخص غيره؟ ولكن ما اسم ذلك الرجل؟ لو أنها تستطيع أن تتذكر.

* * *

الفصل العشرون

هيلين

كان غايلز وغويندا قد فرغا من تناول طعام الإفطار في صباح اليوم التالي عندما جاءتهما السيدة كوكر تخبرهما بقدوم الآنسة ماربل، وأسرعت تلك الأخيرة تعتذر قائلة: أعلم أن زيارتي هذه مبكرة جداً، وأنا لا أحب إزعاج الناس في مثل هذه الساعة من الصباح عادة، ولكن ثمة شيء أريد أن أخبركما به.

فقال غايلز وهو يقدم إليها مقعداً: يسرّنا أن نراك في أيّ وقت. هل لك في فنجان من القهوة؟

- لا، شكراً، فقد تناولت إفطاري وشربت القهوة. لقد جئت أمس لاقتلاع الأعشاب الضارّة.

فقالت غويندا: هذه مكرمة كبيرة منك حقاً.

ولكن الآنسة ماربل استطردت قائلة: وقد بدا لي أن يومين في الأسبوع لا يكفيان لصيانة الحديقة، ثم إنني أعتقد أن فوستر يستغلكما، فهو يكثر من الشراب والثرثرة ولا يعمل كما يجب. ولما كان لا يستطيع أن يعمل يوماً ثالثاً في الأسبوع فقد رأيت أن أرتبط ببستانيّ آخر سوف يأتي كل أربعاء.

تأمل غايلز العجوز العانس بشيء من الدهشة. لا ريب أنها كانت حسنة النية إلى حدّ بعيد، ومع ذلك فإن تلك المبادرة إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على وقاحة كبيرة ليست من صفاتها. ثم قال: إنني أعرف أن فوستر مسنّ جداً بحيث لا يستطيع أن ينتج عملاً ذا قيمة.

- ولكن ماننج أكبر منه سناً لأنه قال لي إنه في الخامسة والسبعين، ولكن خُيل إليّ أننا إذا استخدمناه بعضاً من الوقت يمكن أن نستفيد حيث إنه عمل فترة سابقة عند الدكتور كيندي. بالمناسبة، لقد عرفت أن الشاب الذي وقعت بينه وبين هيلين تلك المغامرة يُدعى أفليك.

- آنسة ماربل، لقد افتريت عليك بيني وبين نفسي. إنك بارعة! هل تعرفين أن كيندي جاءني بخطاب من هيلين ونموذج من خطها؟

– أعرف ذلك؛ فقد كنت هنا عندما جاء أمس.

- لقد حصلت على عنوان خبير ممتاز، وسأرسل إليه المستندات اليوم.

فقالت غويندا: ما رأيكما في أن نذهب إلى الحديقة كي نتعرف بماننج؟

كان ماننج محدودب الظهر عبوس الوجه تنطق عيناه بالخبث والمكر، وكان يجمع بمجرفته الأوراق الميتة من الممرات، وما إن رأى القوم قادمين إليه حتى ازداد حماسة ونشاطاً وقال: صباح الخير يا سيدتي، صباح الخير يا سيدي. قالت لي السيدة إنكما بحاجة إلى من يرعى الحديقة كل يوم أربعاء، ولهذا أتيت. إن

الحديقة مهمَلة إلى حدّ فظيع.

- ذلك أنها بقيت سنوات طويلة دون صيانة أو رعاية.

- هذا صحيح، ولكنها كانت في عهد السيدة فنديزون جوهرة حقاً، وكانت تحبّ حديقتها كثيراً.

استند غايلز بظهره على أحد الأحواض في حين راحت غويندا تجمع بعض الزهور، وانحنت الآنسة ماربل كي تقتلع بعض الأعشاب الضارّة، ولهذا تهيأ الجوّ للحديث عن الفلاحة والبستنة. قال غايلز: أظن أنك تعرف أكثر الحدائق الموجودة في البلدة.

- أجل، إنني أعرف البلدة جيداً، كما أعرف الناس وعاداتهم، فالسيدة بولس مثلاً أقامت سياجاً من أشجار الطقوس بدا أشبه بسنجاب، أما الكولونيل لامبارد فقد كان مجنوناً بأشجار البفونيه.

- هل عملت عند الدكتور كيندي؟

- نعم، ولكن كان ذلك منذ وقت طويل، ما يقرب من عشرين سنة. لقد اعتزل العمل وغادر البلدة، وقد حلّ الدكتور برنت مكانه.

- لا بدّ أنك تتذكر السيدة هيلين أخت الطبيب.

- طبعاً، كانت فتاة جميلة ذات شعر طويل أشقر، وقد جاءت للإقامة هنا، في هذا البيت بالذات، بعد زواجها، وكان معروفاً باسم سانت كاترين في ذلك الوقت. كانت قد تزوّجت بضابط إنكليزيّ عائد من الهند.

- أجل، إننا نعرف ذلك.

– هذا صحيح، وقد سمعتهم يقولون في الحانة منذ أيام إنكما من أقربائهما. لقد كانت السيدة هيلين جميلة، وكانت مرحة جداً عندما غادرت المدرسة، كما كانت تحبّ الخروج والذهاب إلى كل مكان، وتحبّ الرقص وكرة المضرب بحيث رأى الدكتور أن يعيد أرض كرة المضرب ويمهدها لأنها ظلت مهجورة لا تُستخدم أكثر من عشرين سنة ونمت الأعشاب فيها في كل مكان. وقد اقتلعتها أنا وسوّيت الأرض وأعدت رسم الخطوط البيضاء وكل شيء. لقد كان عملاً شاقاً، ومع ذلك فإن السيدة هيلين لم تلعب كرة المضرب بعد ذلك، وطالما خطر لي أن الأمر غريب.

– لماذا؟

– ذلك الحادث الذي وقع لشبكة كرة المضرب، فقد تسلّل أحدهم ليلاً ومزّق الشبكة شرّ ممزق، وذلك العمل يدلّ على أن الذي فعل ذلك رجل شرّير.

– ومن الذي فعل ذلك؟

– هذا ما حاول الدكتور معرفته. وكان غاضباً جداً، وله العذر في ذلك، خصوصاً وأنه كان قد دفع ثمن الشبكة لتوّه، وقال إنه لن يشتري شبكة أخرى لأن الذي مزّق الشبكة الأولى كفيل بأن يمزّق غيرها. كانت الفتاة المسكينة سيئة الحظ حقاً، أولاً الشبكة ثم قدمها المريضة.

فقالت غويندا: قدمها المريضة؟!

– نعم، فقد وقعت فوق مجرفة، ولكن بدا الجرح كأنه لا يريد أن يلتئم، وكان الدكتور شديد القلق، فقد عني بالجرح كل العناية ولكنه استفحل على الرغم من ذلك. وأتذكر أنه كان يقول: "هذا

غريب! لا ريب أن هذه المجرفة كانت عليها بعض الجراثيم"، وكان لا بدّ للفتاة المسكينة أن تلزم البيت بعد ذلك لأنه لم يكُن في استطاعتها أن تخرج كي ترقص. كان الحظ السيئ يلاحقها حقاً.

فسأله غايلز: هل تذكر شاباً يُدعى أفليك؟

- هل تعني جاكي أفليك؟ لقد كان يعمل في مكتب المحامي فين.

- أجل، ألم يكُن صديقاً للسيدة هيلين؟

- نعم، لم يكُن صديقاً لها. لقد كانت قصة صبيانية، وقد تدخّل الطبيب وأنهاها، وخيراً فعل لأن الشاب لم يكُن من طبقة الآنسة. لقد كان من هؤلاء الشبان الوقحين الذين يلعبون بالنار ويظلون يلعبون بها حتى تحرقهم، وقد هرب من هنا لأن البلدة ليست بحاجة إلى من هم على شاكلته، فمن الأفضل أن يباشروا حيلهم في مكان آخر.

- هل كان لا يزال موجوداً هنا عندما تمزّقت شبكة كرة المضرب؟

- آه، أرى ما يدور في ذهنك يا سيدي، ولكن ما كان في استطاعته أن يقدِم على عمل كهذا؛ فقد كان أذكى من ذلك بكثير. إن الذي مزق الشبكة إنما مزقها بدافع الحقد.

- هل كان يوجد من يحقد على السيدة هيلين؟

كتم ماننج ضحكة وقال: نساء كثيرات كان في إمكانهن أن يحقدن عليها لأنها كانت أجمل منهن بكثير، أما الشبكة فإن الذي مزقها متشرّد دون أي شك.

فسألته غويندا قائلة: هل تكدرت السيدة هيلين من تلك القصة مع جاكي أفليك؟

- أظن أنها كانت تعلّق أهمية كبيرة على أولئك الشباب، فقد كانت تحب الخروج واللهو، وهذا كل شيء. ومع ذلك فقد كان يوجد من يعجب بها كثيراً، فالشاب والتر مثلاً كان يتبعها في كل مكان كالكلب الأمين.

- ولكنها لم تكُن تهتم به، أليس كذلك؟

- كانت تستخفّ به بحيث اضطُر إلى الرحيل إلى الخارج، ولكنه لم يبقَ وقتاً طويلاً. إنه هو الذي يتولى شؤون المكتب الآن، وهو لم يتزوج حتى اليوم، ولست ألومه على ذلك؛ فإن النساء يسببنَ الكثير من المشكلات للرجال.

وسألته غويندا قائلة: هل أنت متزوج؟

فأجاب الكهل دون أي انزعاج: لقد دفنت اثنتين، ولست آسفاً على ذلك حقاً، فإنني أستطيع الآن على الأقل أن أدخّن غَليوني بهدوء متى شئت.

وسكت برهة ثم أمسك بالمجرفة، فتركه غايلز وغويندا وعادا إلى البيت، وتخلّت الآنسة ماربل عن اقتلاع الأعشاب الضارة فجأة وتبعت صديقتها. قالت غويندا بشيء من الضيق: أراك منزعجة، فما الخبر؟

- لا شيء يا ابنتي، ولكن تمزيق الشبكة لا يروقني.

فنظر غايلز إليها بدهشة ثم قال: لا أفهم.

- حقاً؟ ومع ذلك فإن الأمر شديد الوضوح، ولكن لعل

من الأفضل أن لا تفهم؛ فقد أكون مخطئة. قل لي، ماذا فعلتما في نورثمبرلاند؟

فأطلعها الشاب على ما حدث بالتفصيل، وأصغت الآنسة ماربل إليهما دون أن تقاطعهما، واختتمت غويندا حديثها قائلة: ومن هذا يتضح أن الميجور أرسكين لا يمكن أن يكون الجاني، وما زلت أعتقد أن السيد فين بعيد هو الآخر عن هذه المسألة.

وقال غايلز: يبدو أن كلاً من والتر فين والميجور أرسكين فوق كل شبهة، ولكن جريمة القتل يقدِم عليها أبعد الناس عن الشكوك والشبهات في أغلب الأحيان.

قالت الآنسة ماربل: إن النقطة الآن هي أن كلاً من هذين الرجلين كان موجوداً في البلدة، فكان فين في ديلموث دون أي شك، واتضح من أقوال أرسكين أنه كان برفقة هيلين هاليداي قبل اختفائها بقليل، وأنه لم يعُد إلى فندقه مباشرة بعد أن ودّعها.

وسكتت الآنسة ماربل لحظة قبل أن تقول: لا أظن أنكما ستجدان مشقة في العثور على عنوان جاكي أفليك نظراً لأنه صاحب شركة سيارات دافويل.

فقال غايلز: سوف أهتم بأمره، وسأجده في دليل الهاتف. هل تظنين أننا ينبغي أن نراه؟

لزمت الآنسة ماربل الصمت لحظة قبل أن تقول: إذا كان يجب أن ترياه فلا بدّ لكما من توخّي الحذر. لا تنسيا أن البستاني الكهل قال إنه رجل شرّير.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

أفليك

عثر غايلز على عنوان لجاكي أفليك في دفتر الهاتف، عنوان المكتب في أكستر وعنوان البيت في أطراف المدينة. وتواعد الرجلان على اللقاء في صباح اليوم التالي، غير أنه في اللحظة التي استقلّ فيها غايلز السيارة مع غويندا خرجت السيدة كوكر من البيت راكضة وصاحت تقول: سيدي، الدكتور كيندي يطلبك في الهاتف.

فنزل غايلز وعاد إلى البيت وقال وهو ممسك بالسماعة: مرحباً.

– صباح الخير يا سيد ريد. لقد جاءني خطاب عجيب من امرأة تُدعى ليلي كيمبل، وقد قدحت زناد فكري كي أعرف من هي، وحسبت في بادئ الأمر أنها مريضة قديمة، ولكنني أعتقد بالأحرى أنها كانت تعمل خادمة تُدعى ليلي في ذلك الوقت، إلا أنني لا أتذكر لقبها.

– كانت توجد فعلاً خادمة تُدعى ليلي، بل إن زوجتي تتذكر أنها وضعت شريطاً حول عنق قط كان في البيت.

- يبدو لي أن غويني تتمتع بذاكرة قوية.

- هذا صحيح.

- حسناً، أحب أن أتكلم معك بخصوص هذا الخطاب، ولكن ليس في الهاتف. هل أستطيع القدوم لزيارتكما؟

- إننا ذاهبان إلى أكستر الآن، ولكن مقدورنا أن نمرّ ببيتك إذا وافقك هذا، فإن البيت يقع في طريقنا.

- هذا حسن.

* * *

وجدا الطبيب في انتظارهما وقدّم إليهما الخطاب على الفور، وكان مكتوباً على ورقة رخيصة وبأسلوب ركيك، وكان هذا نصّه:

سيدي،

أكون شاكرة لو استطعت أن تُزجي إليّ النصح فيما يتعلق بالإعلان المرفق، وقد اقتطعته من إحدى الجرائد. لقد فكّرت في الأمر كثيراً وتحدثت مع زوجي، ولكنني لا أدري ماذا أفعل. هل تعتقد أنه توجد نقود أستطيع اكتسابها أو مكافأة ما؟ فإن قليلاً من النقود تفيدني كثيراً، إلا أنني لا أريد أية مشكلات مع الشرطة. طالما فكرت في تلك الليلة التي اختفت فيها السيدة هاليداي، ولكنني لا أعتقد أنها هربت لأن الثياب الناقصة تنفي ذلك. لقد خطر لي في البداية أن مخدومي هو الذي قتلها، غير أنني لست واثقة من ذلك الآن بسبب السيارة التي رأيتها من النافذة، ولكنني لا أريد الإقدام على أي

شيء دون استشارتك، فلم يكُن لي شأن مع الشرطة على الإطلاق، وزوجي لا يحبّ ذلك. أستطيع القدوم لزيارتك يوم الخميس المقبل لأنه يوم السوق وسيكون زوجي متغيباً، ويسرّني لو تتمكّن من استقبالي.

وتفضّل بقبول احترامي، ليلي كيمبل.

بعدما انتهى الطبيب من قراءة الخطاب طواه ثم قال: وقد جاءني الخطاب على عنواني القديم في ديلموث وحوّلته مصلحة البريد إليّ، والإعلان المرفق هو إعلانكما طبعاً.

فصاحت غويندا: هذا عظيم. أرأيت الآن؟ إن المدعوة ليلي لا تعتقد هي الأخرى أن أبي هو الجاني.

وكانت تتكلّم بلهجة مرحة، فنظر كيندي إليها بعينيه المتعَبتين المتسامحتين ثم قال برفق: أرجو أن تكوني على صواب، ومن رأيي أن أردّ على تلك المرأة بأنها تستطيع أن تأتي يوم الخميس كما تقول، فما رأيكما؟ إن في مقدورها أن تأتي عن طريق ديلموث بعد الرابعة والنصف بقليل. وإذا شئتما أن تأتيا أنتما أيضاً فسيكون في استطاعتنا أن نستجوبها معاً.

فقال غايلز: هذا جميل.

وألقى نظرة إلى زوجته ثم أردف قائلاً: هيا يا غويندا، يجب أن نسرع.

ثم التفت إلى الدكتور كيندي وقال: إننا على موعد مع السيد أفليك مدير شركة سيارات دافويل، وقد أكدت لنا سكرتيرته بأنه رجل كثير المشاغل.

فقطب كيندي حاجبيه ثم قال: أتقول أفليك؟ نعم، تلك

السيارات الصفراء. ولكن يخيل إليّ أن اسم أفليك مألوف لديّ.

فقالت غويندا: هيلين.

- يا إلهي! لا أظن أنه هو ذلك الشاب بالذات.

- بل هو.

- لقد كان شاباً مسكيناً في ذلك الوقت، إذن فقد أفلح...

فأجاب غايلز قائلاً: يبدو ذلك. ولكن هل تريد أن تفسر لي شيئاً يا دكتور؟ أعرف أنك وضعت حداً لمغامرة غرامية بينه وبين أختك الصغيرة، فهل كان ذلك بسبب وضعه الاجتماعي فحسب؟

فنظر كيندي إليه نظرة مجرّدة من الرقة وقال بلهجة جافة: أيها الشاب، إنني أنتمي إلى المدرسة القديمة، ولا أجهل أن كل الرجال، طبقاً لتعاليم الدين، سواسية. قد لا يكون ذلك صحيحاً من الناحية الأدبية، ولكنني أظن إن الرجل يكون أسعد حالاً إذا لم يخرج من الوسط الذي وُلد فيه، ثم إنني في هذه الحالة بالذات كنت أعتقد أنه رجل وغد شرّير، وقد أثبت لسوء حظه أنني لم أكُن مخطئاً.

- ماذا فعل بالضبط؟

- يتعذر عليّ أن أتذكر ذلك بصفة محددة الآن، ولكن يبدو أنه أفشى بعض الأسرار الخاصة بأحد عملاء المكتب الذي كان يعمل به، وذلك نظير مبلغ كبير من المال.

- وهل تضرّر كثيراً من هذا الطرد؟

فألقى كيندي إليه نظرة ثاقبة ثم قال بلهجة جافة: طبعاً.

– ألم يكُن يوجد أي سبب آخر يحملك إلى أن تنظر إلى صداقته بأختك نظرة سيئة؟ ألا تظن أنه كان يوجد شيء آخر دفعك إلى ذلك؟

– الآن وقد أثَرت هذه النقطة فسأردّ عليك بصراحة. لقد بدت عليه بعض الأعراض التي تدلّ على أنه مختلّ العقل، وذلك عقب طرده من المكتب. كان يبدو أنه يعاني من عقدة الاضطهاد، ولكن الظاهر أنه لم يكُن يوجد ما يبرّر مخاوفي إذا نظرنا إلى ما صادفه من نجاح.

* * *

كان البيت حديث البناء مزوداً بشرفات كبيرة. اجتاز غايلز وغويندا بهواً واسعاً أفضى بهما إلى غرفة المكتب، وهي غرفة كبيرة تتوسطها منضدة ضخمة سطحها وجوانبها مكسوة بالمعدن البرّاق، وتمتمت غويندا قائلة: الحق أنني لا أدري ماذا كنا نستطيع أن نفعل من غير الآنسة ماربل. أصدقاؤها في نورثمبرلاند أولاً، والآن زوجة القسّ والحفلات الترفيهية التي تقوم بها كل عام.

فأشار عليها غايلز بأن تسكت لأن الباب فُتح في تلك اللحظة، واندفع جاكي أفليك إلى الداخل كالقنبلة. كان رجلاً متوسط السنّ بديناً يرتدي سترة من قماش ذي مربعات جذابة اللون، وكان أسود العينين ثاقب النظرات وجهه أحمر بشوش، ويدلّ مظهره على أنه رجل أعمال ناجح. قال بلهجة عملية: السيد ريد؟ يسرّني أن أتعرّف بك.

وقدّم له ريد زوجته، وضغط أفليك على يدها برفق ثم قال: ماذا أستطيع أن أؤدي لكما يا سيد ريد؟

ثم جلس في مقعده الكبير وقدّم لزائريه صندوقاً ثميناً مملوءاً بلفافات التبغ، وتكلّم غايلز على الفور عن الحفل السنوي الذي ستقيمه زوجة القس، فقال إن بعض أصدقائه يتولون الإشراف على هذا الحفل الذي يستمر يومين في مقاطعة ألديفون. فقدم أفليك بعض الاقتراحات مبيناً أسعاره، ولكنه على الرغم من ذلك كان يبدو دهِشاً ثم قال أخيراً: كل هذا واضح، وسأكتب إليك كي أعزز موافقتنا، ولكن هذه مسألة عملية بحتة، وقد خُيل إليّ من حديث سكرتيرتي أنكما تطلبان كذلك موعداً خاصاً.

- الحق أنه يوجد موضوعان كنا نريد مناقشتهما معك، وقد فرغنا من أحدهما الآن، أما الآخر فهو موضوع شخصيّ تماماً، فإن زوجتي تريد الاتصال بزوجة أبيها لأنها لم ترَها منذ سنوات عدة، وقد خطر لنا أنك تستطيع مساعدتنا.

- هلاّ ذكرت لي اسمها؟ هل أعرفها؟

- لقد كنت تعرفها في وقت من الأوقات على كل حال. لقد كانت تُدعى هيلين هاليداي، واسمها قبل الزواج هيلين كيندي.

فرفع أفليك حاجبيه وارتدّ إلى الوراء بمقعده قليلاً دون أن يفقد شيئاً من هدوئه ثم قال: هيلين هاليداي؟ إنني لا أتذكر. هيلين كيندي...

قال غايلز: كانت تقيم في ديلموث.

واستعاد مقعد أفليك وضعه الطبيعي ببطء في حين قال صاحبه: آه، هيلين كيندي، طبعاً.

وتألق وجهه لفرط سروره ثم قال: لقد تذكرتها الآن، ولكن ذلك كان منذ وقت طويل جداً، منذ نحو عشرين عاماً.

- ثمانية عشر عاماً.

- حقاً؟ إن الوقت يمرّ سريعاً كما يُقال، ولكنني أخشى أن أخيّب ظنك يا سيدة ريد لأنني لم أرَ هيلين منذ ذلك الوقت، بل إنني لم أسمع عنها بعد ذلك.

فتمتمت غويندا قائلة: يا إلهي، إنني أشعر بخيبة أمل كبيرة حقاً، فقد كنا نأمل أن تتمكّن من مساعدتنا.

فنقل جاكي أفليك عينيه بينهما ثم قال: ماذا حدث لها؟ هل صادفتها متاعب؟

- لقد غادرت ديلموث فجأة مع رجل منذ ثمانية عشر عاماً.

فقال جاكي أفليك بشيء من الطرب: وخطر لكما أنها هربت معي، أليس كذلك؟ ولكن لماذا؟

فأجابت غويندا بجرأة قائلة: لأننا سمعنا أن كلاً منكما أحب الآخر في وقت من الأوقات.

فقال بلهجة جافة: ومهما يكُن فإننا لم نلقَ تشجيعاً.

- لا ريب أنك تجدنا متطفّلين دائماً، أليس كذلك؟

- لا تقلقي، فإنني لست سريع التأثر. إنك تريدين الاهتداء إلى زوجة أبيك وتعتقدين أنني أستطيع مساعدتك. حسناً، سليني ما تريدين، فليس لديّ ما أخفيه على الإطلاق.

وتأمل غويندا بتفكير لحظة ثم سألها: هل أنت ابنة هاليداي؟

- نعم. هل كنت تعرف أبي؟

فأتى أفليك بحركة من يده تدلّ على النفي ثم قال: مررت في

طريقي بديلموث ذات يوم ومضيت لزيارة هيلين، وكنت قد عرفت أنها تزوّجت، وكانت ظريفة معي ولكنها لم تستبقِني للعشاء، ولم أرَ أباك.

- هل أحسست بأنها كانت سعيدة؟

فهزّ أفليك كتفيه ثم قال: لقد كانت سعيدة طبعاً. لقد مرّ على ذلك ما يقرب من عشرين عاماً، ولكن لو أنها لم تكُن سعيدة لأحسست بذلك بطبيعة الحال.

ثم أردف يقول بفضول بدا طبيعياً: هل تقصدين القول بأنك لم تسمعي عنها قط منذ أن غادرت ديلموث منذ ثمانية عشر عاماً؟

- لم نعرف عنها أي شيء.

- ألم تكتب لكم؟

فأجاب غايلز قائلاً: لقد جاء منها خطابان، ولكن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنها لم تكتبهما.

فقال أفليك بطرب: لم تكتبهما؟ هذا أشبه بفِلم بوليسي. وماذا عن أخيها الطبيب؟ ألا يعرف أين هي؟

- نعم، لا يعرف أي شيء هو أيضاً.

- آه! هذا لغز حقيقيّ. لماذا لم تنشروا إعلاناً في الجرائد؟

- فعلنا، ولكن دون أية نتيجة.

- يبدو أنها ماتت دون أن تعلموا.

فارتجفت غويندا فقال يسألها: هل تشعرين ببرد؟

- لا، وإنما تخيّلت هيلين ميتة، وقد أخافتني الفكرة.

- إنني أحسّ بنفس الشعور. لقد كانت هيلين جميلة، جميلة جداً.

- إنني لا أحتفظ عنها إلا بذكرى مبهمة، ولكنك أنت الذي عرفتها جيداً، فكيف كانت؟ وماذا كان الناس يقولون عنها؟ وما رأيك فيها؟

تأمل أفليك المرأة الشابة بصمت لحظة ثم قال: سأكون صريحاً معك يا سيدة ريد، وصدّقيني إذا أردت، ولكنني أرثى لتلك الفتاة.

فنظرت غويندا إليه دهشة ثم قالت: ترثى لها؟

- نعم. لقد كانت قد خرجت لتوّها من المدرسة، وكانت تودّ أن تلهو قليلاً كأيّ فتاة عادية، ولكن كان يوجد أخوها الذي كان يكبرها سناً، وكان صارماً ذا أفكار رجعية فيما يتعلق بما يجب على الفتاة أن تفعل وما لا يجب أن تفعل، بحيث إن المسكينة لم تستطع أن تمرح كما كانت تريد، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكنت من أن أخرجها قليلاً وأن أعطيها نظرة عن الحياة، غير أنني لم أحبّها حقاً، ولم تكُن شغوفة بي هي الأخرى وإنما كانت تتسلى كما تتسلى كل فتاة. واكتشف الدكتور أننا نلتقي فوضع حداً لذلك، وأنا لا أحقد عليه، ولكن الشيء المؤكد هو أن الفتاة قد صُدمت أكثر منّي. ولم نكُن مخطوبَين. لقد كان في نيتي أن أتزوج ذات يوم طبعاً ولكن لم يكُن يوجد ما يدعوني إلى الاستعجال، وأعترف أنني كنت أريد أن أقع على فتاة تستطيع أن تساعدني كي أشقّ طريقي، ولم تكُن هيلين غنية فلم تكُن بالزوجة التي تصلح لي. لم نكُن أكثر من صديقين.

- ولكن لا ريب أنك استأت جداً عندما تدخل الدكتور،

أليس كذلك؟

- إنني أعترف بذلك لأنه ليس من المستحبّ أن يوصف أحد بأنه شرّير، ولكن لا يجب أن يكون المرء شديد الحساسية في هذه الدنيا.

فقال غايلز: وفقدت عملك بعد ذلك، أليس كذلك؟

فتجهّم وجه أفليك ثم قال: لقد طردني فين وهذا صحيح، وأعتقد أنني أعرف من أين جاءتني الضربة.

فسأله غايلز قائلاً: حقاً؟

فهز أفليك رأسه برفق ثم قال: لديّ رأي في هذا الموضوع، ولكنني لن أذكر أسماء. لقد كانت التهمة باطلة، وليس لديّ أيّ شك عن شخصية المسؤول.

وتورّدت وجنتاه ثم استطرد قائلاً: إن من القذارة أن تتجسّس على أحد وأن تنصب له شرَكاً وتفتري عليه. لقد كان لي أعداء ولكنني لم أقرّ بالهزيمة قط، ولن أنسى...

وأمسك عن الكلام وغيّر مسلكه، ثم لم يلبث أن استردّ بشاشته سريعاً وقال: أخشى أنني لن أستطيع مساعدتكما. لقد خرجت أنا وهيلين بضع مرات، ولكن الأمور لم تذهب إلى أبعد من هذا.

حدجته غويندا بصمت لحظة. لقد بدت لها القصة واضحة، ولكن هل هي حقيقة؟ كان في قصته شيء له غرابته، شيء عاد إلى ذهنها فجأة. ثم قالت: ومع ذلك فقد سارعت إلى زيارتها فيما بعد عندما عُدت إلى ديلموث؟

فراح أفليك يضحك ثم قال: أعترف أنك غلبتِني يا سيدة ريد،

هذا صحيح. لقد ذهبت لزيارتها، ربما كان ذلك لأنني أردت أن أريها أنني لست فاشلاً لأن محامياً متعجرفاً طردني من مكتبه، فقد نجحت في عملي وأصبحت أقود سيارة فارهة وعرفت كيف أشقّ طريقي تماماً.

- لقد ذهبت إلى ديلموث مرات كثيرة، أليس كذلك؟

فأجاب أفليك بعد تردّد يسير قائلاً: مرتين أو ربما ثلاث مرات.

وهزّ كتفيه ثم أردف قائلاً: يؤسفني أنني لا أستطيع مساعدتكما.

فنهض غايلز وقال: أرجو أن تلتمس لنا العذر إذا أضعنا وقتك.

- لا عليك، يسرّني أن أستعيد بعض الذكريات القديمة.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب وألقت امرأة نظرة إلى الداخل ثم اعتذرت على الفور قائلة: آه، أنا آسفة. لم أكُن أعرف أنك مشغول.

- ادخلي يا عزيزتي.

وعندما دخلت قام بواجب التعارف قائلاً: أقدم لكما زوجتي دوروتيه، السيد والسيدة ريد.

صافحت السيدة أفليك الزائرَين. كانت طويلة القامة نحيلة الجسم ترتسم سمات الحزن على محياها، ولكن ثيابها كانت غالية وأنيقة. قال أفليك: كنا نتحدث عن الماضي، ولم أكُن قد عرفتك بعد في ذلك الوقت.

والتفت إلى زائريه من جديد ثم قال: لقد التقيت بزوجتي في أثناء رحلة بحرية. إنها ليست من مواليد إنكلترا، ولكنها قريبة للورد بولترهام.

ونطق بالكلمات الأخيرة بشيء من الزهو والفخر، فاحمرّ وجه السيدة أفليك ثم قالت: منذ وقت طويل وأنا أقول لزوجي إنه يجب أن نقوم برحلة بحرية إلى اليونان.

- ليس لديّ وقت، فإنني مشغول جداً.

فقال غايلز: ولهذا لا يجب أن نزعجك كثيراً. إلى الملتقى يا سيد أفليك، وشكراً لك. أرجو أن تعزّز لي العرض الذي عرضته عليّ كتابة.

وعندما كان أفليك يشيّع زائرَيه إلى الباب ألقت غويندا نظرة إلى الخلف من فوق كتفها. كانت السيدة أفليك واقفة بجوار المكتب تحدق إلى ظهر زوجها وفي عينيها خوف شديد. ودّع غايلز وغويندا مضيفهما مرة أخرى ومضيا إلى سيارتهما، وقالت المرأة الشابة فجأة: آه، لقد نسيت منديلي الحريري.

- إنك تنسَين شيئاً دائماً.

- لا تنظر إليّ هكذا، سأعود كي أبحث عنه.

واستدارت وعادت إلى البيت ركضاً، ثم سمعت صوت أفليك القويّ عبر الباب المفتوح يقول: ماذا دهاك كي تدخلي مكتبي هكذا؟ ليس لهذا أيّ معنى.

- معذرة يا جاكي، لم أكُن أعلم. ولكن مَن هذان الشخصان؟ ولماذا أزعجاك؟

- إنهما لم يزعجاني. إنني...

وأمسك وهو يرى غويندا على عتبة الباب فأسرعت تقول: معذرة يا سيد أفليك، ألم أنسَ منديلي الحريري هنا؟

- منديلك؟ لا أعتقد أنه هنا.

- ما أشدّ غبائي! لا ريب أنه في السيارة.

وعادت غويندا إلى زوجها وكان قد أدار السيارة، وكانت توجد أمام البيت سيارة أخرى صفراء لامعة. قال غايلز: إنها سيارة فارهة جداً.

- أجل، هل تتذكر ماذا قالت أديث باغيت؟ كانت ليلي تظن أنها رأت سيارة الكابتن أرسكين، ولكنها أخطأت. إن الشخص المجهول الغامض صاحب السيارة الفارهة هو جاكي أفليك.

- ثم إنها تكلّمت في خطابها للدكتور كيندي عن سيارة أنيقة.

فتبادل الزوجان النظر ثم قالت غويندا: هذا معناه أنه كان هناك في تلك الليلة. آه يا غايلز، إنني أتعجل يوم الخميس كي أعرف ماذا ستقول ليلي كيمبل.

- ولكن ربما تملّكها الخوف فلا تأتي.

- بل ستأتي يا غايلز. إذا كانت سيارة فارهة وقفت أمام الفيلا في تلك الليلة...

- هل تعتقدين أنها كانت سيارة صفراء كهذه؟

وسمعا صوت جاكي أفليك يقول في تلك اللحظة: هل تروقكما سيارتي؟

كان يقف خلفهما وقد اعتمد بظهره إلى إحدى الأشجار ثم أردف قائلاً: السيارة الصغيرة الذهبية، هكذا أدعوها. طالما أحببت السيارات الفارهة. إليك منديلك يا سيدتي، فقد كان خلف المكتب. إلى اللقاء، وإنه ليسرّني أنني تعرّفت بكما.

وتحوّل عنهما وعاد إلى بيته في حين ركب غايلز وغويندا سيارتهما، وقالت تلك الأخيرة: هل تظن أنه سمع حديثنا؟

- لا أعتقد، ثم إننا لم نذكر ما يدينه.

- هذا صحيح، ولكن هل تتذكر كيف تصرّفت زوجته؟ إنها تخاف منه، وأنا قرأت ذلك في عينيها.

- ماذا؟ أتخاف من ذلك الرجل البشوش الظريف؟!

- لعلّه ليس ظريفاً ولا بشوشاً في قرارة نفسه. أعترف لك أنه لا يروقني، وإنني لأتساءل، منذ متى كان يقف يتسمّع إلى حديثنا؟ ماذا قلنا بالضبط فسمعه؟

- لا شيء بالتحديد.

ومع ذلك فقد أحسّ غايلز بشيء من الضيق.

* * *

الفصل الثاني والعشرون
ليلي تأتي في الموعد

صاح غايلز: هذا عجيب!

وكان قد فضّ خطاباً جاءه بعد الظهر، وراح يتأمل الرسالة بدهشة فسألته غويندا قائلة: ما الخبر؟

- تقرير خبراء الخطوط.

فأسرعت غويندا تقول: وطبعاً لم تكتب هيلين ذلك الخطاب الذي جاء من الخارج؟

- بل كتبته.

وتبادل الشابان النظر لحظة في صمت ثم قالت غويندا أخيراً: لم يكُن الخطابان زائفَين إذن، بل كانا حقيقيَّين! لقد غادرت هيلين الفيلا في تلك الليلة ثم كتبت وهي بالخارج. إنني لا أفهم شيئاً، إنها لم تمُت مخنوقة إذن.

فأجاب غايلز ببطء قائلاً: يبدو ذلك. إن كل هذا يثير الدهشة حقاً ولا أفهم منه شيئاً، ومع ذلك فقد كان كل شيء يدلّ على العكس تماماً.

- ربما أخطأ الخبراء.

- هذا محتمل طبعاً، على الرغم من أنه يبدو أنهم واثقين من أنفسهم تماماً. ألا يمكن أن نكون قد تصرفنا تصرفاً أحمق منذ البداية؟

- أتعني أن كل ذلك كان نتيجة لتصرّفي الأحمق في المسرح؟ سأقول لك ماذا يجب أن نفعل. سوف نمضي الآن لزيارة الآنسة ماربل، فما زال لدينا الوقت الكافي قبل أن يأتي موعدنا مع الدكتور كيندي.

ومع ذلك فقد تصرفت الآنسة ماربل بخلاف ما كانا يتوقعان، فقالت إن كل ذلك على ما يرام، فسألتها غويندا: ماذا تعنين؟

- لا شيء إلا أنه يوجد شخص لم يكُن من الخبث والدهاء كما كان ينبغي.

- وكيف ذلك؟

- لقد أقدم الشخص على غلطة كبيرة يا عزيزتي غويندا، ويجب أن تفهمي أن هذا يبيّن لنا الطريق الذي يجب أن نتبعه.

- ما دام قد وضح أن هيلين هي التي كتبت هذين الخطابين فهل ما زلت تعتقدين أنها ماتت مخنوقة؟

- بل أظن أن من المهم لشخص ما أن تكون هذه الخطابات بخط يدها.

- أظن... أظن أنني أفهم. لا ريب أن بعض الظروف أجبرت هيلين على كتابتهما.

- ولكن فكر جيداً يا سيد ريد، فإن الأمر أسهل من ذلك.

فبدا الضيق والاستياء على غايلز وقال: يمكنني أن أؤكد لك أنني لا أفهم شيئاً.

- لو أنك فكرت قليلاً...

فتحوّلت غويندا إلى زوجها وقالت: يجب أن ننصرف يا غايلز إذا كنت لا تريد أن نتأخر.

وانصرفا في حين ارتسمت على شفتَي الآنسة ماربل ابتسامة. وقال غايلز بعدما تركا الآنسة ماربل: توجد أوقات تثيرني فيها تلك العانس العجوز. إنني لا أفهم ما تعنيه.

* * *

بلغا بيت الدكتور كيندي في الموعد المحدّد، وأقبل الطبيب الكهل ففتح لهما الباب بنفسه قائلاً: لقد أعطيت لخادمتي إجازة بعد ظهر اليوم، فقد رأيت أن هذا أفضل.

ومضى بزائريه إلى غرفة الاستقبال حيث صُفت أدوات الشاي فوق طاولة صغيرة، وقال يخاطب غويندا مستفسراً: إن كوب الشاي بداية طيّبة، أليس كذلك؟ سوف تشعر السيدة كيمبل بالارتياح.

- إنك على حق تماماً.

- وإنني أتساءل إذا كان يجب أن أقدّمكما لها على الفور أم لا، فإنني لا أريد المجازفة بإخافتها.

فقال غايلز: وأنا كذلك.

- ومع ذلك إذا شئتما أن تسمعا حديثنا فيمكنكما أن تجلسا في الغرفة المجاورة وأن تتركا الباب مفتوحاً. ونظراً للظروف الشاذة

التي نمرّ بها فإنني أظن أن في استطاعتنا أن نخرق قواعد آداب السلوك.

فقالت غويندا: طبعاً. إن هذا يعتبر فضولاً، ولكنني لا أبالي.

وابتسم الدكتور كيندي ابتسامة خفيفة ثم قال: الواقع أنني أظن أنه لا يجب أن نبالي بذلك في هذه الحالة بالذات، ثم إنه ليس في نيتي أن أعِد تلك المرأة بكتمان الأمر والاحتفاظ بالسرّ، وإن كنت مستعداً كي أزجيها النصح إذا أرادت.

وألقى نظرة إلى ساعته ثم قال: إن القطار سيصل إلى وورلي رود في الساعة الرابعة والنصف، أي بعد بضع دقائق، ولن تلبث السيدة كيمبل أن تأتي.

وأخذ يذرع أرض الغرفة ذهاباً وجيئة وقد بدا عليه القلق والتوتر ثم قال: إنني لا أفهم المعنى من ذلك أبداً! إذا لم تكُن هيلين قد رحلت في تلك الليلة، وإذا كان الخطابان اللذان تلقيتهما زائفين...

فتراجعت غويندا خطوة إلى الوراء ولكن زوجها أوقفها بإشارة من رأسه، واستطرد الدكتور كيندي قائلاً: وإذا كان كلفن المسكين لم يقتلها فما الذي حدث إذن؟

- إن القاتل شخص آخر غيره.

- ولكن إذا صحّ ما تقولين يا عزيزتي فلماذا اتهم أبوك نفسه؟

- لأنه كان يعتقد أنه هو الجاني. لقد وجد زوجته ميتة في فراشها فاقتنع على الفور بأنه هو الذي قتلها. هذا شيء ممكن

الحدوث، أليس كذلك؟

حكّ الدكتور كيندي ذقنه بحنق وضيق في نفس الوقت ثم قال: وكيف كان يمكنني أن أعرف ذلك؟ إنني لست طبيباً نفسياً. يمكن أن تكون صدمة نفسية، صدمة عصبية. نعم، أظن أن هذا هو الذي حدث. ولكن من الذي قتل هيلين؟

فقالت غويندا برفق: إننا نشتبه في ثلاثة أشخاص.

- ثلاثة أشخاص؟ ومن هم؟ لم يكُنِ يوجد أي سبب لقتل هيلين إلا إذا كنا نواجه مجنوناً، فهي لم يكُن لها أعداء. لقد كان الجميع يحبونها.

ومضى إلى مكتب صغير فتح أحد أدراجه فأخذ منه شيئاً ثم قال: لقد وجدت هذه وأنا أبحث عن الخطابين.

وناول المرأة الشابة صورة صغيرة قديمة باهتة اللون لطالبة بثياب الرياضة شعرها ممشط إلى الخلف ووجهها متألق، وقد وقف كيندي بجوارها وكان لا يزال شاباً وتبدو عليه أمارات السعادة، ثم قال بصوت أجش: لقد فكرت فيها كثيراً في الأيام الأخيرة، حاولت أن أنساها منذ سنوات ولكن ذكراها الآن تلاحقني، وأنتما السبب.

ونطق بالعبارة الأخيرة بشبة اتهام، فقالت غويندا: بل أظن أن هيلين هي السبب.

فرفع وجهه إليها بحدة ثم قال: ماذا تعنين؟

- لا شيء بالذات، والواقع أنني لا أستطيع التعبير بوضوح أكثر، ولكن لا شأن لي ولا لغايلز بما حدث، وإنما هيلين هي التي...

وفي تلك اللحظة ارتفع صوت قاطرة، وكان صوتها خافتاً، فاجتاز كيندي الباب وزائراه من خلفه وهو يقول: هذا هو القطار.

- هل أقبل؟

- لا، إنه يغادر المحطة. لن تلبث السيدة كيمبل أن تأتي ما بين لحظة وأخرى.

ولكن مضت الدقائق وتتابعت ولم تظهر السيدة كيمبل.

* * *

نزلت ليلي كيمبل من القطار في محطة ديلموث، ثم اجتازت الرصيف فانتقلت إلى رصيف آخر كي تستقلّ القطار المحلّي، ولم يكُن به أكثر من ستة من المسافرين، وانطلق القطار ببطء عبر الوادي المتعرّج. وكانت توجد ثلاث محطات قبل المحطة الأخيرة، وهي نيوتن لونغفورد وماتشنغ هالت وورلي بولتون.

راحت ليلي تنظر إلى المناظر التي تجري أمام عينيها دون أن تراها وقد استغرقت في التفكير، وكانت هي الوحيدة التي نزلت في محطة ماتشنغ هالت، وأعطت تذكرتها للموظف الواقف بالباب وخرجت من المحطة، ورأت أمامها إحدى علامات الطريق تشير إلى الطريق الذي يجب أن تتخذه كي تصل إلى المكان الذي تقصده، وكان لا بدّ لها من أن تجتاز ربوة تكسوها الأعشاب والنباتات الشائكة. وبرز رجل أمامها من بين الأعشاب فجأة فجفلت وقالت: يا إلهي، لقد أخفتني! لم أتوقّع أن ألتقي بك هنا.

- مفاجأة، أليس كذلك؟ ولديّ مفاجأة أخرى لك.

وكان المكان مقفراً ولم يكُن يوجد من يرى أو يسمع صوت العراك، على أنه لم يكُن يوجد عراك ولا صراخ، فكل ما حدث

أن يمامة طارت وهي تضرب بجناحَيها.

* * *

صاح كيندي ببعض السخط: ماذا حدث لتلك المرأة؟

كانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة إلا عشر دقائق، فقالت غويندا: لعلها ضلّت الطريق.

– هذا محال؛ فقد وصفته لها بكل وضوح، وهو طريق سهل. ما عليها إلا أن تنعطف يساراً بعد خروجها من المحطة وأن تمشي إلى الأمام مباشرة، وما هي إلا دقائق حتى تصل.

فقال غايلز: ربما غيّرت رأيها.

– يخيل إليّ أن الأمر كما تقول. ربما قرّرت أن لا تأتي في آخر لحظة، أو لعل زوجها اعترض على مجيئها. من المستحيل الثقة بهؤلاء الفلاحين.

وراح كيندي يمشي ذهاباً وجيئة، وأخيراً مضى إلى الهاتف ورفع السماعة وأدار القرص ثم لم يلبث أن قال: مرحباً، المحطة؟ أنا الدكتور كيندي. لقد كنت أنتظر شخصاً في قطار الرابعة والنصف، امرأة ريفية متوسطة السنّ، ألم تسأل أية امرأة عن الطريق المؤدّي إلى بيتي؟

ثم قال فجأة: ماذا تقول؟

وكانت غويندا تقف هي وغايلز بجواره فسمعا موظف المحطة يقول: لم يأتِ أحد بقطار الرابعة والنصف يا دكتور فيما عدا السيد فاراكوت وجوني لاوس.

فشكره كيندي وأعاد السماعة ثم تمتم قائلاً: يبدو أنها غيّرت

رأيها فعلاً. سوف نتناول الشاي الآن.

ولكنه لم يكَد يفرغ من عبارته هذه حتى رنّ جرس الهاتف، فتناول السماعة وسمع شخصاً يقول له: الدكتور كيندي؟

- نعم.

- أنا المفتش لاست من شرطة لونغفورد. هل كنت تنتظر امرأة تُدعى ليلي كيمبل؟

- نعم، لماذا؟ هل وقعت لها حادثة؟

- ليست حادثة بمعنى الكلمة، ولكنها ماتت على كل حال، وقد عثرنا معها على رسالة منك. هل تستطيع أن تأتي بسرعة؟

- طبعاً، أنا قادم فوراً.

* * *

قال المفتش لاست: لنحاول أن نعرف ما حدث.

وراحت عيناه تنتقلان بين كيندي وغايلز وغويندا، وكانا قد رافقا الدكتور، وكانت غويندا شاحبة اللون بادية الإعياء. قال المفتش: تقولون إنكم كنتم تنتظرون تلك المرأة في قطار الرابعة والنصف، أليس كذلك؟

فأومأ كيندي برأسه علامة الإيجاب، فخفض المفتش عينيه ونظر إلى الخطاب الموضوع فوق مكتبه، وكان هذا نصه:

عزيزتي السيدة كيمبل،

يسرّني أن أزجي إليك ما تريدين من نصح، وأنا في ديلموث. وكي تصلي إليّ لا بدّ لك من مغادرة كومبري في

قطار الثالثة والنصف وأن تستقلّي المواصلة من ديلموث حتى وورلي بولتون. وإذا خرجت من المحطة وانعطفت يساراً فسوف تجدين بيتي في آخر الشارع، وتوجد لافتة فوق الباب عليها اسمي.

جيمي كيندي

قال المفتش: لم يكُن يوجد ما يدعو المرأة إلى أن تستقلّ القطار السابق إذن؟

فسأله كيندي دهِشاً: القطار السابق؟!

- إنه هو الذي جاءت به، فقد غادرت كومبري في الساعة الواحدة والنصف لا الثالثة والنصف، ثم استقلّت المواصلة من ديلموث في الساعة الثانية، ولم تنزل في محطة وورلي بولتون وإنما نزلت في محطة ماتشنغ هالت، وهي المحطة السابقة كما تعرف.

- هذا عجيب.

- هل كان في نيتها أن تستشيرك استشارة طبّية يا دكتور؟

- لا، فقد اعتزلت المهنة منذ سنوات.

- هذا ما فهمته. هل كنت تعرفها جيداً؟

فهزّ كيندي رأسه وقال: إنني لم أرَها منذ ما يقرب من عشرين سنة.

- ومع ذلك فقد تعرفت عليها.

وارتجفت غويندا عندما رأت الجثة، ولكن منظر الجثة لم يكُن يؤثر في الطبيب، وقد أجاب بتفكير فقال: نظراً للظروف فإنه يتعذّر عليّ أن أؤكد ذلك. أظن أنها خُنقت، أليس كذلك؟

- بلى، وقد اكتُشفت جثتها فوق الربوة في أول الطريق المؤدي إلى معسكر ماتشنغ هالت، وقد عثر عليها أحد الجنود وكان في طريقه إلى المحطة، وكانت الساعة عندئذ الرابعة إلا الربع، ولكن الطبيب الشرعي يحدد وقت الوفاة فيما بين الساعة الثانية والربع والساعة الثالثة، ولا ريب أنها قُتلت بعد وصولها إلى ماتشنغ هالت بقليل. والسؤال الذي يواجهنا الآن هو: لماذا نزلت في تلك المحطة؟ هل أخطأت؟ يبدو لي هذا بعيد الاحتمال، ومن جهة أخرى فقد جاءت قبل الموعد المضروب بساعتين لأنها لم تستقلّ القطار الذي أشرت إليه وإنما استقلّت القطار السابق له، ومع ذلك فقد كان معها هذا الخطاب، فهل تستطيع الآن أن تخبرني عن سبب زيارتها لك يا دكتور؟

فأخرج الدكتور كيندي خطاب ليلي كيمبل من جيبه ثم قال: هل لك أن تقرأ هذا؟ إن الإعلان المرفق نشره السيد غايلز وزوجته الموجودان معي الآن.

قرأ المفتش لاست الخطاب بعناية كبيرة ثم قرأ الإعلان قبل أن يرفع عينيه إلى محدّثيه ويقول: هل لكم أن توضحوا لي معنى هذه القصة التي يرجع عهدها إلى وقت بعيد على ما يبدو.

- ثمانية عشر عاماً.

أصغى المفتش إليهم باهتمام كبير، وروى له الأشخاص الثلاثة القصة كلّها، وكان كيندي جافاً وواقعياً، وكانت قصة غويندا متفككة شيئاً ما ولكنها كانت مثيرة للذكريات، وكان غايلز وحده هو الذي أسهم مساهمة فعّالة في التحقيق، فقد كان أكثر وضوحاً وتماسكاً من غويندا وأقلّ تحفظاً من الطبيب. وعندما فرغ تنهّد المفتش لاست ولخص الوقائع قائلاً: كانت السيدة هاليداي

أخت الدكتور كيندي وزوجة أبيك يا سيدة ريد، وقد اختفت من بيتها، وهو نفس البيت الذي تقيمين فيه الآن، وقد حدث ذلك منذ ثمانية عشر عاماً، وكانت ليلي كيمبل قبل أن تتزوّج تعمل خادمة بالبيت، ويبدو أنها اعتقدت أخيراً ولسبب مجهول أن جريمة قتل قد ارتُكبت، وفي ذلك الوقت قيل إن سيدة هاليداي هربت مع رجل مجهول. ومن ناحية أخرى فقد مات زوجها منذ خمسة عشر عاماً في إحدى المصحّات وهو يعتقد أنه هو الذي قتلها. إن لهذه النقاط أهميتها ولكن ليس لها رابط، والمهم الآن هو أن نعرف هل ماتت السيدة هاليداي أم أنها ما زالت على قيد الحياة. وإذا كانت قد ماتت فمتى؟ ومن ناحية أخرى ماذا كانت ليلي كيمبل تعرف؟ يبدو، طبقاً للظروف، أنها كانت تعرف معلومة هامة، هامة جداً، بحيث إنها قُتلت حتى لا تتكلّم.

فصاحت غويندا: ولكن كيف استطاع القاتل أن يعرف أنها كانت تريد أن تكشف لنا ما تعرفه؟

فنظر المفتش إلى المرأة الشابة ثم قال: توجد نقطة لها معناها يا سيدة ريد. يبدو لي أنها استقلت قطار الثانية بدلاً من قطار الرابعة لسبب ما، ثم إنها نزلت من القطار قبل محطة وورلي بولتون، فلماذا؟ لا يوجد أيّ شك في أنها بعد أن كتبت إلى الدكتور كيندي كتبت إلى شخص آخر وضربت له موعداً في وورلي بولتون وهي تقول لنفسها إنها إذا لم تجد في ذلك الموعد ما يرضيها فما عليها بعد ذلك إلا أن تطلب النصح من الدكتور كيندي، ومن المحتمل أنها ذكرت لذلك الشخص أنها تعرف عنه شيئاً يورّطه.

فقال غايلز بغلظة: وهذا معناه ابتزاز.

فأجابه المفتش قائلاً: لا أظن أنه خطر لها ذلك، ولا ريب

أنها تساءلت كيف يمكنها أن تستغلّ الموقف. سوف نرى، لعل في استطاعة زوجها أن يخبرنا بالمزيد.

* * *

قال السيد كيمبل بصوت حزين: ومع ذلك فقد حذّرتها وقلت لها دعي هذه المسألة، ولكنها فعلت كل ذلك من ورائي. كانت تظن أنها أذكى من الآخرين.

ولم يسفر استجواب السيد كيمبل عن شيء. لقد كانت ليلي تعمل خادمة في فيلا سانت كاترين قبل أن يتعرف بها، وكانت تحبّ مشاهدة الأفلام السينمائية، وقالت له إنها خدمت في بيت لم يكُن يوجد أي شكّ في أن جريمة قتل قد ارتُكبت فيه.

وصمت كيمبل برهة ثم استطرد قائلاً: ولكنني لم أُبدِ أيّ اهتمام لما كانت تقول، وكنت أردّ عليها فأقول إنها تتوهم كل ذلك. لقد كانت تحبّ أن تعقد الأمور دائماً، وقد ذكرت لي قصة لا أول لها ولا آخر، فقالت إن مخدومها قتل زوجته وإنه يحتمل أن يكون قد أخفى جثتها في القبو وإنه كانت توجد فتاة فرنسية زعمت أنها رأت شيئاً من النافذة. وقد قلت لها: "لا تثقي بالأجنبيات يا عزيزتي؛ فهن كاذبات ولسن مثلنا"، وعندما كانت تعود وتروي لي قصتها ثانية كنت لا أصغي إليها تقريباً، فقد كنت أعتقد أنها تتوهم كل ذلك، فما كانت الجريمة لتزعجها، بل إنها كانت تشتري جريدة صنداي نيوز لأنها تنشر أنباء الجرائم. لقد كانت رأسها محشوة بالجريمة، ولكنها عندما قالت لي إنها تريد الردّ على هذا الإعلان قلت لها بحزم: "دعي هذا الأمر يا عزيزتي ولا تبحثي عن المتاعب"، ولو أنها أصغت إليّ لبقيت على قيد الحياة حتى اليوم.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

مَن منهم؟

عاد غايلز وغويندا إلى بيتهما في الساعة السابعة بعد أن مضى المفتش لاست لاستجواب السيد كيمبل، وكانت غويندا شاحبة اللون وفي حالة سيئة جداً. قال الدكتور كيندي ينصح زوجها: أعطِها كأساً من الليمون، ولتأكل شيئاً ثم تأوي إلى فراشها على الفور. لقد تلقّت صدمة عنيفة.

ولكن غويندا ما كادت تبلغ البيت حتى راحت تنتحب وتقول: هذا فظيع يا غايلز، فظيع جداً. أرأيت؟ إن تلك المرأة المسكينة تضرب موعداً لقاتل وتمضي إليه بكل أمان وثقة كي يقتلها، تماماً كالخروف الذي يمضي إلى المذبح!

– حاولي أن تنسي كل هذا يا عزيزتي، ومهما يكُن فقد كنا نعرف أنه يوجد قاتل في المنطقة.

– لا، لم نكُن نعرف ذلك، أعني عرفنا ذلك الآن. كان يوجد قاتل منذ ثمانية عشر عاماً، ولكن كان الأمر يبدو بعيداً عن الواقع، ثم إنه كان يوجد احتمال في أن أكون مخطئة.

– حسناً، إن هذا يثبت أنك لم تكوني مخطئة وأنك كنت على

صواب منذ البداية.

اغتبط غايلز حين وجد الآنسة ماربل في هيلسايد، وقد اهتمت العانس العجوز والسيدة كوكر بغويندا كل الاهتمام، ولكن غويندا أبت أن تشرب أي شيء وقبلت أن تأكل عجّة جاءتها بها السيدة كوكر. وكان غايلز يودّ أن يتحدث عن أي شيء آخر، ولكن الآنسة ماربل تصدّت لموضوع الجريمة فقالت رداً على نواح غويندا: أعترف أنها جريمة فظيعة وأنها أصابتك بصدمة، ولكنها صدمة لها فائدتها طبعاً. إنني امرأة مسنّة وربما لذلك لا يبدو الموت مروّعاً في عينيّ كما يبدو في عينيك أنت. ما أريد قوله هو إنه لم يعُد يوجد أيّ شك في أن هيلين هاليداي المسكينة قد قُتلت. لقد كنا نظن ذلك، أما الآن فقد أصبحنا متأكدين.

فقال غايلز: ولا شك أنك تنتظرين منّا أن نعرف أين الجثة. لا ريب أنها في القبو.

– لا، لا يا سيد ريد. تذكر ما قالته أديث باغيت. لقد بكّرت في النزول إلى القبو في صباح اليوم التالي لاختفاء هيلين بعد أقلقتها أقوال ليلي فلم تجد أي أثر يدلّ على أن جثة قد دُفنت فيه، ولكن لو أن في الفيلا آثاراً حقاً وصمّم أحد على أن يعثر عليها لعثر عليها حتماً.

– ماذا حدث للجثة إذن؟ هل نقلوها في عربة وألقوا بها إلى البحر من فوق الصخور؟

– لا، ولكن ما الذي أثار دهشتك أكثر من أي شيء عندما أتيت هنا لأول مرة؟ ألم يكُن ذلك وجود الأشجار أمام نافذة غرفة الاستقبال بحيث أخفت منظر البحر عن العيان؟ ألم يتضح فيما بعد أن تلك الدرجات كانت موجودة فعلاً وأنها نُقلت إلى آخر الشرفة

دون أيّ مبرّر لذلك؟ ألا يمكن أنت تخمّني لماذا نُقلت؟

فحدقت غويندا إلى العانس العجوز باهتمام وقد بدأت تفهم ثم قالت: هل تعنين أنها في ذلك المكان؟

فاستطردت الآنسة ماربل تقول دون أن تردّ على السؤال مباشرة: لا ريب أنه كان يوجد سبب لهذا التغيير الذي يبدو أنه لا مبرّر له، والواقع أن نقل هذه الدرجات من مكانها الأول إلى آخر الشرفة كان يدلّ على غباء كبير. وقد أخبرني الدكتور كيندي أن هيلين وزوجها كانا يحبان حديقتهما كثيراً ويهتمان بها، وكان البستاني الذي يشرف على الحديقة ينفّذ كل تعليماتهما، وإذا كان قد رأى ذات يوم أنه يوجد تغيير وأن عدداً من البلاط قد رُفع من مكانه فسوف يظن طبعاً أن مخدوميه هما اللذان قاما بهذا العمل في أثناء غيابه، ومن الممكن طبعاً أن تكون الجثة مدفونة في أحد هذين المكانين، ولكن في مقدورنا أن نتأكد أنها مدفونة تحت الدرجات التي نُقلت إلى آخر الشرفة.

فسألتها غويندا قائلة: ومن أين لك بهذا اليقين؟

- حاولي أن تتذكري. لقد تخلّت ليلي عن فكرة القبو عندما قالت لها ليوني، المربية السويسرية، إنها رأت شيئاً من نافذة الأطفال، أليس هذا واضحاً؟ لقد ألقت ليوني نظرة من تلك النافذة بالذات في وقت ما من الليل ورأت شخصاً يحفر قبراً، ولعلها عرفت الرجل الذي كان يحفره.

فقال غايلز: ولم تذكر ذلك للشرطة قط.

- ولكن تذكر يا عزيزي أن ما من أحد تحدّث عن جريمة قتل في ذلك الوقت، وإنما قيل إن السيدة هاليداي هربت مع عشيق،

وذلك هو كل ما فهمته ليوني. ولم تكُن تفهم الإنكليزية ولا تجيد التحدث بها، ومع ذلك فقد قالت لليلي -وقد يكون ذلك فيما بعد وليس في حينه- إنها رأت شيئاً غريباً من النافذة في تلك الليلة، وبذلك أكدت لليلي رأيها في أن جريمة قتل قد ارتُكبت حقاً. ولكنني أعتقد أن أديث باغيت نهرت الفتاة وقالت لها إنها تتوهّم، فاضطُرت الفتاة السويسرية إلى أن تتبنّى تلك النظرية، ولم تشأ أن يكون لها شأن مع رجال الشرطة. إن كثيراً من الناس يخافون الشرطة وهم في بلاد أجنبية غير بلادهم، ولهذا اضطُرت إلى العودة إلى سويسرا حيث نسيت الأمر.

فقال غايلز: إذا كانت على قيد الحياة فقد نستطيع الاهتداء إليها.

قالت الآنسة ماربل بتفكير: ربما.

- وكيف نهتدي إليها؟

- إن رجال الشرطة يعرفون كيف يتولّون هذه المهمة خيراً منكما.

- إن المفتش لاست سيأتي لزيارتنا غداً.

- لو كنت مكانكما لحدثته عن تلك الدرجات.

- وعما رأيته كذلك، أو خُيل إليّ أنني رأيته في البهو.

- أجل. لقد أحسنت صنعاً إذ لم تذكري ذلك لأحد، ولكن أظن أن الوقت قد حان الآن كي تتحدثي عما رأيت.

وعندئذ دخلت السيدة كوكر كي ترفع أقداح الشاي ثم قالت: معذرة يا سيدتي، إن تلك المرأة المسكينة التي قُتلت، والمشكلات

التي سببتها لك أنت ولسيدي، كل ذلك جعلني أنسى. لقد أقبل السيد فين بعد ظهر اليوم معتقداً أنك في انتظاره ومكث نصف ساعة.

فهتفت غويندا قائلة: هذا عجيب. متى جاء؟

– في نحو الساعة الرابعة أو ربما بعد ذلك بقليل، ولكنه ما كاد يغادر البيت حتى أقبل سيد آخر في سيارة كبيرة صفراء، وقد أكّد ذلك الأخير أنك طلبت منه المجيء. وانتظر هو الآخر نحو عشرين دقيقة، وقد تساءلت إذا كنت قد دعوت هذين السيدين لتناول الشاي ثم نسيت أمرهما بعد ذلك.

– لم أدعُ أحداً منهما. إن هذا غريب!

فقال غايلز: لنتكلّم مع فين؛ فلا ريب أنه لم يأوِ إلى فراشه بعد.

فمضى مسرعاً إلى الهاتف ورفع السماعة وقال: مرحباً. السيد فين؟ أنا ريد. لقد سمعت أنك أتيت إلى البيت بعد ظهر اليوم. ماذا؟ لا، لا، إنني واثق. هذا غريب. أعترف أنني لا أفهم. معذرة لإزعاجي إياك.

وأعاد السماعة بشيء من القلق ثم قال: الواقع أن هذا عجيب. لقد جاءت إلى فين صباح اليوم مكالمة من شخص طلب منه أن يأتي لدينا بعد ظهر اليوم لتناول الشاي وتسوية مسألة هامة.

تبادل غايلز وغويندا النظر بدهشة شديدة، ومضى غايلز إلى الهاتف من جديد وبحث في الدليل ثم أدار القرص، وبعد انتظار طويل سمع صوت أفليك فقال: سيد أفليك؟ أنا غايلز ريد. بالتأكيد أنا أعلم أنك رجل مشغول جداً وما كنت أفكر قط في إزعاجك.

ولكن قل لي، من الذي تحدّث إليك؟ رجل؟ لا، إنني لم أتكلم معك. لا، لا، إنني أفهم تماماً. حسناً، أعترف أن الأمر غريب.

وانتهت المكالمة وعاد فجلس أمام الطاولة ثم قال: لقد انتحل شخص اسمي وتكلّم مع أفليك وطلب منه أن يأتي لزيارتنا بعد ظهر اليوم لعقد عملية بمبلغ كبير.

قالت غويندا بعد لحظة صمت: من الجائز أن المتكلّم الغامض هو فين أو أفليك. ألا تفهم يا غايلز؟ واحد منهما قتل ليلي كيمبل ثم جاء بعد ذلك كي يثبت أنه كان بعيداً عن مكان الجريمة.

فقالت الآنسة ماربل: هذا غير ممكن طبعاً.

- أنا لا أقصد هذا بالضبط، وإنما أعني أنه جاء هنا كي يجد ذريعة يبتعد فيها عن مكتبه، ومن المؤكد أن أحدهما صادق والآخر كاذب، ولكن لن نستطيع أن نحدّد من منهما الكاذب لسوء الحظ، ومن رأيي أنه أفليك.

وقال غايلز: أما أنا فأرى أنه فين.

ورفع كل منهما عينيه إلى الآنسة ماربل، فهزّت العجوز رأسها برفق ثم قالت: يوجد احتمال ثالث.

- أرسكين؟

واتجه غايلز إلى الهاتف وطلب الاتصال بنورثمبرلاند، وبعد لحظات كان يتكلّم مع أرسكين فقال له: أهلاً، الميجور أرسكين؟ أنا ريد، غايلز ريد، من ديلموث.

ونظر إلى غويندا كما لو كان يستنجد بها، فنهضت المرأة الشابة على الفور وأخذت منه السماعة ثم قالت: ميجور أرسكين،

أنا السيدة ريد. لقد سمعنا أنه يوجد بيت معروض في نورثمبرلاند يُعرف باسم لينسكوت بريك، فهل تعرفه؟

فقال أرسكين: لينسكوت بريك؟ لا. يخيّل إليّ أنني لم أسمع هذا الاسم من قبل. في أية منطقة؟

– لا أدري بالضبط الآن، فالعنوان الذي أرسله إلينا السمسار غير واضح، ولكنه يقول إن البيت يقع على بُعد خمسة عشر متراً من دايث. ولهذا خطر لي...

– أنا آسف يا سيدة ريد ولكنني لا أعرفه. من الذي يسكنه؟

– إنه شاغر في الوقت الحالي، ولكن لا أهمية لهذا، فقد استقرّ رأينا تقريباً على بيت آخر. أرجو المعذرة، أظن أنك مشغول.

– مطلقاً. توجد أعمال منزلية لا غير، فقد استدُعيت زوجتي إلى جوار أختها، واليوم إجازة الخادمة بحيث إنني أهتمّ بشؤون البيت، وأعترف أن هذا لا يناسبني أبداً لأنني أفضّل أعمال البستنة.

– حسناً، أتمنى لك ليلة طيّبة، ومعذرة لإزعاجي إياك.

ثم أعادت غويندا السماعة وعادت فجلست قائلة: لا شأن لأرسكين بهذه الجريمة؛ فإن زوجته متغيبة وهو يقوم بشؤون البيت، وبهذا لا نجد أمامنا غير مشبوهَين اثنين فقط.

ولكن الآنسة ماربل كان يبدو عليها القلق، فقالت بعد لحظة: أظن أنكما لم تفكرا في هذه القضية بما فيه الكفاية. يا إلهي! إنني شديدة الجزع ولا أدري ماذا أفعل.

* * *

الفصل الرابع والعشرون
كفّ القرد

اعتمدت غويندا بمرفقَيها فوق المنضدة ودفنت ذقنها في راحتيها تنظر بشرود إلى فضلات غدائها العاجل. يجب أن تنقل كل ذلك إلى المطبخ وأن تغسل الأطباق ثم ترى بعد ذلك ما الذي تستطيع أن تجهزه للعشاء، ولكن لم يكُن يوجد ما يدعو إلى الاستعجال، وإنما كل ما كانت تحتاج إليه هو قليل من الوقت كي تفكر وكي تتفهم الموقف، فقد حدث كل شيء بسرعة، وعندما كانت تستعرض أحداث الصباح كانت تبدو لها شاذة وعجيبة وشبه مستحيلة، فقد وقعت الأمور بأسرع ما يكون وبطريقة عجيبة.

كان المفتش لاست قد أقبل مبكراً في نحو الساعة التاسعة والنصف وبرفقته المفتش بريمر من قوة الشرطة المحلّية، وذلك الأخير هو الذي عُهد إليه بالتحقيق في مقتل ليلي كيمبل وما قد ينتج عنه من عواقب. وقد سأل السيد ريد إذا كان يوجد ما يمنع من الحفر والتنقيب في حديقتهما، وكان يبدو من صوته أنه يريد أن يقدّم لرجاله قليلاً من المران الطبيعي أكثر من البحث عن جثة مدفونة منذ ثمانية عشر عاماً، فأجابه غايلز قائلاً: أظن أننا نستطيع مساعدتكم بإبداء بعض الآراء.

وقاد المفتش إلى الشرفة وشرح له التغييرات التي حدثت فيما يتعلق بالدرجات التي نُقلت من مكانها، فرفع المفتش رأسه إلى نافذة الطابق الأول ثم قال: أظن أن هذه نافذة غرفة الأطفال.

ثم عاد إلى البيت مع غايلز في حين اتجه رجلان إلى الحديقة وفي يد كل منهم معول. قال غايلز: أظن أنه يجب أن تعرف الآن شيئاً لم تذكره زوجتي إلا لي أنا وصديقة لها.

فألقى المفتش نظرة إلى غويندا ولزم الصمت لحظة وهو يتساءل، هل يمكن الركون إلى أقوال تلك المرأة الشابة أم أنها تنتمي إلى تلك الطبقة التي تجري وراء خيالها؟ وأدركت غويندا ما يدور في ذهنه فاتخذت موقف الدفاع على الفور فقالت: ربما توهّمت ما سوف أقول لك، ومع ذلك فإنه فظيع، بل غاية في الفظاعة.

فأجابها المفتش قائلاً: حسناً يا سيدة ريد، تكلّمي.

فروَت غويندا له كل شيء. كيف بدا البيت مألوفاً لها بمجرّد أن رأته لأول وهلة عند قدومها إلى إنكلترا، وكيف عرفت بعد ذلك أنه سبق لها أن قامت فيه بعض الوقت وهي طفلة، وكيف احتفظت في ذاكرتها بلون الورق الذي كان يكسو جدران غرفة الأطفال والباب الذي كان يفصل بين غرفة الاستقبال وغرفة الطعام، والدرجات التي أزيلت من أمام النافذة والتي كانت تؤدّي إلى الأرض المزروعة.

فأومأ المفتش برأسه. لم يقُل لها طبعاً إن ذكريات الطفولة لا تهمّه في شيء، ولكن المرأة الشابة أحسّت بأن ذلك هو ما يدور في رأسه، فاضطُرت إلى أن تجمع كل شجاعتها كي تقول له كيف كانت تجلس في صالة المسرح بكل هدوء، وكيف تذكرت فجأة

أنها رأت امرأة مخنوقة من خلال قضبان سياج الدرَج في هيلسايد، فقالت في ذلك: كانت امرأة مخنوقة ذات وجه أزرق وشعر أشقر، كانت هي هيلين. ولكن الشيء المعقد هو أنني لم أكُن أعرف من هي هيلين.

فقال غايلز: وقد خطر لنا...

ولكن المفتش قاطعه بحركة من يده قائلاً: أرجوك دع السيدة ريد تروي القصة بطريقتها هي.

فاستطردت غويندا في قصتها وقد احمرّ وجهها قليلاً، وساعدها المفتش الذي دلّل على أنه يتمتع بذكاء كبير لم تقدّره حقّ قدره فقال بتفكير: وبستر؟ نعم، الدوقة أمالفي، كفّ القرد.

فتدخّل غايلز من جديد فقال: لا ريب أن ذلك لم يكُن بأكثر من كابوس.

- أرجوك يا سيد ريد.

فقالت السيدة ريد: كان يُحتمل أن يكون كابوساً طبعاً.

فقال المفتش: لا أظن، فإذا نحن رفضنا التسليم بأن جريمة قتل قد وقعت في هذا البيت فيما سبق فإنه من المتعذر عندئذ أن نجد تفسيراً لمقتل ليلي كيمبل.

كان هذا القول يبدو معقولاً، واستطردت غويندا قائلة وقد أحسّت بشيء من التشجيع: ولكن أبي لم يرتكبها. إن هذا مستحيل، والدكتور نبروز نفسه يقول إنه ما كان ليستطيع أن يقتل أحداً، وإنه لا ينتمي إلى هؤلاء المرضى الذين يقدمون على القتل. أما الدكتور كيندي فعلى الرغم من أن أبي اعترف له بأنه قتل زوجته إلا أنه لم يصدّقه هو الآخر. إن القاتل الحقيقي شخص آخر أراد أن يتهم

أبي نفسه بأنه هو الذي ارتكب تلك الجريمة.

وسكتت المرأة الشابة برهة ثم قالت بتردّد: ونحن نعتقد أننا نعرف من هو الجاني. إننا نشتبه في رجلين على الأقل.

فاعترض غايلز قائلاً: ولكن يا غويندا لا يمكننا أن...

فقاطعه المفتش قائلاً: سيد ريد، هل لك أن تمضي إلى الحديقة وأن ترى ما إذا كان رَجُلاي يتقدمان في العمل؟ قل لهما إنني أرسلتك.

وأغلق باب الشرفة خلفه ثم عاد إلى غويندا قائلاً: حدثيني بكل ظنونك الآن يا سيدة ريد، حتى ولو كانت تبدو لك غريبة وغير مترابطة.

فأطلعته غويندا على كل شيء وحدثته بما قامت به وكيف جمعت ما استطاعت من معلومات عن الرجال الثلاثة الذين لعبوا دوراً في حياة هيلين هاليداي، ثم اختتمت حديثها بالمكالمتين اللتين تسبّبتا في قدوم والتر فين وجاكي أفليك إلى هيلسايد قائلة: وأنت ترى أيها المفتش أن أحدهما لا بدّ وأنه يكذب.

فأجاب المفتش بلهجة فاترة قائلاً: هذه هي الصعاب في مهنتي، ولكننا نعرف متى قُتلت ليلي كيمبل تقريباً، في حدود عشرين دقيقة على الأكثر. لقد قُتلت فيما بين الساعة الثانية والدقيقة العشرين والثالثة إلا عشرين دقيقة، وقد كان في مقدور أيّ شخص أن يرتكب الجريمة ثم يأتي إلى هنا بعد الظهر. وأعترف أنني لا أرى أي سبب لهاتين المكالمتين، حيث إنهما لا تنفيان التهمة عن أي من الشخصين اللذين ذكرتهما الآن.

- ولكنك ستستطيع أن تعرف طبعاً ماذا كانا يفعلان ساعة

الجريمة، وفي مقدورك أن تستجوبهما.

فابتسم المفتش من جديد ثم قال: سوف نلقي عليهما كل الأسئلة الضرورية. سنقوم بكل شيء في الوقت المناسب، فإننا لن نستفيد شيئاً إذا نحن تعجّلنا الأمور. يجب أن نفعل كل شيء بهدوء وعلى مهل.

- أجل، إنني أفهم. هذه مهنتك وما نحن إلا من الهواة، وقد حالفنا الحظ ولكننا لم ندرِ ماذا نفعل.

فابتسم المفتش ثانية واتجه إلى باب الشرفة ففتحه، ثم همّ بالخروج عندما توقف فجأة كالكلب المتربّص تقريباً وقال: معذرة يا سيدة ريد، ولكن هذه السيدة التي أراها الآن هناك، أليست هي الآنسة ماربل؟

فاقتربت غويندا بدورها من النافذة فرأت الآنسة ماربل واقفة في آخر الحديقة تقتلع بعض الأعشاب الضارّة، ثم قالت: بلى، إنها هي. لقد كانت ظريفة بحيث أسرعت إلى مساعدتنا في صيانة الحديقة.

فعاد المفتش يقول: الآنسة ماربل؟ نعم، إنني أفهم الآن.

فقالت غويندا وهي تنظر إلى المفتش باستغراب: إنها ظريفة حقاً.

- ومشهورة جداً، وقد تفوّقت على شرطة ثلاث مقاطعات على الأقل، وهي لم تقُم بأيّ دور في مقاطعتنا بعد، ولكنني أشعر بأنها سوف تتفوق علينا نحن أيضاً. إن للآنسة ماربل دخلاً في هذه القضية إذن.

- لقد قدّمت لنا اقتراحات عدة ساعدتنا في أبحاثنا كثيراً.

– لا أشك في ذلك. هل قالت لك أيضاً أين يجب أن نبحث عن الجثة؟

– لقد اكتفت بأن قالت لي ولزوجي إنه يجب أن نعرف تماماً في أي مكان ينبغي أن نبحث، ويبدو حقاً أننا كنا من الغباء بحيث إننا لم نستمع إليها.

فأطلق المفتش ضحكة صغيرة وابتعد كي يقف أمام العانس العجوز ثم خاطبها قائلاً: لا أظن أننا تعرفنا من قبلُ يا آنسة ماربل، ولكن الكولونيل ملروز لفت انتباهي إليك ذات يوم.

اعتدلت الآنسة ماربل في وقفتها وقد احمرّ وجهها قليلاً ثم قالت: آه! ذلك العزيز الكولونيل ملروز. لقد كان ظريفاً دائماً منذ...

– منذ أن لقي أحد رجال الدين مصرعه في مكتبه، أليس كذلك؟ لقد حدث هذا منذ عهد بعيد، ولكنك قمت بأعمال باهرة أخرى منذ ذلك الوقت، وخصوصاً في قضية الخطابات المجهولة في مدينة ليمستوك.

ثم استطرد قائلاً: اسمي بريمر، وأظن أنك لم تضيعي وقتك هنا.

– يا إلهي، إنني أحاول أن أفعل ما أستطيع في هذه الحديقة. إنها مهمَلة جداً والأعشاب الضارّة فيها كثيرة. ثم حدقت إلى وجه المفتش وقالت بخطورة: وجذورها تغوص في باطن الأرض.

– أظن أنك على حق، وهي جذور يرجع العهد بها إلى ثمانية عشر عاماً، أليس كذلك؟

وفي تلك اللحظة أقبل أحد الشرطيَّين مسرعاً ووجهه يتفصد

بالعرق ويعلوه التراب ثم قال: لقد عثرنا على شيء أيها المفتش.

* * *

قالت غويندا تحدّث نفسها: "وعندئذ بدأ الكابوس". وعاد غايلز من الحديقة وهو شديد الشحوب ثم قال: إنهما هناك يا غويندا.

ثم أسرع أحد الشرطيَّين إلى الهاتف لاستدعاء الطبيب الشرعي، وكانت تلك هي اللحظة التي اختارتها السيدة كوكر الهادئة الرزينة كي تخرج إلى الحديقة. ولم يدفعها الفضول بل خرجت كي تجني بعض أوراق النعناع. ووقفت فجأة أمام الاكتشاف الجديد وقد أحسّت بالمغص يلوي معدتها ثم تأوهت قائلة: هذا فظيع يا سيدتي؛ لا أستطيع احتمال رؤية هذه العظام بجوار النعناع! إن قلبي تتسارع دقاته بحيث لا أستطيع التنفس. هل أطمع في قليل من العصير؟

انزعجت غويندا وهي ترى المرأة المسكينة تلهث وقد شحب لونها، فأسرعت إلى المطبخ وصبّت قليلاً من عصير الليمون في كأس وناولتها إياها، فجرعتها السيدة كوكر ثم قالت وهي تتنهّد: لقد كنت بحاجة ماسّة إليه.

وفجأة استعصى عليها الكلام وازرقّ لونها زُرقة شديدة انزعجت غويندا بسببها فأطلقت صيحة كبيرة، وخفّ غايلز إليها ثم أسرع على الفور يستدعي الطبيب الذي كان موجوداً في الحديقة. وقال بعد ذلك بقليل: من حسن الحظ أنني كنت موجوداً وإلا ما استطعنا إسعافها. لم يكُن بينها وبين الموت إلا لحظات معدودات.

أسرع المفتش بريمر فاستولى على زجاجة العصير وسأل غايلز وغويندا متى شربا آخر مرة، فقالت غويندا إنها لم تقربها منذ أيام لأنها هي وزوجها قاما بجولة صغيرة في الشمال ولم يتناولا أخيراً إلا الجمعة.

وأردفت تقول: ولكنني أوشكت أن أشرب منها أمس لولا أن الليمون يؤلم معدتي دائماً، ولهذا فتح لي زوجي زجاجة من عصير الفراولة.

فقال الطبيب: إنك كنت محظوظة يا سيدة ريد لأنك لو كنت قد شربت منها أمس لما بقيت على قيد الحياة حتى اليوم.

فارتجفت غويندا ثم قالت: وغايلز أيضاً أوشك أن يشرب منها هو الآخر ولكنه آثر الفراولة أخيراً.

* * *

جلست غويندا وحدها في البيت، فقد خرج غايلز مع المفتش بريمر ونُقلت السيدة كوكر إلى المستشفى، ولكنها حتى تلك اللحظة، بعد أن تناولت وجبة خفيفة، لا تصدّق الأحداث التي مرت بها. شيء واحد بدا لها واضحاً، وهو وجود والتر فين وجاكي أفليك في البيت في اليوم السابق. كان في مقدور أي منهما أن يدسّ السم في العصير، وإلا فما سبب المكالمتين الهاتفيتين إلا إتاحة الفرصة لواحد منهما كي يدسّ السم في زجاجة العصير؟ لقد لمس غايلز وغويندا الحقيقة عن قرب، ولكن ربما تسلّل شخص آخر إلى البيت من نافذة غرفة الطعام في حين كانت غويندا وغايلز عند الدكتور كيندي ينتظران زيارة ليلي كيمبل، وربما اتصل ذلك الشخص بفين وأفليك كي تتجه إليهما الريبة والشكوك. ولكن لا، لا يوجد معنى لذلك لأنه لو صحّ هذا لاكتفى ذلك الشخص بالاتصال

بأحد الرجلين لأنه لم تكُن توجد حاجة إلى أن ترقى الشبهات إلى أكثر من رجل.

وارتجفت غويندا مرة أخرى. كان لا بدّ لها من وقت كي تألف فكرة أن شخصاً أراد أن يقتلها. لقد قالت لها الآنسة ماربل في البداية إنها تقوم هي وزوجها بعمل محفوف بالخطر، ولكنها لم تحمل كلامها محمل الجدّ، وكذلك لم يفعل غايلز، وحتى بعد مقتل ليلي كيمبل لم يخطر لغويندا أن أحداً قد يقدِم على التخلص منها أو من زوجها لأن كلاً منهما بدأ يدرك ما حدث منذ ثمانية عشر عاماً.

ثم تساءلت في نفسها: هل هو والتر فين أم جاكي أفليك؟ إن الجاني واحد منهما، ما في ذلك شك، بعد أن تأكدت من براءة أرسكين لأنه كان موجوداً في نورثمبرلاند في الساعة التي قُتلت فيها ليلي كيمبل.

هزّت غويندا رأسها وأقصت عنها أوهامها وعادت إلى الواقع. لن يلبث غايلز أن يعود وسيريد أن يتناول الشاي، ويجب أن ترفع الأطباق وأن تغسلها، فمضت وجاءت بصينية فحملت كل شيء إلى المطبخ، وكان المطبخ نظيفاً وكل شيء في مكانه دلالة على أن السيدة كوكر كانت شديدة العناية والاهتمام بعملها. رأت غويندا بجوار الحوض قفازاً جلدياً كانت السيدة كوكر تلبسه في أثناء غسيل الأطباق، فلبسته وهي تقول لنفسها إنه من الأفضل أن تحافظ على جمال يديها. وبعد أن فرغت من الأطباق وضعته مكانه ثم صعدت إلى الطابق الأول وهي لا تزال غارقة في أفكارها، ثم رأت أن تنتهز الفرصة فتغسل قميصين وبضعة جوارب.

وفجأة سمعت باباً يُصفق في البهو فعرفت أن شخصاً قد

دخل، فخرجت من غرفة الغسيل لكي تلقي نظرة من فوق سياج الدرَج، وأحسّت بالارتياح وهي ترى الدكتور كيندي، ثم صاحت قائلة: أنا هنا، في الطابق العلوي.

فرفع كيندي رأسه ووضع يده أمام عينيه ثم قال: أهذا أنت يا غويني؟ إنني لا أرى وجهك، فأنا قادم من الخارج وعيناي لا تتحمّلان الضوء الباهر.

وعندئذ أطلقت غويندا صيحة حادة وقد نظرت إلى يديها، وكانت لا تزال تلبس القفاز الجلدي فبدت يداها شبيهتين بكفَّي القرد، ثم قالت لاهثة والدهشة تتملّكها: كنت أنت إذن؟ أنت الذي قتلها... لقد قتلت هيلين! إنني أعرف الآن. لقد كنت أنت، أنت!

فصعد الطبيب الدرَج ببطء وهو يحدق إليها بعينيه ثم قال بصوت أجش: لماذا لم تتركيني وشأني؟ لماذا تدخّلت في كل هذا أنت وزوجك؟ لماذا أعدتما كل ذلك وأحييتما ذكراها؟ نعم، لقد أعدتما هيلين إلى الحياة، حبيبتي هيلين. أعدتما الماضي، وكان لا بدّ لي من قتل ليلي كيمبل. وأراني مضطراً الآن إلى أن أقتلك أنت كما قتلت هيلين. نعم، كما قتلت هيلين.

وكان قد بلغ حيث وقفت فشلّ الرعب جسدها، وامتدت يداه نحوها إلى عنقها وكان وجهه لا يزال هادئاً، ولكنّ عينيه فقط هما اللتان تغيّرتا، فارتدّت غويندا إلى الخلف ببطء وهي تحاول أن تصرخ عبثاً، فقد احتبس صوتها في حلقها ولم تستطع النطق. وحتى إذا استنجدت فما كان ليسمعها أحد لأنها كانت وحدها في البيت، لا غايلز ولا السيدة كوكر ولا حتى الآنسة ماربل، ثم إنها لا تستطيع أن تصرخ؛ فقد وقفت مصعوقة مذعورة من هاتين اليدين

اللتين راحتا تقتربان من عنقها. لم يكُن في مقدورها إلا أن ترتدّ بضع خطوات أخرى، ولكنه سيلاحقها، وعندئذ، عندئذ فقط...

انساب من بين شفتيها أنين مكتوم محزن، وفجأة توقف كيندي ثم ترنّح وهو يرتدّ خطوة إلى الوراء في حين أصاب عينيه رشاشٌ من الماء الممزوج بالصابون، فأطبق عينيه ورفع يديه إلى وجهه في نفس الوقت. وقالت الآنسة ماربل وهي تلهث لأنها صعدت الدرَج ركضاً: لحسن الحظ أنني كنت أرشّ أحواض الزهور بمبيد الحشرات.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

الخاتمة

قالت الآنسة ماربل: ما كان ليخطر لي أن أبتعد وأتركك في البيت وحدك يا عزيزتي غويندا، فقد كنت أعرف أنه يوجد شخص خطر طليق، وكنت أقوم بالمراقبة في الحديقة خلسة.

فسألتها غويندا: هل كنت تعرفين أنه هو؟

كانوا يجلسون ثلاثتهم، الآنسة ماربل وغويندا وغايلز في شرفة كلارنس رويال، وقالت الآنسة ماربل: إن في هذا تغييراً للجوّ.

وقد اعترف غايلز بأن هذا أفضل الحلول حقاً، وقد وافقه المفتش بريمر على ذلك، ثم ردت الآنسة ماربل على سؤال غويندا تقول: الواقع أن كل شيء كان يشير إليه، ولكن لسوء الحظ لم يكُن يوجد غير بضعة آثار لا أكثر.

فرفع غايلز عينيه وقال بحيرة: أعترف أنني لا أرى هذه الآثار.

- فكّر جيداً. أول كل شيء أن كيندي كان في المنطقة.

- في المنطقة؟

- طبعاً، عندما ذهب كلفن هاليداي إلى صهره في تلك الليلة كان هذا لا يزال موجوداً في المستشفى، طبقاً لأقواله، وعاد إلى بيته بعد لحظات، وكان المستشفى في ذلك الوقت يقع على مقربة من فيلا سانت كاترين، كما قال أكثر الشهود، بحيث إن كيندي كان في المكان المطلوب في الوقت المطلوب. ثم كانت توجد بضع حقائق لها معناها، فقد قالت هيلين هاليداي لريتشارد أرسكين إنها غادرت إنكلترا وفي نيتها أن تتزوّج والتر فين لأنها لم تكُن سعيدة في بيتها، وعندئذ كانت تقطن مع أخيها، وكان ذلك الأخير، طبقاً لأقوال جميع الشهود، مخلصاً لها، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تكُن سعيدة؟ ثم إن السيد أفليك قال لكما إنه كان يرثى لتلك الفتاة المسكينة، وأظن أنه كان صادقاً في قوله هذا، فقد كان يرثى لها حقاً. لماذا كانت تتسلل وتذهب للقاء أفليك خلسة ما دامت لم تكُن تحبه باعتراف الجميع؟ كان ذلك لأنها لم تكُن تستطيع الالتقاء بالشبان بطريقة طبيعية، فقد كان أخوها يمنعها من ذلك.

ارتجفت غويندا ثم قالت: لقد كان مجنوناً حقاً.

فأجابتها الآنسة ماربل قائلة: أجل، لم يكُن طبيعياً. لقد أحب أخته غير الشقيقة حبّ التملك! وقد أدركت حقيقة الدكتور كيندي بمجرّد أن عرفت بحادث شبكة كرة المضرب.

- شبكة كرة المضرب؟!

- نعم، فقد كان لهذا الحادث معناه. كانت تلك الفتاة قد غادرت المدرسة الثانوية لتوّها وترغب في كل ما ترغب فيه فتاة في مقتبل العمر من الحياة.

- لعلها كانت تسعى وراء المغامرات الغرامية؟

فقالت الآنسة ماربل بلهجة قاطعة: لا، وهذا بالذات أحد المظاهر البشعة لهذه الجريمة، لأن كيندي لم يقتل أخته جسدياً فحسب. وإذا أعدتما النظر في كل ما قيل لكما باهتمام فسوف تدركان أن الشخص الوحيد الذي قال إن هيلين كانت تسعى وراء الرجال إنما هو الدكتور كيندي نفسه. وأنا من ناحيتي مقتنعة تماماً بأنها كانت فتاة طبيعية ومستقيمة، وكل ما أرادته هو الخروج مع بعض الشباب قبل أن يقع اختيارها على شريك حياتها بصفة نهائية، ولا شيء أكثر من ذلك. أرأيتما الإجراءات التي اتخذها أخوها؟ عندما تبدي رغبتها في تنظيم حفلات لكرة المضرب (وهي رغبة طبيعية ليس فيها أي ضرر) يتظاهر بالقبول، ولكنه يتسلّل ذات ليلة ويمزّق الشبكة، وهو عمل إن دلّ على شيء فإنما يدل على الجنون. ولما كان في مقدور هيلين أن تمارس لعبة كرة المضرب في مكان آخر فإنه يستغلّ جرحاً أصيبت به في قدمها ويحاول أن يزيده تلوّثاً بدلاً من أن يعمل على شفائها منه، وإنني مقتنعة بأنه تصرّف هكذا فعلاً.

ولم تشتبه هيلين في شيء من كل ذلك، فقد كانت تعلم أن أخاها يحبها كثيراً ولم تفهم لماذا كانت تحسّ بالتعاسة والشقاء في بيتها، ولكنها كانت تحسّ بهذا الإحساس حقاً. وأخيراً قرّرت أن ترحل ذات يوم إلى الهند كي تتزوّج والتر فين، لا لشيء إلا لتبتعد. وهي نفسها لم تكُن تدري عن أي شيء تبتعد، فقد كانت لا تزال صغيرة ساذجة لا تستطيع أن تدرك ذلك. رحلت إلى الهند وتعرفت على سطح الباخرة بالميجور أرسكين فأحبته على الفور، وعندئذ تصرّفت تصرّف الفتاة السليمة العقل أيضاً، الشريفة التي تحترم نفسها، فلم تحرّضه على هجر زوجته لكي يهرب معها، بل منعته عن ذلك على الرغم من أنها أحبته حباً صادقاً. ولكنها ما إن رأت

والتر فين حتى شعرت بأنه يستحيل عليها أن تتزوجه، فطلبت من أخيها أن يرسل إليها أجر العودة. ثم تلتقي بأبيك في أثناء الرحلة، وترى عندئذ مخرجاً آخر مع احتمال قويّ بالسعادة، ولكنها لا تتزوج أباك مدفوعة بمظاهر خادعة، فقد كان لا يزال تحت وطأة الحزن لوفاة المرأة التي أحبها كل الحب، وهي نفسها خرجت من حب تعس، وكان في مقدور كل منهما مساعدة الآخر ومواساته.

وفي رأيي أنه يوجد معنى كبير في أنهما تزوجا في لندن ولم ينتظرا حتى يعودا إلى ديلموث لإعلام أخيها برغبتها، فلا ريب أن هيلين أحسّت بغريزتها أن هذا هو التصرف السليم، رغم أنه كان من الطبيعي أن تتزوّج في ديلموث. وأظن أيضاً أنها لم تكُن تدرك الموقف جيداً وأنها لم تكُن تدري بأية قوى شرّيرة تصطدم، ولكنها أحسّت بالضيق وخامرها إحساس بأن من الأسلم أن تضع أخاها أمام الأمر الواقع. وكان كلفن هاليداي على صلات ودّية بالدكتور كيندي ويتعاطف معه، أما الدكتور كيندي فقد بدا أنه غيّر مسلكه وتقبّل هذا الزواج عن طيب خاطر، واستأجر الزوجان بيتاً في ديلموث.

والآن ننتقل إلى تلك النظرية التي تستند إلى أن هيلين كانت تدسّ العقاقير لزوجها. ولا أرى لهذا غير تفسيرين محتملين لأنه لا يوجد غير شخصين كان في مقدورهما الإقدام على مثل هذا العمل، فإما أن تكون هيلين هي التي كانت تدسّ المخدّر لزوجها حقاً، وإذا صحّ هذا فلماذا كانت تفعل؟ وإما أن الدكتور كيندي هو الذي كان يدسّ المخدّر بنفسه، وهذا عمل متاح له لأننا نعرف أنه كان طبيب هاليداي الخاص وأن ذلك الأخير كان يثق فيه ثقة عمياء. واعتقاده بأن زوجته كانت تدسّ له المخدّر إنما أوحى به إليه الدكتور كيندي بطريقة بارعة.

تدخّل غايلز فقال: ولكن هل يوجد مخدّر يمكن أن يوهم رجلاً بأنه قتل زوجته؟ أظن أنه لا وجود لمثل هذا النوع من المخدرات.

– ها أنت تقع في نفس الفخّ مرة أخرى يا عزيزي غايلز وتصدّق كل ما يُقال لك. إن كيندي هو الذي قال إن هالياداي كان ضحية لهذا الوهم، ولم نسمع أن أحداً آخر قال عنه ذلك، وهو نفسه لا يذكر في مذكراته التي كتبها في المستشفى شيئاً من ذلك. لقد كان يشكو من بعض الأوهام والتخيلات طبعاً، ولكنه لم يحدّد طبيعتها، ويخيل إليّ أن كيندي حدثه عن رجال خنقوا زوجاتهم بعد مرورهم بتجرِبة كتلك التي يمرّ بها.

فتمتمت غويندا: إنه شيطان مريد حقاً!

– أجل. أظن أنه تجاوز منذ ذلك الوقت الحدّ الفاصل بين العقل والجنون، وقد بدأت هيلين المسكينة تدرك ذلك. ومن الواضح أنها كانت تتحدث معه في ذلك اليوم الذي سمعتها ليلي تقول فيه: "إنني أخاف منك منذ وقت طويل". وقد أقنعت زوجها بأن يشتري بيتاً في نورفولك وأن لا يطلع أحداً على نيّتها، وهذه النقطة الأخيرة غريبة ولها معناها أيضاً، ففيها الدليل على أن هيلين كانت شديدة الخوف من أن يعلم شخص محدّد بهذا القرار، وهذا الشخص لا يمكن أن يكون والتر فين ولا جاكي أفليك، ولا حتى ريتشارد أرسكين لأنه شخص كان وثيق الصلة بها أكثر من هؤلاء جميعاً. ولكنها أخطأت إذ لم تفضِ بمخاوفها إلى زوجها لأن هذا الأخير أثقله ذلك السرّ الذي لا معنى له فروى لصهره كل شيء، وعندما فعل ذلك قضى على زوجته وعلى نفسه في نفس الوقت لأن كيندي ما كان ليدَع أخته تعيش بعيداً عنه وتعرف السعادة

مع زوجها. وأظن أنه كان ينوي منذ البداية تحطيم حياة هاليداي بأن يجرّعه أدوية شديدة الخطورة بطريقة منتظمة، ولكنه حين علم أنه يوشك أن يفلت منه هو وهيلين جُنّ جنونه تماماً، فعاد ذات يوم من المستشفى ودخل حديقة سانت كاترين وفاجأ أخته في البهو فقتلها، ولم يرَه أحدٌ ولم يكُن في البيت في ذلك الوقت من يستطيع أن يراه، أو هذا ما اعتقده على كل حال، وكان يعذّبه حبه وجنونه في نفس الوقت، فنطق بتلك العبارة المفجعة التي تتفق مع الموقف تماماً.

وتنهّدت الآنسة ماربل ثم استطردت قائلة: وقد كنت غبية جداً؛ فقد كان يجب أن أفهم على الفور لأن تلك العبارة كان فيها مفتاح اللغز، لأن الذي ينطق بها في مسرحية وبستر هو رجل تآمر على موت أخته عقاباً لها لأنها تزوّجت الرجل الذي تحبّه. نعم، لقد كنا أغبياء.

فسألتها غويندا: وماذا بعد ذلك؟

- واصل كيندي خطته الشيطانية، فنقل الجثة إلى الطابق الأول وجمع بعض الثياب في حقيبتين، ثم كتب رسالة ألقاها في سلة المهملات بحيث يعتقد هاليداي الواقع تحت تأثير المخدّر أنه هو الذي ارتكب الجريمة.

فقالت غويندا: ألم يكُن من الأفضل له أن يلقي التهمة على أبي؟

هزّت الآنسة ماربل رأسها ثم قالت: لا، ما كان في مقدوره أن يجازف بذلك. لقد كان يملك عقلاً اسكتلندياً سليماً، وكان يحسب حساب رجال الشرطة الذين لا بدّ لهم من أدلة وحجج قوية كي يتّهموا شخصاً بتهمة القتل. وفي هذه الحالة بالذات فإن

المحققين يُلقون عدداً من الأسئلة المحرجة، وخشي أن يقوموا بتحرّيات عميقة فيما يتعلق بتحركاته وتصرفاته ساعة الجريمة. كانت خطته أسهل وأكثر خبثاً، فقد كان يكفيه أن يقنع هاليداي بأنه قتل زوجته أولاً، وبأنه مجنون ثانياً، وبعد ذلك يحمله على دخول أحد المستشفيات. لكنني لا أعتقد أنه أراد أن يقنعه حقاً بأن كل ذلك لم يكُن إلا مجرّد أوهام، وأظن يا غويندا أن أباك لم يقبل تلك النظرية إلا من أجلك أنت، ولكنه ظلّ يحتفظ في قرارة نفسه باعتقاده بأنه قتل زوجته، ومات الرجل المسكين وهو على هذا الاعتقاد.

فتمتمت غويندا قائلة: هذا فظيع، فظيع!

- أجل، ولا توجد كلمة أخرى للتعبير عما نشعر به، وأعتقد أن هذا هو السبب في أن عقلك الباطن ظلّ يحتفظ بذكرى ما رأيت في تلك الليلة.

قال غايلز: ولكن ماذا عن خطابَي هيلين؟ لقد كانا حقيقيين وليس فيهما أيّ زيف.

- بل كانا زائفين طبعاً، وهنا وقع كيندي ضحية خبثه، فقد أراد أن يرغمك أنت وزوجتك على التخلي عن تحرياتكما بكل طريقة، ولم يكُن يوجد أيّ شك في أنه كان يستطيع أن يقلّد خط أخته، ولكن ما كان ذلك ليخدع خبراء الخطوط، ولهذا فإن النموذج الذي أعطاك إياه على أنه خط أخته لم يكُن حقيقياً هو الآخر، فقد كتبه هو بنفسه بحيث لم يجد الخبراء أي اختلاف في الخطّين.

فصاح غايلز قائلاً: يا إلهي، ما كان هذا ليخطر لي على بال!

فقالت الآنسة ماربل: لأنك صدّقت كل ما كان يقوله لك، ومن الخطر أن نصدّق الناس في كل ما يقولونه. منذ سنوات وأنا لا أقع في هذا الفخ.

- والعصير؟

- لقد دسّ السم فيه في اليوم الذي جاء فيه بخطاب هيلين في حين كنت في الحديقة، وكان ينتظر في الداخل في حين أسرعت السيدة كوكر كي تخبرني بقدومه، ولم يكُن بحاجة إلى أكثر من دقيقة كي يرفع الغطاء ويدسّ السم.

فتمتم غايلز قائلاً: يا إلهي، يا له من شيطان! وأنا أتذكر أنه نصحني بأن أقدّم لغويني بعضاً منه ونحن نغادر قسم الشرطة بعد موت ليلي كيمبل. ولكن كيف فعل كي يلتقي بليلي؟

- إن الأمر بسيط جداً، فقد واعدها على اللقاء في ماتشنغ هالت في الخطاب الأصلي الذي أرسله إليها وطلب منها فيه أن تأتي في قطار الساعة الثانية إلا خمس دقائق، وقد فاجأها في الطريق طبعاً وخنقها ثم استبدل خطابه الأول بذلك الذي عثر عليه رجال الشرطة معها، ثم عاد بعد ذلك إلى بيته وقام بدوره فتظاهر بأنه ينتظر معكما مجيء ليلي.

- هل هدّدته تلك المرأة حقاً؟ إن خطابها لم يكُن يدلّ على ذلك، بل كان يبدو، على العكس، أنها تشتبه في أفليك.

- ربما كانت تشتبه في أفليك فعلاً، ولكن ليوني هي التي كانت تمثل الخطر الحقيقي بالنسبة إلى كيندي لأنها هي التي رأته من نافذة غرفة الأطفال وهو يحفر القبر في الحديقة، وقد ذهب إليها في صباح اليوم التالي وقال لها إن الميجور هاليداي قتل زوجته

في إحدى نوبات الجنون، وإنه هو، أي كيندي، يريد إخفاء الأمر بسبب الطفلة، وإنها إذا أرادت أن تمضي إلى الشرطة فإن لها مطلق الحرّية في أن تفعل ما تشاء، ولكن سوف يسبب لها هذا الإجراء الكثير من المتاعب، فخافت الفتاة المسكينة لمجرّد ذكر الشرطة، وقد كانت تعشق الطفلة التي تشرف على تربيتها وتثق في الدكتور كيندي ثقة عمياء وتعتقد أنه يتصرف بما فيه الخير. وقد نقدها كيندي مبلغاً من المال لا بأس به وأعادها إلى سويسرا من غير أن يضيع وقته، ولكنها قبل أن ترحل ذكرت لليلي أن أباك قتل زوجته وأنها رأته يدفن جثتها، وكان هذا يتفق تماماً مع الفكرة التي كوّنتها ليلي لنفسها، فقد كانت مقتنعة بأن كلفن هاليداي قتل زوجته.

- ولكن كيندي لم يعلم ذلك.

- طبعاً، ولهذا ما إن تلقّى خطاب ليلي حتى تملّكه الخوف، خصوصاً حين رآها تتحدّث عن السيارة التي رأتها من النافذة.

- سيارة جاكي أفليك؟

- هذا سوء فهم آخر. لقد كانت ليلي تتذكر أنها اعتقدت أنها رأت سيارة تشتبه سيارة جاكي أفليك، وكان جاكي قد ترك سيارته في الطريق. وكان ذهنها قد بدأ يعمل فراحت تفكر في ذلك المجهول الغامض الذي يأتي لزيارة السيدة هاليداي، وكان المستشفى قريباً من البيت في ذلك الوقت، ومن الواضح أن عدداً كبيراً من السيارات كان يقف أمامه، وعندما قرأ الدكتور كيندي خطاب ليلي اعتقد طبعاً أنها تتكلّم عن سيارته هو، ولم يكُن لكلمة «أنيقة» أيّ معنى محدّد في ذهنه.

فقال غايلز: لقد فهمت. كان ذلك الخطاب، لشخص له ضمير مثقل، مَظهراً من مظاهر الابتزاز. ولكن كيف عرفت كل

هذه المعلومات عن ليوني؟

قالت الآنسة ماربل: لقد جُنّ جنون كيندي تماماً، وما إن أسرع المفتش بريمر إلى الفيلا للقبض عليه حتى روى كل ما حدث وكل ما أقدم عليه. وقد ماتت ليوني في سويسرا بعد عودتها بقليل عقب تناولها جرعة قوية من مخدّر. حقاً إنه لم يكُن يترك شيئاً للظروف.

- ألهذا السبب دسّ السم في العصير؟

- تماماً. كنتِ أنت وغايلز تمثلان خطراً كبيراً عليه، ومن حسن حظك أنك لم تذكري له قط أنك رأيت هيلين وهي ميتة في البهو. لم يعرف قط أنه كان يوجد شاهد عيان.

- والمكالمتان الهاتفيتان لفين وأفليك، أهو الذي اتصل بهما؟

- طبعاً، حتى إذا اكتشفوا حقيقة العصير اتجهت الشبهات إلى واحد منها.

فقالت غويندا: وكان يزعم أنه يحبّني!

- كان يجب أن يقوم بدوره. تصوري معنى هذا بالنسبة إليه، بعد ثمانية عشر عاماً تعودين ومعك زوجك وتلقيان الأسئلة وتنبشان الماضي وتعيدان الحياة إلى جريمة كان يبدو أنها ميتة في حين أنها كانت نائمة. كان هذا أمر شديد الخطر يا عزيزتي، وأعترف أنكما سبّبتما لي الكثير من المتاعب.

فقالت غويندا: والسيدة كوكر المسكينة؟ يسرّني أنها تتماثل للشفاء سريعاً. هل تظن أنها ستعود إلينا يا غايلز؟

فقال الشاب بلهجة الجدّ: إذا جاء الطفل فسوف تعود كي تُعنى به.

فاحمرّ وجه غويندا وارتسمت على شفتَي الآنسة ماربل شبه ابتسامة ثم أشاحت بوجهها بعيداً. قالت غويندا بتفكير: من الغريب أن الأمور وقعت هكذا، ويا لها من مصادفة! لقد كنت واقفة في أعلى الدرَج أنظر إليه بشرود وهو يصعد حين نطق بتلك الكلمات التي أعادت إلى ذهني نفس الكلمات الأولى، «وجهك»، ثم «عيناي لا تتحمّلان».

وارتجفت قليلاً ثم قالت: غطوا وجهها. لقد ماتت في مقتبل العمر وعيناي لا تتحمّلان.

ثم استطردت قائلة بعد صمت قصير: لولا الآنسة ماربل لكنت الآن في عِداد الموتى. مسكينة هيلين، مسكينة حقاً؛ لقد ماتت في ريعان الشباب. هل تعرف يا غايلز؟ إنها ليست في البيت الآن. لقد أحسست بذلك أمس ونحن نرحل. لم يبقَ إلا البيت، وهو بيت يحبّنا وينتظرنا ويمكننا أن نعود إليه حين نشاء.

* * *

(تمت)